obeikandl.com

خارج ظل الرجل

الكتاب : خارج ظل الرجل
المؤلف : ليلى السيسى
تصميم الغلاف : ليلى السيسى
تدقيق لغوي : ريهام الغنام
ترجمة: نهى بهمن & د. حسين السيد
رقم الإيداع : 17810 / 2016
الترقيم الدولي : 978-977-778-0766
الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

obeikandi.com

خارج ظل الرجل

رواية لـ

ليلى السيسى

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

الجزء الأول (الطفولة)

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)

بدت أمي مقهورة حين ترجلت خارج غرفة نومها. كافحت للحفاظ على ابتسامتها الباهتةِ التى كانت ترتسم على محياها فى كل مرة تنهى جدال لها مع أبى. لابد انه أضاف الى المحظورات بنداً آخر، هكذا تعودنا نحن مع بداية كل أجازة صيفية. وطالما كنا نعول على أمى. ولم تخزلنا فى أى مرة. كانت ماما هى ملكة عرش قلوبنا.

لاحقًا في نفس الصباح صحبتنا (ماما) إلى شاطئ (سان ستيفانو)، أنا وأختي الكبيرة (راوية)، وأشقائنا الصغار هالة وهادي وسمير. لقد بدأت عطلة الصيف. وكنت حينها في الخامسة عشر من عمري.

ألقت الشمس بأشعتها الحارقة على الرمال الذهبية، وتلألأت على سطح المياه الباردة. وانتشرت السحب كزغبٍ أبيض في السماء الصافية. كان الهواء عليلًا وقلما حركت نسماته أوراق الشجر. وتألقت أمواج الصباح الكسول في البحر الأزرق مترامي الأطراف. وتناثرت الأعشاب البحرية بطول الشاطئ في انتظار أقدامنا لتسحقها ونحن نغطي أنوفنا. ابتسمت. كان يوما رائعًا ولن يفسد أي شيء بهجتي .

توافد المصطافون على شواطئ الإسكندرية في نهاية العام الدراسي هربًا من القيظ الشديد. يطلق المصريون والسائحون من البلدان المجاورة على الإسكندرية (عروس البحر المتوسط). والناظر إلى الإسكندرية من البحر في المساء يرى أضواء المدينة، عقدًا من اللؤلؤيجمل جيد (عروسنا).

ساعد شقيقي (هادي) ذو الثالثة عشر عامًا حارس الشاطئ في نصب مظلتنا على مقربة من الشاطئ. فعل الرجل ذلك بابتسامةٍ عريضة أضاءت وجهه الذي لفحته الشمس. كان يعلم جيدًا أن أمي ستغدق عليه (البقشيش).

هتفت به أمي وهو يستعد لنصب المظلة:

- "ليس قريبًا جدًّا من الماء".

أدهشني ذلك لأن أمي تحب دائمًا الجلوس بالقرب من الرمال المبتلة. كانت تقول إن زبد البحر حول كاحليها يخفف من آلام قدميها. كانت أمي تؤمن بالقوى العلاجية الساحرة للماء المالح، وكانت الحركة اللطيفة للأمواج حول قدميها تمنحها إحساسًا بالاسترخاء. قالت إن هذا يشفي تمامًا من الداخل والخارج. لكنها اليوم نقلتنا لمكان أبعد عن المياه.

على الشاطئ تجول الباعة بسلال الخوص الممتلئة بالمحار، والتي يجدها السكندريون بين الطحالب الخضراء. كانت (المحار) هي الوجبة الخفيفة المفضلة لأمي، وكانت تتناولها مع القليل من عصير الليمون، لكنها اليوم لم تستجب لمحاولات البائع المتكررة لإقناعها بالشراء. كان هناك شيئًا ما ليس على ما يرام.

تنامى داخلي إحساس بعدم الراحة لكنني قاومت. كنت مسرورة لأنني على الشاطئ ولم أدع تصرف أمي الذي لا أفهم ما يعنيه، يؤثر علي في أول يومٍ من عطلة الصيف.

لكنني لاحظت ما حدث. وكذلك لاحظت (راوية) التي تكبرني بعامٍ والتي تمتلك من الشجاعة ما ينقصني.

سألتها (راوية):

- "لماذا يا أمي؟ لماذا نحن بعيدًا جدًّا عن الماء بهذا الشكل؟"

تجاهلتها أمي وزمت شفتيها بنفس الطريقة التي تفعلها أثناء الحديث مع أبي، وأمرت الحارس أن يواصل عمله. ظهر العبوس على وجه أمي فنظرنا لها بذهول. لكنها أشاحت بنظرها بعيدًا عنا. كان أسلوبها غامضًا ومقلقًا .

وما أن نصب الحارس المظلة حتى بدأت (راوية) في خلع ملابسها. كانت تحب دائمًا التحرر من ملابسها وكانت ترتدي ثوب السباحة بالفعل أسفل ملابسها. لكن ما أن بدأت في خلع بنطالها حتى هتفت بها أمي بصوتٍ لم نعتده منها "لا تخلعي ملابسك يا راوية".

تحول قلقي إلى خوف. حتى هذه اللحظة كنت متأكدة أن أمي تخفي عنا شيئًا خطيرًا، وأن أبي هو السبب في سلوكها الغريب. لابد أن (بابا) أزعجها في وقتٍ سابق. كانت دومًا تعلن قواعده الجديدة دون تردد، وكانت تشاركه مخاوفه. لكنها قلما فرضت علينا أوامره الصارمة. إن الأوامر القاسية تخصه هو وليس هي.

قالت أمي وهي تلقي بجسدها الممتلئ على مقعد الشاطئ، وتنظر بعيدًا عنا: "أبوك قال: لا سباحة بعد الآن لكي أو راوية ".

وأكدت الأمر الصارم بنبرة صوت قاسيةٍ ومتقطعة.

تهاويت على الرمال بجوار أمي. كان لي ولـ(راوية) مكانة في قلب أمي، وكنت أنا المفضلة لها في الأوقات الصعبة. كنت أعلم أن أمي ستلين عندما أثير عواطفها بضمها .

قالت (راوية) وهي تضع يديها على خصرها:

" أمي نظري لي. هل هذا هو الأمر الجديد لأبي؟ "

ولم تنتظر لسماع رد أمي، وإنما جذبتني من يدي وقالت:

" نحن ذاهبات للسباحة".

جذبت يدي من قبضة (راوية) وغمرت أمي بالقبلات والأحضان. حاولت أن أجعلها تستعيد ابتسامتها التي اعتدناها عندما نكون على الشاطئ، لكنها نظرت لي بحدة شديدة وتراجعت. لم أرها أبدًا مؤيدة لأوامر أبي بهذا الشكل.

قالت أمي بإصرار:

" لا سباحة اليوم ولا غدًا ولا في أي يومٍ آخر. الأمر ليس بيدي. إنه أمر أبيكم".

أصبح الهواء باردًا واختلج قلبي. وانهارت (راوية) على الرمال. حاولت السيطرة على مشاعري لكنني عجزت عن السيطرة على دموعي. ضربني كلام (ماما) كموجة مد عاتية ساحقا آمالي وبهجتي بالصيف.

قلت لها: "لن ألتزم بهذا يا ماما. لا يمكن لبابا أن يحرمني من سعادتي الوحيدة طوال الأجازة".

ردت أمي بصوتٍ لطيف: "ليلى حبيبتي. لا يمكنك سوى الامتثال لأوامر والدك اليوم وغدًا وفي أي يوم".

سألتها (راوية) وهي تجذب وجهها ناحيتها:

" لماذا؟ لماذا أحضرتينا إلى هنا إذًا؟"

خفت النظرة المرسومة على وجه أمي بابتسامة. كانت أمي في صراع بين حبها لنا وخوفها من عقاب الله إذا عصت أبي. كانت أمي تحاول الامتثال لأوامر زوجها كأي امرأة مسلمة صالحة. في النهاية قالت أمي وهي تهز رأسها بيأس:

" حسنًا يا حبيبتيّ. استمتعن بيومكن".

شعرنا بفرحة غامرة. وكنا نعلم أن حب أمي لنا بلا حدود.

كانت ماما ترتدي فستانًا قطنيًّا خفيفًا؛ يساعدها على تحمل حرارة الصيف الشديدة. وبجوارها استقرت حقيبة من القش تحوي شطائر أعدتها لنا. وقد غطت رأسها بقبعةٍ مستديرةٍ من القش، وأخفت عينيها بنظارة شمسية ذات إطار أبيض. غاصت أمي في مقعدها وبدأت بالبحث عن الصحيفة في حقيبة الشاطئ، وما أن وجدتها حتى فتحتها على صفحتها المفضلة؛ حظك اليوم.

سكبت شمس الظهيرة ما يكفي من الحرارة لتدفئة أمواج الصباح الباردة، ومنحت المياه درجة الحرارة اللطيفة التي يستمتع بها السكندريون والزوار في الصيف. خلعت أنا و(راوية) ملابسنا وألقيناهم على حجر أمي. ثم جرينا مع اخواتنا للاستمتاع بالمياه. سبحت (راوية) باتجاه موجة قادمة مثل سمكة. تلألأ شعرها البني الطويل تحت آشعة الشمس، وكانت بشرتها قد اكتسبت اللون البرونزي من شمس يونيو. أما أنا تصبح بشرتي الزيتونية أغمق في الصيف. حتى شعرى كانت خصلاته تتجعد تحت تأثير الرطوبة وأضطر لجمعه فى جدائل. ومع قوامي شديد النحافة -أيضًا- كانوا يعدونني قبيحة. لم يكن مظهري محبوبًا في مصر في هذا الوقت. وورغم ذلك هززت رأسي إعجابًا بجمال شقيقتي.

سبحت (راوية) حتى لم أعد أراها أمامي. وبقيت أنا قريبة من الشاطئ بثوب الاستحمام البرتقالي. وتدافعت الأموال لتصطدم بساقي. خشيت الغرق. وكنت أخاف من البحر وتقلباته غير المتوقعة.

كانت أمي تحب الشاطئ كثيرًا. خاصة في الأوقات التي تقضيها معنا. كانت تجلس لساعات ويشرد ذهنها وهي تتأمل الأمواج. سألتها ذات مرة؛ لماذا لا تشعر أبدًا بالملل وهي تجلس طيلة اليوم في انتظارنا؟

اعترفت لي: "النسيم العليل والشمس الدافئة والهمسات اللطيفة للأمواج. كل هذا ساعدني على نسيان استبداد أبيكم".

في هذا اليوم جلست أمي محدقة في الأفق. لكنها لم تتخلف أبدًا عن التلويح لنا عندما كنت أناديها.

وبعد الغداء مكثت على مقربة من أمي، لكنني أبقيت نظري على الشاب الذي التقيته في الصيف الماضي على شاطئ الإسكندرية. أردت أن يراني بثوب السباحة البرتقالي برسمة عباد الشمس عليه الذي اشترته أمي لي هذا العام.

في الصيف الماضي عندما قابلته للمرة الأولى كنت أرتدي ثوب (رواية) السباحة الأزرق. ولكن البرتقالي كان أول ثوب سباحة خاص بي. كان البرتقالي لون الموضة الصيفي في الستينيات. وكنت مستعدة لأن يراني الناس به وأنا أخطو الآن نحو المراهقة .

في العام السابق سرت مع (راوية) بطول الشاطئ مرتدية ثوب السباحة الأزرق المستعمل بعيدًا عن عين أمي المراقبة. ولاحظت شيئًا لم أتوقعه. كان الصبية يتطلعون لي وليس فقط لـ(راوية). كان قوامي الطويل النحيف يجذب الأنظار. أسعدتني المفاجأة وجعلتني مفعمة بالثقة في النفس.

اقترب منا أحد الشباب. وقد سطعت آشعة الشمس على صدره العاري لتغمره بالضياء. كان الذكاء يشع من عينيه العسليتين المختبئتين خلف رموش كثيفة. أعجبت بقوامه الطويل وجسده الرياضي. ابتسمت له (راوية) لكنه تجاهلها.

سألني بابتسامةٍ لا تقاوم وبحةٍ دافئة في صوته:

" ما اسمك؟"

لم أصدق أنه يخاطبني أنا. لابد أنه مخطئ. محاولته للتقرب مني جمدتني مكاني وسحرتني. قلت له بصوتٍ مرتعش:

" شقيقتي اسمها راوية".

قال مشيرًا بأصبعه نحوي حتى كاد يلمس صدري:

" لا. أنا أسألك أنتِ".

"أنا؟"

تملكتني رغبة آثمة أن يلمسني وأن ألمسه أنا أيضًا. لم أشعر بخجلٍ أو ذنبٍ لإعجابي به. لقد أرضى اهتمامه بي غروري.

رد قائلًا:

"نعم أنتِ".

نظرت إلى (راوية) التي قالت وقد اتسعت عيناها فيما افترضت أنه عدم تصديق لأنه اهتم بي أنا:

"اسمها ليلى".

غمز بعينه وهو ينظر لي من أخمص رأسي حتى قدماي ويلعق شفتيه بلسانه في حركةٍ مغرية:

" ليلى أنا معجب بكِ".

ظننت أنه يكذب قطعًا. لكن عندما رأيت الذهول على وجه (راوية) اختطفتني السعادة من على وجه الأرض. صرت أستطيع الطيران. غمرتني مجاملته واستعذبت كل كلمة نطق بها وطبعت في ذاكرتي نظرته إلى جسدي. قدم نفسه باسم (غسان). كان طالبًا من لبنان. وبعد أن أخبرني ذلك توقفت عن الاستماع، وبدأت في رشف المذاق الحلو لمجاملته.

كفتاة صغيرة تعلمت من أسرتي أن الجمال هو جسد مكتنز وبشرة فاتحة. ولم أمتلك أيًّا منهما. ظلت الأسرة كلها تذكرني بتعليقاتٍ ونظراتٍ مشفقة أن قوامي النحيف غير جذاب. لكن (غسان) أثبت خطأهم.

مد (غسان) يده ودون تردد مددت له يدي. اعتصرها برفق مرسلًا موجة من السعادة غمرت كياني بأكمله. ثم قربني له لدرجة أن أنفاسه الدافئة لفحت وجنتيّ. غبت تقريبًا عن الوعي.

جذبتني (راوية) من يدي هاتفة:

" هيا لنذهب".

نظرت لأتأكد أن أمي وأقاربنا لا ينظرون لنا .

هتف (غسان) باسمي من خلفنا. حررت يدي من قبضة (راوية) وعدت إلى حيث يقف. أعطاني قطعة ورقٍ مطوية. أخفيتها في الجانب الأيسر من القطعة

obeikandl.com

العلوية لثوب السباحة ثم جرينا وعدنا إلى أمي. لم أكن مضطرة للنظر للورقة لأعرف أن هذا هو رقم هاتفه .

وعندما عدنا للمنزل كسرت أمي بيضة في كوب من الحليب. وأضافت كمية وافرة من الزبد السائل وأربع مكعبات من السكر وضربت هذا الخليط حتى أصبح كريمي القوام. وكانت تسقيني هذا المزيج الذي يساعد على السمنة مرتين يوميًا قبل الوجبات.

كانت أمي تقول، مع نظرة حادة إلى قوامي النحيف المختلف تمامًا عن قوام (راوية) الممتلئ الملفوف:

" اشربيه يا عزيزتي ".

كان الخُطاب يرون أن (راوية) جذابة للغاية. وبالمقارنة بها لم يكن قوامي النحيف الشبيه بعود الخيزران مثيرًا للرجال أو كان هذا هو ما اعتقدته. لكن في هذا اليوم كان اهتمام (غسان) وإطراؤه لي ما زالا عالقين في ذهني، ووجدت الشجاعة الكافية لرفض الكوب الممتلئ بشراب أمي .

قلت لها بنبرةٍ لم أصدق أنها صدرت مني أنا:

" لا يا أمي. لا أريد مشروبًا للسمنة بعد الآن".

لكنها قالت لي:

" إذًا لن أجبرك على تناوله. أنا أحبك كما أنتِ".

استشعرت الصدق والحب في صوت أمي. ابتسمت من أجلي ثم شربته هي رغم أنها لا تحتاجه.

بالنسبة لأسرتي كنت معيبة. كنت أعلم أن أبي يفضل مظهر (راوية) على مظهري. كما يحب أبي أن يعتقد أن (راوية) ورثت جمالها منه. لكنني بدأت أرى نفسي بعيونٍ مختلفة الآن. بعيون شخص يراني جذابة وربما لا أقاوم.

obeikandl.com

وعلى العكس من ذلك كان أبي يراني مخيبة لآماله ببشرتي الزيتونية وعيوني السوداء التي ورثتها عن أسرة أمي. كان يراها صفات تحتاج لتحسين كأن الأمر بيدي أو أنني أملك التحكم في شكل جسدي. لكنني بالنسبة لـ(غسان) كنت جميلة. وفجأة صار للحياة معنى وأصبح لي هدف.

وعدني (غسان) باللقاء في أول يومٍ من عطلة الصيف الحالية وصدقته. وطوال الشتاء نسجت حلم لقائي به في خيالي، وأنا أستعيد تفاصيل لقائي به مرارًا على الشاطئ. كنت أشعر بشوقٍ شديدٍ لعينيه وكلماته العذبة. لكنه اليوم لم يأت ولم أره.

سألت أمي ونحن في طريق العودة للمنزل: "ماما. هل ستأخذيننا إلى الشاطئ غدًا؟"

قالت بصوتٍ بدا فارغًا وغير واثق: "إن شاء الله".

سألتها من جديد: "ماما. هل ستعارضين مشيئة الله لنا اذا رفض أبى؟"

نظرت لي بعينين مفعمتين بالحب وابتسمت. ابتسمت لها وضممتها بقوة.

(2)

في ذلك المساء، وحين تهيأت الشمس للغروب. كان هذا وقت تناول الطعام. التففنا حول المائدة فوق المقاعد التي حددها لنا (بابا). جلست (راوية) على يميني، وغاصت أختي (هاله) ذات الأربعة عشر عامًا، والتي اعتادت مضغ أظفارها، في مقعدها إلى يساري. وفي المنتصف جلست أنا متصلبة بلا مبالاة، كلوحٍ خشبي عتيق، بينما أطلق (هادي) و(سمير) الشقيقان الصغيران ضحكاتٍ مكتومة، وهما يتدافعان للجلوس على أقرب المقاعد لأمي. وفي المواجهة: جلس (رضا) أخي الأكبر، وابن عمي (أحمد). كانت (أم أحمد) قد ماتت حين أنجبته، وعندما لحقها أبوه -أخو (بابا) غير الشقيق- بعدها بعامين؛ أتى (أحمد) ليعيش معنا؛ حيث عده أبوانا واحدًا من أبنائهما.

غمر الصمت الحجرة، ولم يقطعه غير الأنفاس المتقطعة الساخطة التي راحت (راوية) تطلقها وقد أزعجها تحديق (أحمد) نحوها بنظراتٍ مفعمة بالعداء، فدفعها العناد لمبادلته نفس النظرات هو و(رضا). كانت (راوية) ترفض استبداد الولدين، وكذلك المميزات التي منحها والدينا لهم .

كنا جميعًا في انتظار (بابا) دون أن نقوم بصب الطعام في الأطباق. كانت تلك واحدة من القواعد، التي تعلم كل منا أن يلتزم بها .

كنت قد قرأت أنا و (راوية) كتبًا تتحدث عن حرية الحوار، والتعبير عن الرأي. لكن (بابا) منع استخدام مثل تلك الكلمات في بيتنا؛ حيث كان يتحكم في كل خطوةٍ نمشيها، وكل نفسٍ نأخذه.

كست رطوبة الصيف مرآة البوفيه الخشبي، وتراقصت قطع الكريستال المعلقة بـ(النجفة) مع النسيم بتكاسل، وكأنها تعلن بداية وجبةٍ صامتة جديدة مع أبي. كان الجو مفعمًا بأجواء الصيف .

obeikandl.com

وقفت (ماما) أمام الباب في ثوبٍ قطنيّ فضفاض خفيف. وتردد في الصالة صدى الخطوات المتمهلة لـ(بابا) القادم من حجرته. نبهتنا (ماما) بإشارةٍ من يدها أن (بابا) قادم، فوقفنا جميعًا. ثم دخل (بابا) غرفة الطعام في خيلاء قائدٍ أتى ليتفقد قواته .

أخفى (بابا) حنانه الأبوي الذي كنا ننتظره منه، خلف قناعٍ من التزمت، ونشأنا جميعًا وقد تعودنا على مظهره الصارم، كانت تلك طريقته في فرض الطاعة والاحترام. توقف ويديه خلف ظهره. وشد قامته القصيرة إلى أقصى ارتفاعٍ ممكن. زم شفته العليا، وارتفع صدره وانخفض أسفل قميصه (المنشى) ذي الياقة البيضاء. دارت عينا أبي الشبيهتين بعين الصقر، يمينا ويسارًا، قبل أن تستقر على وجهي، فارتجفت .

اندفعت الخادمات الثلاث للانتهاء من مهامهم الأخيرة قبل أن يجلس. لمعوا خشب أريكته ذات الذراعين، وأبقت (أم زبيدة) الخادمة الأكبر عينيها الحادتين بحثًا عن أي ذبابةٍ تحوم أو بعوضة تطن، مما قد يتسبب في إثارة غضب (بابا) .

اتبعت (ماما) الروتين، فقامت بخدمته أولًا، وقد وشت عيناها الحزينتان باكتئابٍ لم أره فيهما من قبل. غمرني شعور بالتشاؤم، وأرخيت يدي على مقعدي من الخلف، متمنية ألا يطول وقت الطعام، وألا يعلن (بابا) المزيد من القواعد الجديدة . في الواقع لم أطق الانتظار كذلك للهروب إلى عالمي الخيالي حيث أحيا مع (غسان) .

شعرت بدفء شمس الصيف على بشرتي، ورحت أحلم باليوم التالي، حيث يمكنني أن أغوص ثانيةً في المياه الفيروزية للبحر الأبيض المتوسط. وبينما كنت هائمة في أحلامي، لم يكن ممكنًا الهروب أو حتى تجاهل العبوس المرتسم على وجه (بابا). كان قلبي مشبعًا بالبهجة، قبل أن يتقلص من القلق، وقد أدركت مغزى نظرة (بابا) المتوترة. كان نوعًا من التوتر الذي يسبق الإعلانات الخطيرة.

نقلت نظري نحو (ماما) التي تقف خلفه. لكنها تحاشت عيناي، وتحركت إلى مكانها على المائدة في مواجهة أبي. هنا جلس أبي، ثم جلسنا جميعًا بعده .

كنا قد تعودنا على سلوك (بابا) غير الودود، لكنه في ذلك المساء، كان يتصرف بشكلٍ مختلف. استمر تحفظه لوقتٍ أطول من المعتاد، وأنذرني شعور ممض من التشاؤم أن أبي سوف يفرض المزيد من القيود على نزهاتنا الشاطئية. أخذت نفسًا عميقًا، وانتظرت أن تتحرك شفتاه .

وقف خادمان وراء (أحمد) و(رضا) في انتظار أوامرهما. كان أخي و(أحمد) يتمتعان بمعاملةٍ خاصة مميزة، كتلك التي يتمتع بها أبي تقريبًا، فقط لأنهما كانا ولدين.

جلست عمتي (عقيلة) وابنتها (فريدة) على الأريكة داخل الشرفة المغطاة بالزجاج، والمجاورة لحجرة الطعام. كانا قد اعتادا أن يتناولان طعامهما سويًّا هناك، ولم يتناولاه يومًا معنا في حجرة الطعام .

انتظرنا أن يقول أبي: " بسم الله.." كي نبدأ الأكل. سعلت أمي، كإشارةٍ اعتادتها لكسر الصمت، وحث (بابا) أن يأكل، لكن شيئًا لم يحدث. بدا الهواء خانقًا وبالكاد كان التنفس ممكنًا، حتى أن جرونا (لولو) وقطتنا (كاليبسو) ذات اللونين الأبيض والأسود قد توقفا عن العبث بقدمي أنا و(راوية) .

نظرت إلى (بابا) في انزعاجٍ من تلك الطريقة التي تقلصت بها خلجات وجهه. وتسارع قلبي بين أضلعي. وقد تفصد العرق من جبهتي. لم نكن قد بدأنا الطعام بعد، عندما منحني (بابا) أنا و أختي أكثر نظرة تحدى وجهها لنا من قبل. قبل أن يشير نحونا ويقول :

"الخميس القادم، أنت وأختك، سوف يعقد قرانكما".

سعل بعدها وأخذ رشفة ماء، ثم أكمل :

"وسوف يحدد يوم الزفاف فيما بعد ".

دوى صوته في أذني كهسيس حية الكوبرا، وبدت نبرته لاذعة كلدغة النحل. لقد كان جرس إنذاري صادقًا. وعندما اعتصرت (راوية) ساقي أسفل المائدة، علمت أن ما سمعته كان حقيقة وليس حلمًا. بدا وجه أبي في تلك اللحظة كما لو كان قُد من صخر. وجه جامد لا أثر فيه للانفعال، إلا عينيه المحدقتين والتين كانتا الملمح البشري الوحيد فيه الذي ينبئ أنه لم يجرد تمامًا من المشاعر الإنسانية. لكنهما راحتا تشعلان النار في نفسي دون أن تهباني أي أثرٍ للحب أبوي .

يعقد قراني؟! كيف هذا، وإلى من؟ ظلت تلك الكلمات تدوي في أذني بلا توقف. ورغم أني رأيت شفتا (بابا) تواصلان التحرك؛ إلا أنني لم أسمع غير إعلانه الذي ظل يقرع مرةً بعد مرة داخل رأسي:" الخميس القادم أنتِ وأختك، سوف يعقد قرانكما ".

غصت أنا و(راوية) في مقعدينا. غير قادرتين على فعل أي شيءٍ غير التحديق فيه. وبعد دقيقة ألقينا نظرةً سريعةً على (ماما) فخفضت رأسها، وغادرت الحجرة .

عاد صوت (بابا) ثانيةً ليسحق عالمنا المهشم أصلًا:

"قبل خمسة أعوام، أخذت وعدًا بتزويج (ليلى) إلى (فاروق)، و(راوية) إلى (جمال). ولقد قرأت الفاتحة يومها على هذا ".

تقلصت معدتي في هلع، نظرت إلى عيني (راوية) عسى أن أجد تفسيرًا لما يحدث ، لكنني لم أصل لشيء. فقد كان هناك انفعال عنيف يتصارع علي وجهها، فغصت أكثر في مقعدي.

و عبر الطاولة، ابتسم (أحمد) باستخفاف، وأومأ (رضا) برأسه، وكأنما سرّه هذا الإعلان. مادت الغرفة بي ومشاعر متناقضة تتصارع في داخلي. ترك الإعلان مذاقًا حمضيًّا في حلقي، فأردت أن أصرخ. وأن أخبر أبي:

" ليس من حقك أن تقرر لي من سوف أتزوجه. ليس بإمكانك إجباري على الزواج برجلٍ لم أره أو أسمع عنه من قبل ".

لكن التصميم في عينه؛ شل كل أفكاري وحنجرتي .

تبخرت في لحظةٍ كل أحلامي في التعليم أو حتى قضاء صيفٍ على الشاطئ مع (غسان). وغمرتني سحابة مظلمة من اليأس. لقد تشكل مستقبلي كله، والآن ينتظر (بابا) أن أقبل بهذا .

تقلصت أحشائي فشهقت، وهرعت إلى الحمام. مستندة على (راوية)، بينما لحقتنا (ماما)، ثم تبعها (بابا).

صرخت (ماما) وهي تمنح (بابا) نظرة لوم:

"منك لله يا كمال.. ربنا يسامحك، يا كمال ".

"أنا بخير ".

قلتها، لكن رأسي كانت تؤلمني وقلبي يخفق. والطنين يملأ أذني. بدا نبضي كما لو كان يكرر كلمات أبي في إيقاع:" عقد قرانكما.. عقد قرانكما ".

راحت (ماما) تمسح على جبهتي، فدفنت رأسي في راحتيها. بينما احمر وجه (بابا)، وقد ترقرق الدمع في عينيه، فتش في جيوبه عن المنديل، ثم تمخط فيه. وفي عقلي كنت أرى الحب في عينيه الدامعتين، وآلمني أن أراه يبكي.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أرى فيها دموعه. في المرة الأولى بكى حين أجريت أنا و(راوية) عملية استئصال اللوزتين. كنت في الخامسة من عمري وقتها، وكانت (راوية) في السادسة. وبعد الجراحة وقف أبي باكيًا أمام حجرة الإنعاش. لم يتحمل يومها أن يرانا نتألم. كنت أحب (بابا)، وكنت أؤمن أنه لن يقدم على فعل أي شيء قد يجرحنا. لكنه الآن خيب ظني .

أردت أن أسأله عن السبب، لكنني كنت أعلم أنه لا جدوى من مراجعته. لذا اتجهت ببصري إلى (ماما) علّها تمنحني الإجابات التي أبحث عنها، لكنها قالت :

"إن أباك يحبك، وعليك أن تثقي في قراره، يا حبيبتي ".

قرأت أمي الخيبة والشك في عيني فهزت رأسها في ألم، ولم يكن بيدها أي خيار إلا أن تدعم قرار أبي. ثم عادت لتقول:

" الكثير من الآباء هم من يختارون أزواج بناتهم، وفي العادة تستمتع هؤلاء البنات بزواجٍ سعيد ".

بدت كلمات أمي فارغة غير مقنعة. فقلت:

- " وكيف يمكنك أن تعرفي يا ماما؟ "

أجابت مشددة:

"هذه هي تقاليد مجتمعنا، وليس أمامك إلا أن تعيشي طبقًا لمبادئه".

كما يبدو لم تملك (ماما) من إجابةٍ أفضل، فقد اعتادت أن تستعمل كلماتٍ مثل: المجتمع والتقاليد والعادات والدين؛ لتبرر تسلط (بابا) وقسوته. وقلت وأنا أقذف أبي بعينين مليئتين بالغضب :

"أعدك يا ماما. أنني لن ألتزم بثقافة هذا المجتمع مع أبنائي. سوف أمنحهم الحرية لاختيار من يتزوجون به ".

هزت أمي كفها بابتسامةٍ مشفقة، فعلمت أنها لا تصدق أنني يومًا ما قد أقدر على فعل شيءٍ كهذا .

ولوهلة، فكرت في مواجهة أبي. لكنني خشيت أن يكون غضبه متواريًا خلف قناع الحزن هذا. شعرت بالخوف. بينما استدار (بابا) دون أن يتلفظ بكلمةٍ أخرى، واتجه مباشرة نحو حجرته. كانت الخسارة المفاجئة لأحلامي

وتطلعاتي هي ما منحني الشجاعة الكافية؛ لأكشف عن غضبي للمرة الأولى في حياتي، فصرخت:

"إنني أكرهك يا بابا ".

وعلى الفور كتمت (ماما) فمي بكفها، وقالت بالتماس:

"حاولي أن تتقبلي قدرك يا حبيبتي، إنها مشيئة الله ".

"لا تلومي الله على قرارٍ اتخذه بابا ".

قلتها، وأنا أقبض على يدها وأرمقها بنظرة بائسة. ورغم شعوري بحزنها وألمها، إلا أنني لم أشعر بالشفقة عليها .

"كان من الصعب عليّ أن أتقبل بسهولة قرار أبيك، مثلك تماما ".

قالتها، واحتضنتني بين بذراعيها في حنان. كانت (ماما) تتسم دومًا بالصدق معي، وفي هذا الوقت كنت أعلم أنها تخبرني بالحقيقة. ولهذا أحببتها بشدة .

هنا رفعت (راوية) صوتها قائلة :

"سوف نتحدى أنا و(ليلى) قدرنا هذا".

obeikandl.com

(3)

انسحبت أنا و(راوية) إلى حجرتنا فور علمنا بشأن عقد قراننا، ثم أوصدنا بابها بالمفتاح. خطوت داخلها بعينين مغرورقتين بالدموع وكرهت نفسي لأنني غادرت غرفة الطعام، دون أن أبدي أي احتجاج. لماذا لم أقل: "لا." لأبي؟ لماذا لم أعترض؟ ولماذا لا يفرض أبي الزواج على أخي؟

هزت (راوية) رأسها وقالت لي زاجرة :

"كفي عن البكاء، علينا أن نعي: لماذا أراد (بابا) عقد قراننا مرةً واحدة، ولماذا لم يقبل بمجرد خطوبة بسيطة؟ "

لم أعِ ما تعنيه (راوية)، فلا فكرة مسبقة لديّ عن معنى عقد القران، وكل ما كنت أعلمه عن الزواج، كان من خلال زميلاتي في الصف أن الأولاد والبنات يُخطبون قبل الزواج. فلا (ماما)، أو عمتي (عقيلة)، أو حتى (فريدة) أخبرتنا يومًا بأي شيءٍ يتعلق بالزواج. انتظرت أن أفهم الأمر من (راوية) التي كانت غارقة في التفكير، وقد كانت دومًا من يتولى حل مشاكلنا مع أخوتنا الذكور الأكبر سنًّا. كنت أؤمن أن (راوية) يمكنها العثور على مخرجٍ ما لهذا .

وبعد برهةٍ قالت:

"سوف يصر أبي على كتب كتابنا، ولأنني أعلم هوس (بابا) بمسألة الجنس والعذرية. فإنني أجزم أنه لم يجعلها مجرد خطوبة؛ لأنه يرى الخاطب شخصًا غريبًا ".

ثم أضافت، وهي تدور في الغرفة:

"وربما يكون الأمر مجرد ترتيب مؤقت ".

أومأت برأسي، وتابعتها بعينٍ متسعة مشوشة ومرتبكة، لكنني كنت معجبة بمنطقها في التفكير، دون أن أهتم بمعرفة: كيف أدركت تلك الحقائق؟

obeikandl.com

عاودت (راوية) الحديث قائلة:

" كلانا يعلم أنه لن يُسمح لأي رجلٍ غريبٍ بالاقتراب منا حتى يوم الزفاف، ولا حتى الرجال الذين سيختارهم لنا بابا ".

لم أر أختي منغمسة في التفكير بمثل هذه الجدية من قبل. كنت من قبل مفعمة بالآمال والأحلام، كنت أتمنى أن أنتهي من دراستي المدرسية، وأن أرى (غسان) مرةً أخرى. ولهذا كانت فكرة عقد قراني تفزعني حتى الموت .

تجاهلت (راوية) انزعاجي، وقالت:

" لقد قرأت في مجلة حواء، أن عقد القران هو عقد شرعي وقانوني لتوثيق الزواج ".

هزتني كلمة (الزواج) حتى النخاع. فسألت:

"هل تعنين أننا بهذا سنتزوج بصورةٍ شرعية؟"

"أجل، فعقد القران يعد التزامًا أكبر بكثير من الخطبة، كما يكون هناك الكثير من المشاكل لو تم الطلاق حينها".

أربكني بشدة إدراك ما يعنيه عقد قراني. فبعد أيام، سأصير زوجة بصورة قانونية. جف حلقي وضاق الفضاء من حولي وأظلم، فأردت أن أصرخ. ولأنني أدرك كم كانت أوامر (بابا) حازمة، ومع ما جلته (راوية) من حقائق بشأن عقد القران، صرت أكثر قلقًا .

كانت حجرتنا ملاصقة لحجرة نوم أبوينا، ولا يفصلهما إلا جدار واحد. وكان هذا يمنح (بابا) فرصة الاستماع لحديثنا .

بينما ارتفع صوت (راوية) أعلى وأعلى، كلما توغلت أكثر في شرح النواحي القانونية للأمر .

كنت في الثامنة حين نقلنا (بابا) لهذه الشقة. ولم أحتج لوقتٍ طويل كي أدرك العيب في أن تكون حجرتنا ملاصقة لحجرة أبوينا. لقد أوهمنا (بابا) أننا

نتمتع بالخصوصية في حجرتنا، لكنه كان يخدعنا، فقد كان سر هذا الترتيب واضحًا لا يخفى. كنا نتشارك كذلك في نفس الشرفة والحمام مع أبوينا. وكان بالحمام نافذة صغيرة تواجه الحائط الأسمنتي لمبنى الجيران. وأصر (بابا) أن نبقي تلك النافذة مغلقة طوال الوقت ايضاً.

أما في الجانب المقابل للشرفة، فقد كانت حجرتنا تطل على رواقٍ صغير يصل الحجرتين بباقي أجزاء الشقة. كان أبي يغلق الباب الزجاجي الذي يفصل هذا الرواق الصغير عن باقي الشقة بالمفتاح في المساء، وكان يحتفظ بهذا المفتاح على الطاولة التي تجاور فراشه .

أدركت أنا و(راوية) منذ البداية أن حجرتنا الجديدة مجرد قفص ذهبي. ورغم ذلك فقد اكتشفت (راوية) لاحقًا أن حجرتنا لها مفتاح، فقالت:

" رائع. هذا يعني أنه لن يفاجئنا أي أحدٍ داخل حجرتنا بلا دعوة ".

لم أفهم؛ لماذا رغبت في أن يكون باب حجرتنا موصدًا، وهي التي كانت تشكو دومًا من العزلة الدائمة التي نحيا فيها. كانت تصر في أحيانٍ كثيرة على إحكام إغلاق الباب. كان سلوكها هذا يربكني، لكنني رغم هذا لم أعترض .

انشغالها بالباب بدا حين كانت في عمر السادسة. يومها تسللت إلى حجرة والدنا، حيث يبقي (بابا) مخططاته المعمارية مطوية على المنضدة. تسلقت (راوية) مقعد (بابا) وجلست عليه، ثم فتحت ورقة من مخططاته. أمسكت بعدها بأحد أقلام (بابا) الرصاص الزرقاء، وراحت ترسم مربعات في كل مكان في الفرخ الورقي. كنت أقف بجوارها حينها عندما برز (بابا) فجأة من خلفنا، بوجهٍ عابس .

تجمدت (راوية)، وظلت بمكانها جاثية على ركبتيها، والقلم الرصاص في قبضتها، وقد انفرجت شفتاها على حرف "O" كبير. قبل أن تغلق عينيها بعدها لتتقي نظرة (بابا) المخيفة.

تراجعتُ بضع خطوات للخلف، حتى شعرت بالحائط خلفي. ودنا (بابا) من (راوية) وألقى نظرةً سريعة على مخططه المعماري، وعينيه تنطقان بالغضب. وسمعت صوت (راوية) المرتعش، وهي تغمغم:

" لقد رسمت بعض الأبواب للناس يا بابا ".

لكن (بابا) تجاهل كلمات (راوية) وهو يشيرلنا بمغادرة الغرفة .

بالطبع. وافقت على رغبة (راوية) في غلق باب حجرتنا بالمفتاح. وقالت يومها وهي تدير المفتاح في (كالون) الباب عدة مرات:

" -يمكننا أنا نغادر الحجرة، في أي وقتٍ في اليوم، متى شئنا ".

وفي تلك الليلة التي أعلن فيه عن موعد كتب كتابنا. طرقت أمي باب حجرتنا ثلاث طرقات خفيفة كشفرة اتفقنا عليها. ففتحت (راوية) الباب. دلفت (ماما) وقد التصق ثوب نومها (النايلون الأزرق) بظهرها بفعل العرق. ثم ألقت نفسها على المقعد المواجه لمرآة التسريحة. وراحت تهف بيدها على وجهها قائلة :

" -افتحوا النافذة ".

فتحت النافذة الخشبية الأربع على اتساعها، ووقفت هناك لدقيقةٍ أرمق القرص البرتقالي الكبير للشمس الغاربة، وهو يمتزج بالأفق قبل أن يذوب في السماء. وفي قلقٍ عدت لأفكر في أحلامي التي سوف تدفن داخل المستقبل الأسود الذي خططه (بابا) لي. شقت دقات قلبي جدار الصمت. لكن (راوية) لم تتكلم. وظلت تدور في الغرفة، وبينما كنت أقف جوار النافذة تمنيت لو كانت (ماما) قد عبرت لـ(بابا) عن رفضها لقراره. تمنيت لو تختفي نظرة اليأس والخنوع تلك المرسومة في عينيها. ورغم تعاطفي مع ورطتها، وعلمي أنها مغلوبة على أمرها، إلا أنني لم أتوقف عن لومها، متمنية لو كان لديّ أم أقوى .

هب النسيم الليلي البارد نحو الداخل، وجفف العرق عن جسد (ماما)، التي لاذت بالصمت. مضى بعض الوقت، وفي النهاية لم يكن ممكنًا أن أتحمل أكثر من هذا، فهتفت:

"ماما، من هو الرجل الذي اختاره لي بابا؟ وهل قابلته من قبل؟"

"حسنًا، يا حبيبتي، إنه رجل لطيف ".

أطلقت تنهيدة. وبدت وكأنما تدربت على لفظ كلماتها تلك. ثم أردفت:

"إنه يعمل مع أبيكما منذ أعوام ".

توقفت (راوية) عن المشي. وعضت شفتها السفلى بقسوة. ثم ظهر بعض المكر على وجهها. كنت قد ألفت سلوكها العصبي هذا كثيرًا، وخاصة عندما كانت تخطط ضد (أحمد) و(رضا). والآن كانت تظهر هذا السلوك. بينما عدت لأسأل (ماما):

"وهل رآني من قبل؟ "

أجابتني (ماما):

"لا. لكن لتعلمي، فهو حاصل على شهادة جامعية ".

- كانت الشهادة الجامعية هي ورقة الحظ التي يستخدمها الرجال المصريون للظفر بزواجٍ مناسب. ربما أرادت أمي أن تبهرني بهذا، لكنها فشلت. واصلت أمي الحديث بعدها:

"لقد اختاره صهري لإدارة تمويلات شركته؛ لأنه شخص جدير بالثقة".

قالتها، وهي تفتش في وجهي عن أي علامةٍ من علامات القبول. لكنها فقط وجدت الدموع تطفر من عيني. فأكملت:

"كما أن فاروق ثري، كذلك ".

ثم التفتت نحو (راوية) التي أشاحت بعينيها بعيدًا و(ماما) تخبرها:

"أنا متأكدة من أنه سيعامل (ليلى) كملكة ".

"ملكة؟! ومن يريد أن يكون ملكة؟"

صرخت بصوتٍ مختنق.

"أريد أن أكون طالبة وحسب، يا ماما ".

فكرت في أن (فاروق) لابد أن يكون كبيرًا في السن. فـ(أم زبيدة) خادمتنا، كانت قد قالت يومًا لـ(ماما) أنها لو كانت قد تزوجت برجلٍ مسن لربما عاملها كملكة .

"كم عمره يا ماما؟"

قالت، وهي تجبر نفسها على الابتسام:

"إنه مازال في مقتبل عمره يا حبيبتي. فاروق مازال صغيرًا ".

أرادت (ماما) بكلماتها أن تطمئنني. لكنها كانت بالكاد قادرة على الكلام، وعينيها الذابلتين معلقتين بوجهي. هنا قاطعتنا (راوية):

"وماذا عني يا ماما؟ من وقع عليه الاختيار ليكون لي؟"

أجابت (ماما) ونظرة ارتياحٍ تلوح على وجهها:

"إنه جمال ابن خالتك (سميحة) ".

لم تتحدث أبدًا أمي من قبل عن أختها. ولم تزرنا خالتنا سميحة أبدًا كذلك .

"وهل لديك أخت يا ماما؟! ولماذا لم نرها من قبل؟ "

"قبل عشرين عامًا، أقدمت أختي على سب أبيكما أثناء مشكلةٍ ما".

قالتها، وهي تنظر مباشرةً نحو عيني، لكنني رمقتها ببرود، خائبة الأمل تمامًا في شخصيتها الخانعة. أخرجت (ماما) منديلًا من كمها ومسحت عينيها، لكنني لم أتعاطف. وأكملت :

"لقد اشتعلت الحرب بعدها بينهما، ثم أمرني أبوكما بعدها أن أقطع كل صلةٍ بها ".

لم نعقب على ما قالته.

"لقد هددني بالطلاق لو تحدثت إليها ثانية!"

تنازعتني الكثير من المشاعر المتباينة، وأنا أستمع لاعتراف (ماما). أردت مواساتها، لكن خسارتي لخالتي التي لم أرها أبدًا، بتوجيهٍ من أبي كان مخيبًا للأمل. وهمست أمي:

" لقد ماتت (سميحة) قبل أعوامٍ قليلة ".

وانفجرت الدموع من عينيها. ذابت خيبة أملي في تعاطفي، فوقفت وأخذت (ماما) بين ذراعي، تمخطت (ماما) وأردفت:

"بعدها بوقتٍ قصير؛ اتصل (جمال) بأبيكما وطلب الزواج بك. كانت وصية أختي على فراش الموت، أملت أن يجمع هذا بين الأسرتين ثانية ".

صدمتني قسوة أبواي. بكيت، وأنا أندب موت خالتي، تلك المرأة التي لم أعرفها.

ولم أتمالك نفسي. فصرخت، وقد تصاعد غضبي ثانية:

"أنت سيئة مثل بابا ".

"كان هذا ما أراده أبوك ".

لم يمكنني تصديق مدى طاعة أمي العمياء لأوامر(بابا) .

"وأنت وافقت على نبذ خالتي بعيدًا عن حياتنا لمجرد أن (بابا) طالبك بهذا؟"

"أجل ".

قالتها، وأحنت رأسها .

وقفت (راوية) وواجهت (ماما). راح صدرها يرتفع وينخفض مع كل نفس، بدت هي الأخرى غاضبة من أمي التي قالت:

obeikandi.com

"أبوكما لا يحب (جمال). لكنه يعتقد أن هذا الزواج قد يضع حدًّا لتمردك ".

قالتها، وقبضت على كف (راوية). كبادرةٍ للتصالح. حينها شعرت بالارتباك، وأنا في حيرة من أمري. هل كان الخطأ هو خطأ (ماما) التي سمحت لـ(بابا) أن يتحكم فيها وفينا هكذا أم أنها إرادة الله الذي منح (بابا) مثل هذه السلطة المطلقة. وهل يقبل الله المحب الذي أعرفه مثل هذا التميز! لا أدري !

جذبت (ليلى) يدها بعيدًا عن كف (ماما). وعادت لمكانها بجواري على الفراش. كنت لا أتخيل؛ كيف لرجل ما أن يحشر نفسه بيني وبين أختي؟ أردت أن تعرف (راوية) أنه لا أحد أبدًا بقادرٍ على إجباري أن أبتعد عنها. لذا عانقتها وقبلتها على خدها. فاعتصرتني بين ذراعيها بقوة .

ربانا أبوانا على الإيمان والالتزام بتعاليم الله، لكنني عندما صرت أكبر، لم أتقبل أبدًا فكرة أن الله ميز الأولاد على البنات .

"سوف تحترقين في الجحيم لو تشككت في إرادة الله ".

كان هذا ما تخوفني به عمتي (عقيلة) و(أم زبيدة) حين كنت أبوح بشكوكي. بل وحتى الراهبات في المدرسة حذرنني من الشيء نفسه. لم أرغب في سخط الله، وفي الحقيقة كنت أخشاه تمامًا كأبي .

عدت لأسأل (ماما):

"ولماذا وافقتم على زواجنا دون أخذ رأينا؟"

فقالت (ماما) وهي تتجنب النظر إلينا:

"على المرأة أن تطيع زوجها. هكذا أمرنا الله".

لم أستوعب؛ لماذا تُطالب النساء بطاعة الرجال؟ ولماذا لا يطالب الرجال بنفس الشيء؟

"وما الذي سيحدث لو لم تطعه؟ "

كنت أدفع (ماما) كي تتحدى (بابا) وتتضامن معنا .

"حينها يملك أبوكما الحق في أن يضربني أو حتى يطلقني، لقد سمح الله للرجال بمعاقبة النساء لو عصينهم ".

"لماذا يا ماما؟ ما الخطأ في المرأة. لماذا منح الله الرجال هذا الامتياز؟ ولماذا لم يأمر النساء بضرب الرجال؟"

ابتسمت (ماما) في سخريةٍ مريرة دون أن تجيب .

"لماذا خلقنا الله، طالما يحتقرنا كثيرًا هكذا؟ "

فركت (ماما) ركبتها اليمنى ببطء في حركةٍ دائرية، كانت حركة لا إرادية تلجأ إليها حين تعجز عن الرد. كانت تعرفني جيدًا. فلست بالمندفعة، ولا المشاكسة مثل (راوية). لكنني كذلك لا أتوقف حتى أنال الإجابات المقنعة .

"يبيح الله للرجل ضرب النساء، لكن بعصا صغيره ".

وأشارت لطول العصا على أنها بطول كفها .

"الله لم يأمر أي أحد بأذى المرأة. لا جسديًّا أو أي صورةٍ أخرى ".

قلتها، وأنا أرفض تفسيرات (ماما). ورغم أنه لا يمكنني تغيير معتنقاتها الدينية إلا أنني عاهدت نفسي ألا أسمح لرجلٍ بالإساءة إليّ.

كورت (راوية) كفيها، وراحت تنقر قدمها اليمنى. ثم قالت:

"ليس هذا وقت مناقشة؛ من ميزه الله ومن لا؟ إنه ربنا ولن نبحث عن إله آخر يحب المرأة ".

أخذت (ماما) نفسًا عميقًا، ثم دعتني أنا و(راوية) لحضنها، وقالت :

"سوف يكون (جمال) زوجًا رائعًا لك يا (راوية). إنه ضابط في البحرية، ولقد سافر للخارج، ورأى كيف تتعامل المجتمعات الأخرى مع المرأة؟ أنا متأكدة أنك سوف تستمتعي ببعض الحرية معه ".

تراجعت (راوية). دون أن تفلح تطمينات (ماما) مع أختي .

obeikandl.com

"وماذا عني، ماما؟ "

قلت بصوتٍ منكسر.

" من اختارلي فاروق؟ "

"لقد تقدم فاروق إلى أبيك في العمل وطلب يدك. إنه ابن عم بعيدٍ لصهري".

أجابت، وهي تربت على ظهري، لكنني دفعت كفها بعيدًا، وهي تقول:

"أبوك لا يمكنه أن يرفض رجلًا مثله ".

صرخت:

" ولماذا لا يفعل؟ هل يبالي أبي بمشاعر شخصٍ غريبٍ أكثر من اهتمامه بسعادة ابنته؟ إنني أكرهه ".

"يا ليلى، لقد أخبرت أباك أنك غير متمردة، وأنك تبلين جيدًا في المدرسة، كما أنك غير مستعدة لهذا بعد ".

ثم أطلقت زفرةً حارة، وأكملت :

"لكنه قال لي: أن هذا الحديث قد فات وقته. وقد أعطي كلمته".

"أنا أكره بابا ".

هتفت، وذقني يرتجف .

"هذه مشيئة الله. ارضي بنصيبك ".

"وإلى متى علي أن أتقبل مشيئة الله؟ "

أجهشت بالبكاء، وراحت دموعي تنهمر .

"سوف أحارب هذا الزواج حتى الموت، ولن أحتاج لأي مساعدةٍ من أحد ".

غادرت (راوية) المكان، ثم عادت بمنشفةٍ مبللة بالماء البارد. مسحت وجهي بها، وقالت :

"البكاء لن يغير من قرار بابا" .

كانت تتحدث بلهجةٍ عملية. ثم انزلقت أسفل لحاف الريش، فلحقتها (ماما). وبإنهاكٍ زحفت بينهما. وقد أحنقني عجزي، وأنني مجبرة على الانصياع لجلادي .

وقبل أن أغلق عينيّ، قلت لـ(ماما):

"كم عمرهذا الرجل يا ماما؟ "

"تسعة وثلاثون عامًا يا حبيبتي. لكنه رغم هذا يبدو أصغر ".

أجابت، وهي تدير وجهها للناحية الأخرى. غطيت رأسي بالغطاء. وأنا أتوق لمعجزةٍ من السماء كي أنسى. ثم غرقت بعدها في أحلام اليقظة الحلوة مع (غسان) قبل أن أهوي في سباتٍ عميق.

obeikandl.com

(4)

قبل أن تظهر آشعة الصباح الأولى في الأفق: أيقظني صوت الماء المتدفق في الناحية الأخرى من الجدار. كان أبي أول من يستيقظ في البيت ليتوضأ. تلحقه (ماما) بعدها، ثم تتبعهما عمتي (عقيلة) أخت بابا، وابنتها (فريدة) ليؤدوا سويًّا صلاة الفجر.

علمتنا (فريدة) حين كنا صغارًا: كيف نصلي؟ لكن أي من أبوينا لم يرغمنا على الالتزام بالفروض الدينية. فقد آمن أبي أن الحفاظ على عذريتنا أكثر أهمية من ممارسة أركان الإسلام الخمسة .

تسللت إلى حجرتنا الرائحة الشهية التي لا تقاوم للعجين الذي تخبزه عمتي (عقيلة) كل يوم أحدٍ قبل الفجر. أردت أن أثب من الفراش، وأن أختطف أحد الأرغفة الخارجة من الفرن لتوها. لكنني تذكرت مسألة عقد قراني فأحجمت .

اخترق ضوء الفجر الأول خصائص النافذة. فباركتُ الشمس الوليدة، وتساءلت إن كانت تحمل في جعبتها الأمل. كان لكل مكانٍ في الحجرة ذكرى، ومكانًا في قلبي وعقلي. الفراش المزدوج الذي تشاركته مع أختي. المقعد المكسو بالقطيفة الخضراء. مرآة التسريحة التي كنا ندور أمامها، ونحن نجرب أنواعًا مختلفة من المكياج على وجوهنا بعيدًا عن أعين (بابا). مسجل (فيليبس) الموضوع على (الكومود) والذي كنا نسمع فيه الأغاني العاطفية لمطربنا المفضل (عبدالحليم حافظ) لكن هذا لم يكن يحدث بالطبع إلا حين لا يكون (بابا) و(ماما) في البيت .

أغلقت على قلبي المكسور المحطم ثانيةً. ودلفت (راوية) الحجرة وتوقفت أمام الفراش. كانت ماتزال في ثوب نومها النايلون الوردي، وقد انسدل شعرها

ناعمًا مستقيمًا. فركت عينيّ ونهضت. لكن أختي عادت للفراش ثانية، وقالت وهي تعض أناملها، وتغمز بعينيها:

"انظري ليلى. يمكنك دفعه لفعل أي شيء تريدينه ".

"من الذي تتحدثين عنه؟ "

كنت في مزاجٍ يحتمل ألاعيب (راوية). همست (راوية):

"زوجك، أيتها السخيفة ".

دفعتها بعيدًا

"ليس زوجي بعد ".

"حسنًا. الخميس القادم سوف يكون ".

ضايقني حديثها في هذا الوقت. مكثت طوال ذلك اليوم على وسادتي أئن. ظللت أنا و(راوية) في حجرتنا، وقد رفضنا فتح الباب لأي أحد، حتى (ماما). رحنا نتحرك بتوترٍ في الحجرة لساعاتٍ كاثنين من الحيوانات محبوسين في قفص ذهبي، في انتظار أن تقضي نحبها .

وفي المساء، وعندما تقلصت أمعاؤنا جوعًا؛ انسلت (راوية) للخارج وجلبت بعض شرائح الخبز والجبن. وطبقًا من شرائح البطيخ. راقبت الرواق، وتأكدت أن (أحمد) و(رضا) ليسا هناك، ثم أوصدت الباب ثانيةً وراءها، ولحقتني في الفراش.

كانت (راوية) متأكدة أن (أحمد) أو (رضا) كانا يتلصصان علينا حين يكون (بابا) خارج البيت. وقالت لي:

"من الآن وصاعدًا. يجب أن نحافظ على خصوصياتنا ".

"يمكنني فهم هذا ".

قلتها رغم أني لم أدرك معنى ما تقوله. لكنني كنت أدرك مدى كراهيتها وعدم ثقتها في (أحمد) و(رضا)، كما كنت قد اعتدت على أنها من يقوم بتدبير

obeikandl.com

أمرينا. ارتجفت (راوية) وعضت بأسنانها شفتها السفلى. ثم صنعت قبضة بيدها اليمنى، كما لو كانت ستلكم شخص ما .

"ليلي، إن (أحمد) هو سبب رغبتي في الزواج، والرحيل عن هذا البيت ".

كانت يدها ترتعش وقد نفرت عروق كفها. لم أرها يومًا مهتاجة هكذا، لكنني أومأت كي أريحها، وكي أظهر تضامني. وقلت:

"أحمد ورضا، ليسا إلا وحشين " .

ردت، وعيناها معلقة بالباب:

"كلما بادرنا بمغادره هذا البيت، كلما كان هذا أفضل لنا ".

"هل تخافيهم؟ "

سألتها بانزعاجٍ وحيرة .

"لا، لكنهم فقط يتسببون في المتاعب لي ".

امتازت (راوية) بالجرأة والتحدي. بينما كنت مطيعة، مذعورة من كل ذكرٍ في أسرتنا.

obeikandl.com

(5)

كانت لنا أخت أخرى تدعى (هالة)، وكانت تصغرني بعامٍ واحد. لكنها لم تكن يومًا مثار اهتمام (بابا).

كان (بابا) يعاملها بطريقةٍ مختلفة تمامًا عما يعاملني به أنا و(راوية). كما لم يظهر قلقًا عليها مثلما فعل معنا. لم تكن (هالة) تشبهنا. ولم تبد يومًا اهتمامًا بالأولاد المنجذبين لها. كانت ممتلئة وقصيرة. وعانت من حبّ شبابٍ عنيفٍ لن يعجب الأولاد بلا شك، كما اعتقد (بابا).

كانت حجرتها ملاصقة لحجرة نوم أخوتنا الذكور، وحجرة عمتي (عقيلة) و(فريدة) كذلك. وكانت كل تلك الحجرات في الجانب الآخر من الباب الزجاجي المغلق على مكاننا المنعزل.

وبينما كانت (راوية) تقضي جل يومها في الشجار مع (أحمد) و(رضا)، كنت أقضي وقتي مع (هالة) والتي كانت تعاني من ألمٍ مزمنٍ في المعدة، كما أبقاها حب الشباب في حجرتها معظم الوقت. كنت في العاشرة حين سألت (بابا) أن يصحبها لطبيب أمراضٍ جلدية. لكنه رفض. ظن أن حبّ الشباب هذا سوف يزول من تلقاء نفسه. وظللت أنا و(ماما) نتوسل إليه حتى استأجر ممرضةً يونانية، كانت تأتي يومًا بعد يوم لتعتني بوجه (هالة). ومع الوقت وتكرار العلاج؛ راح وجه (هالة) يشفى، فبدت أكثر سعادةً وانطلاقًا.

نمت علاقة خاصة بيني وبين (هالة). رحت ألعب دور الأخت الأكبر التي تمنح النصائح، الأمر الذي لا يمكنني القيام به مع (راوية). كنت أشرك (هالة) أحيانًا في نشاطي اليومي، أذاكر معها وأساعدها في وضع أدوية حبّ الشباب كل يوم. كنت استمتع بمكانتي في قلب (هالة) و(راوية). رغم أن كليهما في

الواقع كان مختلفًا تمامًا عن الآخر. كانت (هالة) عادةً ما تبدي امتعاضها من سلوك (راوية)، وكانت تحذرني قائلة:

"ليلى، إنها سوف توقعك في المشاكل. (راوية) متمردة وفاشلة في دراستها. وعليك ألا تنصتي لها ".

ورغم اعتقادي أنها ربما كانت تقول هذا؛ لأنها تشعر بالغيرة من قربي من (راوية)، إلا أنني احترمت نصيحتها .

واظبت (هالة) على أداء الصلوات الخمس مع عمتي (عقيلة)، وعندما بلغت عامها الثاني عشر، وشعرت أنها قد كبرت، جربت أن تحدثني عن الصلاة. لكنني قلت لها:

"أنا لن أصلي لرب لا يحب البنات ".

يومها هزت رأسها، ولم تذكر تلك المسألة معي ثانيةً. وفي الناحية الأخرى فقد فضلت (راوية) أن تبقى بعيدة عن (هالة). وترجمت اقتراب (هالة) مني كبديلٍ لنفور (هالة) منها. رغم أن (هالة) كانت تقف في جانب (راوية) بعد كل شجارٍ ينشب بينها وبين الصبيان. كنت أحسد (هالة) على نجاتها من مراقبة (بابا) و(أحمد) و(رضا). رغم أني لم أحسدها بالطبع على حبّ الشباب .

كان (رضا) يهددنا بالقتل حين كنا نتخطى القواعد التي فرضها (بابا). كنت آخذ كلمته على مأخذ الجد، وكنت أصدق أن غضبه قد يبلغ الحد الذي قد يدفعه لقتلنا. لذا كنت أحرص على بقائي دومًا بعيدًا عنه. وكان يؤرقني أن تمرد (راوية) قد يدفعه لتلك النقطة الفاصلة .

وذات مرة أفضت (راوية) إليّ قائلة :

"ليلى، أريد أن أخبرك بالكثير عن الولدين، وخاصة (أحمد). لكن هذا ليس بالوقت المناسب ".

لم أحب الألغاز المكنونة في كلمات (راوية). أردت أن أعرف ما الذي تخفيه عني؟ ولماذا تتعامل مع تهديدات (رضا) باستخفاف؟ كانت عادةً ما تستخف بكياستي. وتعتبر -خطأً- طبيعتي الخجول الحذرة عدم نضج .

"يمكنك أن تثقي في يا راوية، أخبريني الآن، فلست بقادرةٍ على الانتظار حتى ذلك الوقت المناسب ".

تحركت (ليلى) وهي تهز رأسها. بينما توقف قلبي في ترقب، ثم رفعت نظارتها الطبية لأعلى أنفها وجلست، ثم همست :

" -بابا، بل وحتى (ماما) لن يصدقاني لو أخبرتهما ما فعله أحمد معي ".

قالتها، وهي تغطي وجهها بكفيها :

"أردت أن أنسى، وتمنيت لو ساعدتني أنت على هذا ".

بالكاد كنت أسمعها وقتها. وقد خرجت الكلمات من فمها في خفوت. احتشدت الدموع في عينيها، فاضطربت غير قادرةٍ على رؤيتها تبكي هكذا .

"حسنًا يا راوية. سوف أنتظر، لكن شرط أن تعديني أن تبقي بعيدةً عن المتاعب ".

"لا تقلقي بشأني يا ليلى، لا يخيفني أحمد أو رضا، لكنني لا أفهم: كيف يثق أبوينا في أحمد؟ "

كنت أصدق (راوية) وقد رأيت نضالها معهم وتحديها لهم. وكيف كانوا يعتدون عليها بالضرب بصورةٍ شبه أسبوعية، لكنها أبدًا لم تذرف يومًا دمعة واحدة أمامهم. بينما آمن كل فردٍ آخر في العائلة أن (راوية) تستحق هذا العقاب .

وقالت لي (راوية) ذات مرة:

"ليلى، لن يظفروا مني بدمعةٍ واحدة مهما فعلوا " .

كنت معجبة بجرأة (راوية).

obeikandi.com

(6)

كانت (راوية) من بعد (ماما) أكثر من أثق به. وكنت واثقة تماما، من أنها ستكون بجانبي للأبد. فلم يفهمني أحد كما فعلت. كانت تحس بألمي وسعادتي، وحاجتي حتى لو كنت نائمة .

كان وجود (راوية) في حياتي يعني لي الأمان والطمأنينة، كانت تستيقظ فور أن تشعر بي وأنا أنهض من الفراش؛ لأذهب إلى الحمام في منتصف الليل. ولأنها تعلم كم أخشى الظلام، فقد كانت تأتي ورائي، ثم تستند بذراعها على باب الحمام، نصف نائمة وهي تنتظر حتى أنتهي، ثم تعود للفراش ثانيةً دون أن تشكو .

استيقظت في ليلةٍ على شعورٍ غريب، لم آلفه من قبل. كنت أشعر بتقلصاتٍ أسفل بطني قبل أن أحس بالبلل في سروالي الداخلي. التزمت الصمت خشية أن يشعر (بابا) بطريقةٍ ما بانزعاجي فيدخل الحجرة. وضعت يدي في ملابسي الداخلية، وعندما أخرجتها رأيت على الضوء الخافت الذي زحف نحو حجرتنا دماء على أصابعي .

كتمت صرخةً كادت أن تفلت، وهمست :

"راوية، ساعديني. هناك دماء في (ملابسي الداخلية) ".

ضحكت، وقالت بثقة شخصٍ كبير مجرب :

"ليلى، اهدأي. ما بلل ملابسي الداخلية هو ال (x)

كانت تدعو الدورة الشهرية ب . "x " هبت (راوية) بعدها، وأتت بأحد الفوط الصحية الصغيرة وسروال داخلي نظيف، ثم علمتني كيف أضع المنديل القطني في (البانتي)؟

"يجب أن تغيريه ثلاث مرات في اليوم. هذا يعتمد بالطبع على كمية الدم المتدفق ".

أومأت، وابتسمت شاعرة بأني قد صرت بالغة مثلها .

"لا تفرحي كثيرًا بها، إن ال (x) ليست لطيفة. وسوف تدركين هذا قريبًا ".

لكنني لم أهتم. فقط أردت أن أصير بالغةً مثلها.

علمتني (راوية) ما يلزمني معرفته في وقتٍ حرم فيه (بابا) مجرد التفوه بكلمة الدورة الشهرية في البيت. لم يسمح (بابا) لأي شخصٍ أن يناقشنا في ما علينا أن نقوم به في شؤوننا الخاصة. كان يرغب في الحفاظ على جهلنا للإبقاء على ببراءتنا أطول وقتٍ ممكن كما كان يعتقد .

وفي تلك اللحظة كنت ممتنة للغاية لأن لدي أخت مثل (راوية) .

لكن جسدي بعدها راح يتغير، ويفضح ما كنت أحاول إخفاءه. نما ثديي مبكرًا، وصار ملحوظًا بصورةٍ مخجلة. ولهذا استخدمت واحدًا من أوشحة (ماما) الحريرية التي منعها (بابا) من ارتدائها نظرًا لألوانها الزاهية، ورحت ألفه حول ثديي لجعلهما مسطحتين غير ملحوظتين كل صباح قبل الذهاب للمدرسة. أردت أن أتحاشى نظرة الاشمئزاز في عينيّ (بابا) والتي كان يبديها كلما انتبه للملامح الأنثوية المتفجرة في جسد (راوية)، لأطول وقتٍ ممكن .

وعندما اكتشفت (راوية) ما أفعله في ثديي، وبختني قائلة :

"إياكِ أبدًا أن تخجلي من جسدك ".

أردت أن أتبع نصيحتها، لكنني لم أقدر. لقد علق (بابا) وشاحًا من العار على صدرونا، فقط لأننا ولدنا إناث. نما الذنب بداخلي كطفيل، راح يستهلك براءتي وثقتي في نفسي .

لقد علمونا منذ الصغر أن جسد الفتاة عورة في الإسلام، وأن هناك أجزاءً في الجسد لا يجب أن يراها الأغراب. الذراعين. الرقبة. الساقين والقدمين.

وانتظر (بابا) حتى أتانا الحيض ليأمرنا أن نغطي مناطق العورة هذه. لكن (ماما) لم تلتزم معنا بتلك القواعد بعيدًا عن أعين (بابا)، وطالما سمعناها وهي تكذب عليه لتداري ما نقوم به. لم تبال إن كانت بهذا ترسخ في أذهاننا أمثلةً غير سوية. فببساطة كان كل ما أرادته؛ أن نكون سعداء. وكانت تلك طريقتها في إظهار حبها ودعمها لنا .

احترمنا محاولاتها تلك، وأحببناها أكثر من أجل هذا. كنت معجبة كذلك بروح (راوية) المقاتلة، ورغم هذا لم يكن لديّ أي رغبةٍ في أن أتبعها في تمردها. كان أبواي يعداني ابنتهما المطيعة. لكن (راوية) كانت ترى أن ما كان ينقصني هو الشجاعة .

اعتادت أن تخوض معاركي بدلًا عني. وحين كنت أبكي كانت عيناها تدمعان ويرتجف ذقنها، قبل أن تجفف دموعي وتقول :

"سوف أكون دومًا هنا من أجلك. لكنني أريدك أن تتعلمي الدفاع عن نفسك ".

أرادتني (راوية) أن أكون قوية مستقلة. كانت تضغط عليّ لأصير شخصًا آخرًا، وكنت أتوق بشدةٍ لهذا التغيير. كانت دومًا تقول :

"الرجال في هذا البيت مستبدون. ولو سمحتي لهم أن يثيروا خوفك، فستصبحين جاريةً لهم للأبد ".

ولهذا وكي أبقى بعيدًا عن (أحمد) و(رضا). رحت أتقوقع في ذاتي. أركز في آمالي المستقبلية. وأحلم باليوم الذي أعثر فيها على حياةٍ هادئة بعيدًا عن المنزل .

كنت أحاول في بعض الأوقات أن أظهر بعض الشجاعة مثل (راوية)، أن أرتدي النظارات مثلما تفعل. بل وأن أشبها في هيئتها. في الحقيقة، كنت معجبة بـ(راوية) بدرجةٍ كبيرة، حتى أنني كذبت على (بابا) يومًا، بشأن نظري حين

أخبرته أني لم أتمكن من رؤية إبرة الخياطة حين سقطت على السجادة. ذهب بي إلى طبيب العيون، وخلال اختبارات النظر؛ تظاهرت أنني لم أر صفًّا من الحروف. وبعدها بأيامٍ قليلة كنت أرتدي نظارةً مثل أختي، كان من المستحيل أن أتخيل حياتي بدونها .

لكن من أين أتت (راوية) بكل تلك الثقة بالنفس؟ كنت أتعجب قبل أن أعلم بعدها سر هذا .

ففي ليلةٍ سهرنا فيها ورحنا نتسامر، زل لسانها وأخبرتني أنها تقرأ مجلة حواء، المجلة التي منع (بابا) (ماما) من شرائها. لأنه كان يعلم أنها تحوي مقالات تكتبها نساء متحررات، وأنها قد تزرع بعض الأفكار المتمردة في عقولنا .

قلت لها حينها:

"ليس من المفترض أن نقرأ تلك المجلة ".

"اقرأيها فحسب. سوف تطلعك على كتابات نساءٍ رفضن سيطرة الرجال ".

سألت بإثارة:

"ومن تكون تلك النساء؟ "

"نبوية موسى. هدى شعراوي. اللذين ولدا في أواخر القرن التاسع عشر. لقد ناضلوا طويلًا من أجل تحرير المرأة " .

كانت (راوية) تتحدث بحماسٍ عن هؤلاء النساء الراحلات، كما لو كن أصدقائها المقربين:

" هناك أيضًا، نوال السعداوي، التي مازالت تعمل بنشاطٍ للقتال من أجل استقلال المرأة ".

إثارتها كانت معدية. ونجحت في الفوز بجل باهتمامي، فواصلت في حماس:

"عندما تقرئي عن كفاحهم من أجل الحرية، فسوف تدركين أنني لست مجنونة ".

وأشارت إلى نفسها بفخرٍ، وهي تكمل:

"هناك نساء أخريات يفكرن مثلي ".

"وكيف حصلت على المجلات؟ "

أجابت بابتسام:

" إنها كريمة. أحيانًا يكون الخدم أكثر فائدة من مجرد التنظيف. لقد جلبتها لي ثم جعلتها تقسم ألا تخبر أي أحد، ولا حتى أنت ".

كنا نعامل (كريمة) كأخت، وكانت تأتي إلى حجرتنا كلما أرادت. عملت (كريمة) كذلك كجاسوس لنا، حيث كانت تحذرنا عندما يعود (بابا) أو (أحمد) أو (رضا) للبيت. ولهذا كنا نثق بها. شعرت بالغباء وبشيءٍ من الانكسار لأن (راوية) أخفت أمر المجلة عني. ورغم أني لم أتقبل تعاليها إلا أنني كبحت مشاعري لأتجنب المواجهة، مثلما تفعل (ماما) مع أبي .

"حسنًا، الآن دعيني أقرأ المجلة، أرغب في التعلم لأكون أكثر شبهًا بك".

قلتها، وأنا أتحرك لأدنو منها. لكنها قالت منبهة:

"أنا لا أريدك أن تصيري مثلي. إنني مازلت في الثالثة عشر من عمري، لكنني قد رأيت الكثير من القبح من أناسٍ طالما وثقت بهم".

وتغير صوتها، وصار أكثر مرارة وهي تواصل:

" لا أريدك أن تخوضي نفس التجربة يا ليلى ".

ثم احتضنتني، وأكملت :

"أتمنى لو أستبدل عقلك هذا بآخر أكثر نضجًا ".

"وهل هذا ممكنًا؟ "

قلت متهكمة .

"فقط دعيني أقرأ ما قرأته ".

"إنها ليست المجلة فقط يا ليلى. إنها أمينة السعيد ".

"من هذه؟"

في تلك اللحظة كنت قد فقدت كل صبري. وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أبدأ القراءة. وقالت (راوية):

"إنها المرأة التي فتحت عينيّ. هي التي علمتني؛ كيف أقاتل لأظفر بحقوقي التي وهبني بها الله؟ "

"حقوق! أنا لا أعلم أن لنا حقوقًا!"

تجاهلت (راوية) دهشتي، وهي تقول:

"تكتب (أمينة السعيد) عامودًا صحفيًّا. تعلم فيه النساء؛ كيف يناضلن من أجل حريتهن؟ وبسببها يرفض (بابا) أن نقرأ حواء ".

طالبتها أن تريني؛ أين تخفي تلك المجلات؟ رفعت حافة مرتبة الفراش، وابتسمت وهي تجذب رِزمةً صغيرة من المجلات .

ثم ألقت بها في حضني، وقالت:

" ها هي . فقط أتمنى لو تتعلمي شيئًا جديدًا، لم أعلمه لك ".

ابتسمت في تلك اللحظة بمكر، قبل أن تختطفهم ثانيةً لتثيرني. فصرخت في وجهها رافضة عبثها:

"راوية، لو كنت قد استفدت من قراءتهم حقًّا، فعليك ألا تمنعيهم عني ".

وضعت المجلة في يدي ثانيةً، وقالت ببساطة:

" وها أنا أريهم لك ".

ضممت نسخ المجلة بقوةٍ نحو صدري، وجلت بعيني الحجرة بحثًا عن مكانٍ آمن لأخبئهم فيه. كنت أبحث عن مكانٍ سريّ لي لأرضي إحساسي المستجد بالاستقلال. ثم طويت المجلات ودسستها في فجوةٍ بين الجدار والدولاب .

obeikandl.com

وبعد أيامٍ قليلةٍ استيقظت (راوية) في منتصف الليل لتجدني أقرأ نسخة من حواء أسفل الغطاء على ضوء مصباحٍ يدوي. فقالت بعينين نصف مغلقتين.

" -أمازلت مستيقظة؟ الوقت متأخر للغاية ".

دفعت الغطاء للخلف، وصوبت ضوء الكشاف على وجه (راوية): " نعم أنا أقرأ حواء ".

غمزتني (راوية) وقالت:

" ضعي المجلة جانبًا، ودعيني أريك شيئًا ما".

ثم أخرجت علبةً من سجائر (كليوباترا) من حمالة صدرها. كانت حمالة صدر (راوية) هي مكانها السري. حتى وهي نائمة .

"ما رأيك لو تجربي واحدة؟ "

"أنت تدخنين؟"

أطلقت شهقة ذهول. فقد كان التدخين بالطبع أحد محرمات (بابا) .

"منذ متى؟ "

"لقد بدأت توًّا ".

قالتها بلا مبالاة. رغم أنها مازالت في الرابعة عشر .

"وكيف يبدو مذاقها؟ "

أردت أن تخبرني أن مذاقها سيئًا .

"عليك أن تجربي بنفسك. جربيها في الحمام فقط. حين لا يكون الحراس في البيت ".

كنا نطلق على (رضا) و(أحمد) الحراس من وراء ظهورهم .

"لكن تأكدي أن تكون النافذة مفتوحة على اتساعها ".

"حسنًا".

كنت أريد دومًا أن أفعل ما تفعله (راوية). بينما واصلت هي تعليمي قائلة :

"امسكي السيجارة بواسطة هذان الإصبعين. السبابة والوسطي ".

ثم وضعت إصبعيها على شفتيها، وأكملت :

"بعدها امتصيها بقوة. وعندما تحصلين على كميةٍ كافية من الدخان في فمك".

أبعدت أصابعها عن فمها، وأردفت .

"أطلقي الدخان ببطء عبر أنفك ".

تدربنا لساعاتٍ بسيجارةٍ غير مشتعلة. ثم انتهزنا أول فرصة، كان (أحمد) و(رضا) فيها خارج المنزل، وتسللنا نحو الحمام. هناك ساعدتني (راوية) على إشعال أحد السجائر، وضعتها في شفتي وسحبت نفسًا بقوة. كما أخبرتني. وعلى الفور رحت في نوبة سعال حاد .

أطلقت (راوية) ضحكة قصيرة، وقالت:

"أنت غير مستعدة بعد. لتجربها مرة ثانية في يومٍ آخر ".

كانت محاولات تدخيني في الحمام تنتهي دومًا بالفشل. لكنني رحت أزعجها بمطالبتها بالمزيد من الفرص .

"حسنًا يا ليلى، لكن الفكرة ليست أن تسعلي أو تختنقي. يمكنك تجاوز خطوة الأنف وأخرجي الدخان من فمك " .

"لا تتخلي عني " .

ناشدتها. لكنها لم تفعل أبدًا سواء في التدخين أو أي شيءٍ آخر .

وفي يومٍ صيفي؛ حين كانت (راوية) في الخامسة عشر، تحركت نحو الشرفة وأضاءت مصابيحها. رآها (بابا)، فحبسها في حجرة المؤن التي لا تزيد مساحتها عن أربعة أقدامٍ في خمسة أقدام، كانت الحجرة بلا نوافذ. فقط كان هناك فجوة مغطاة بشبكة صغيرة من السلك في قمة بابها الخشبي لتهويتها. أعطاها

(بابا) بطانية ووسادة ودورق ماءٍ كبير، وبعض الخبز والجبن. ثم نهاها من التحدث إلى أي أحد قبل أن يذهب. وعندما عاد (بابا) وقت الغذاء اصطحبها للحمام .

أعددت بعض الطعام الذي تحبه (راوية) مثل الشوكولاتة، والزيتون الأخضر والجبنة القديمة، والخبز الفرنسي، ثم خبأته في الحمام. وفي كل وقتٍ مخصص للحمام، كانت (راوية) تأكل من هذا الطعام قبل أن يعود (بابا) بها ثانية إلى محبسها .

لم أتحمل رؤيتها محبوسة هكذا، شعر كل فرد في البيت بالأسى من أجلها. كل أخوتي الأصغر، عمتي (عقيلة) و(فريدة). وشاركني الجميع في تقديم العون لها .

وقالت (راوية) لي:

"أتمنى لو أظل قوية كي أتحمل تلك المعاملة القاسية من رجال هذا البيت ".

وبينما كنت أؤمن أن (راوية) تستحق العقاب؛ لأنها ارتكبت خطأ لم يكن مسموحًا لها بفعله، إلا أنني رفضت الطريقة التي عاقبها بها (بابا) .

وضعت كرسيًّا أمام باب حجرة المؤن المحبوسة فيه، ورحت أقرأ لها مقالات من مجلة حواء، وخاصة مقالات (أمينة السعيد). مؤسسة المجلة المؤمنة بالمساواة بين المرأة والرجل. بينما كان باقي أفراد العائلة يراقبون المكان .

وفي الليل أثناء فترة حبس (راوية)، كنت أتقلب وأتململ على الفراش بلا نومٍ، وأختي لا تنام بجواري. لذا كنت آخذ بطانيتي ووسادتي إلى الرواق المؤدي لباب محبس (راوية) لأنام هناك. حذرتني (راوية) من أنني قد أعاقب من أجل شيء كهذا، لكنني لم آبه. كنت أستمتع بالقيام بدور الأخت المسؤولة التي

ترعى. والتي لم تشهدها (راوية) مني من قبل. فالآن صار عليها الاعتماد عليّ خلال محنتها .

وقبل الفجر مباشرة؛ كانت (راوية) توقظني لأعود لغرفتي قبل أن يستيقظ (بابا) ليصلي الفجر، كان لدي الشجاعة لأواجه حتى غضب (بابا) من أجلها في هذا الوقت، فلم أعد أخشى أي أحد. وبحلول يوم الجمعة كانت (راوية) قد أمضت بالفعل أسبوعًا في حجرة المؤن .

انتهى (بابا) من صلاة الجمعة، وحين عاد أطلق سراحها. خرجت (راوية) وسارت مرفوعة الرأس كي تظهر تحديها، وهي تنظر إلى (بابا) بعينين تملأهم الكراهية. سارت مباشرة إلى حجرتنا فلحقتها وأوصدت الباب، ثم جلسنا صامتتين على الفراش، في مواجهة بعضنا البعض. كان شيء ما قد مات فيها. خلت عيناها من بريق الشجاعة والتوق للقتال. ونطق صمتها بالهزيمة والذل .

أمسكت بيدها وفركتهما بلطف. منتظرة أن تعود أختي إلى ذلك الشخص الذي أعرفه. وبينما حدقت هي في الفراغ احتضنتها، لكن جسدها بدا وكأنما لا حياة فيه. قبلتها على جبهتها وعلى خديها كي أحي ثانية روحها المتمردة، لكنني فشلت .

لكنها بعد حين أخذتني بين ذراعيها حين رأت الدموع تنهمر على وجهي، فمسحت دموعي، وهمست:

"لا تحزني يا ليلي. سوف أتغلب على هذا قريبًا ".

كنت بحاجةٍ لأن أرى (راوية) قوية، وأن أحتضنها بشدة. لقد كانت ناصحي الأمين، وصديقتي المفضلة، وصخرتي التي أستند عليها .

قالت لي في صباح اليوم التالي لإعلان موعد كتب كتابنا، من قبل(بابا) في صوتٍ يعبق بالإثارة:

"ألا تعلمين يا ليلى، أن الزواج سوف يكون تذكرتنا للعالم الخارجي ".

كانت تجلس على الفراش وقد عقدت ساقيها. نظرت بعدها نحو الخارج عبر النافذة، وأومأت بحرارة :

"في النهاية سوف تُفتح أبواب هذا السجن. وسوف نقوم بكل شيءٍ حرمنا من فعله. سوف نستقل المواصلات العامة. نلبس الملابس التي تروقنا. نضع المكياج. نتحدث إلى الأولاد. ونختلط بالأصدقاء. لن نكون تحت سيطرة (بابا) ولا (أحمد) أو (رضا). ولن تكون هناك مدارس أخرى ".

كنت متفوقة في دراستي، وكنت أحلم أن أصبح صحفية، رغم تيقني أن (بابا) لن يدعم مثل هذا الطموح. بدت الحياة التي تصفها (راوية) مبهجة، لكنني لم أشاركها حماسها لترك المدرسة. وتساءلت في سري وقتها، ترى هل يكون فاروق متفتح العقل؟

كانت (راوية) قد أنهت عامها الأول في المدرسة الثانوية. وقد أخفقت في اجتياز امتحاناتها. كانت تكره المدرسة، وطالما أخبرتني أن حياتنا لن تختلف بالتعليم. بل وحتى لو حصلنا على شهادة جامعية، فسوف نظل عبيدًا للرجال طالما بقينا في مصر .

لكنني رغم هذا ظللت على إيماني بجدوى التعليم. وكنت أشك في أن زوجي المستقبلي سوف يدعم طموحي. وعندما بحت بقلقي هذا لـ(راوية) أشاحت بكفها، وقالت:

" ألا تعلمين الطريق؟ فقط امنحي الجنس لفاروق، وسوف يفعل أي شيء من أجلك ".

فغر فمي حين دخلت (ماما) بغتة حجرتنا. عبست في وجه (راوية) ثم أبعدت نظرها عنها، وهي تهز رأسها باستنكار. قلت وأنا آخذ بيد (ماما):

"هل سيكون بإمكاني دخول المدرسة الثانوية؟ "

"أجل يا حبيبتي. ولِمَ لا؟ "

لكن (راوية) قاطعتها:

"كلا يا ماما. الراهبات لا يسمحن للبنات المتزوجات بالاستمرار في المدرسة ".

هنا نظرت بفزعٍ إلى ماما .

"يمكنك أن تدرسي في البيت. أنا متأكدة أن زوجك لن يمنع مثل هذا ".

"إذًا، فهذا يعتمد على رغبة زوجي. هل ناقشتي مثل هذا الأمر مع فاروق بالفعل؟ "

"لا".

أجابت ماما. بينما صاحت (راوية):

"كم أنت ساذجة يا ليلي. الرجل الذي يقترن بفتاة صغيرة بصورة تبدو معه وكأنها ابنته لن يبحث عن مثل هذه الأشياء ".

صمتت ماما، وخيمت سحابة من الحزن على وجهي. لم أكن أدري: هل كان عليّ أن أغضب من أبي أم ألوم سلبية أمي؟ كانت سلواي الوحيدة: هو أملي أن يسمح لي زوجي المستقبلي بتحقيق حلمي في أن أصير صحفية، وأن نعثر أنا و(راوية) على وسيلةٍ ما لنغير قدرنا .

ope ikandl.com

(7)

علمتنا أمي وهي تقوم بتربيتنا أن نقبل بقوى خفية تدعى (القدر) !

ومع الوقت اكتشفنا؛ كم يمتلك هذا القدر من قوى هائلة مماثلة لما يملكه (بابا). تعلمنا أن نخاف القدر، وأن نعيش وفق قواعده الصارمة. ورغم أن الشكوك والتساؤلات التي كانت تراودني إلا أنني احتفظت بها لنفسي .

كنت في السابعة؛ حين اندفع (بابا) إلى حجرة المعيشة، وأمرنا جميعًا أن نتبعه نحو الشرفة. تقدمنا (بابا) وتبعناه كصف من أفراخ البط. بينما لم يرغب أي منا أن تطوله كف (بابا) الباطشة. وقف (بابا) في المنتصف. بينما انتظمنا نحن السبعة في حلقة حوله. تبادلت أنا و(راوية) نظرات خائفة، ودنت (هالة) مني، وراحت تهز جسدها للأمام والخلف، في عادةٍ كانت تقوم بها عندما تكون متوترة، فشددت على كفها المتعرق حتى توقفت .

وعندما لحقتنا (ماما)، طالبها أبي أن تتركنا وتبتعد. حدقت (ماما) في السماء، كما اعتادت أن تفعل كلما حدث خلاف بينهما، وزمت شفتيها كما لو كانت تبث شكواها لله. سألتها ذات مرة؛ عن هذا الذي تهمس به، فأجابت:

" أنني أدعو الله أن يهبني الصبر ".

عانت (ماما) كأغلب النساء هنا من زواج غير سعيد. وآمنت أن الله سوف يكافئها في الحياة الأخرى بالجنة لو تقلبت سوء معاملة زوجها وقدرها .

عندما غابت (ماما) عن أعيننا. أدرنا نظراتنا المنتبهة نحو (بابا) كجنودٍ مطيعين يقفون أمام قائدهم. سأل (بابا) وهو يقلب عينيه بيني وبين (راويه):

"ما لون السماء يا أولاد؟ "

"أزرق ".

أجبنا في فمٍ واحدٍ بصياحٍ مرتفع. كي ننال استحسانه. صرخت بها من أعماق صدري طامعة في أن أظفر بالرضا الأكبر من (بابا). ظهر الرضا على وجهه مع ابتسامةٍ خفيفة، وقال وهو ينظر لكل واحدٍ منا:

"هذا صحيح. لكن عليكم أن تعلموا "...

قالها، وهو يشير بإصبعه نحو (راوية) .

"أني لو قلت لكم أن السماء سوداء، فسوف تصدقوني. وحينها عليكم أن تقولوا: إنها سوداء، نعم يا بابا. إنها سوداء ".

كان وجهه يرسم ابتسامة غريبة، ملأتني بالرهبة.

"والآن أخبروني، ما لون السماء؟ "

تبادلت أنا و(راوية) نظرة قلقة. فهزت رأسها :

"أسود ".

غمغمنا جميعًا. كان حماسنا جميعًا قد ذهب .

هز (بابا) رأسه، وابتسم في رضا ثم تركنا وذهب. شعرت بالتشوش ونظرت للسماء الزرقاء وأنا أتساءل. لماذا قال (بابا) أنها سوداء!

ودون أن أخبر أحدًا بما دار في نفسي، عاهدت نفسي أن أتحدى (بابا) عندما أكبر. في الواقع لم أستطع الوفاء بعهدي هذا قط. حتى حين أخبرنا بقرار تزويجي، أطعته كما كانت (ماما) تفعل بالضبط .

لم أفهم سر تلك القوة الإلهية الممنوحة لأبي. ولا لماذا حرمت (ماما) من هذا الامتياز. وعندما صرت في الحادية عشر، صرت أكثر وعيًا بسلطة (بابا)، ومدى انعزاله عن (ماما) بصورةٍ ربما كانت أكبر من عزلته عنا نحن الصغار .

كان أصدقائي في المدرسة يعانقون آباءهم ويقبلونهم. عندما يأتون لالتقاطهم من المدرسة. ورغم أن (ماما) أصرت أن (بابا) يحبنا ككل الآباء، إلا أنه لم يفعل هذا معنا أبدًا .

وفي وقتٍ لاحق تحدثت إلى عمتي (عقيلة) في هذا، فطلبت منا أن نجلس بالقرب منها، وقالت بهدوء ونظرة حزينة تعكر صفو وجهها :

"أنتم لا تفهمون. لقد كان أبوكم (كمال) في الرابعة من عمره حين ماتت أمنا ".

وشرد ذهن عمتي، لثوانٍ بدت كساعات، ثم تنهدت وأردفت:

"ثم مات أبونا بعدها بعام. فتطوع خالي حينها لتربيتنا".

تجمعت بركة من الدموع في مقلتيها. لكنها تمالكت نفسها بسرعة، وتجهمت وهي تواصل الحكي:

"لكن خالي تحكم في كل الثروة التي ورثناها عن ماما ".

لم نكن نعلم أي شيء عن طفولة (بابا). وأتعسنا أن نعلم أن (بابا) قد أصيب باليتم في تلك السن المبكرة. أردت أن تخبرني عمتي (عقيلة) بالمزيد كي أفهم مغزى سلوك (بابا) معنا. وسألت بإشفاق:

"وهل عاملكم خالكم بصورةٍ طيبة؟ "

"كان من المحزن أن نلقى في بيت خالي شتى أنواع المعاملة السيئة. سواء كانت لفظية أو جسدية ".

كان الحزن يقطر مع كل كلمةٍ تتفوه بها:

"لقد جعلت الاعتداءات الجسدية -التي اقترفتها زوجة خالي- من أبيكم هذا الشخص الذي صار إليه الآن ".

قالتها، وغابت في ذكرياتها ثانية، فحثثتها قائلة:

"عمتي عقيلة، أكملي أرجوك ".

"لقد صار أبوكم يرى صورة زوجة خالنا في أمكم، بل وفي وجه كل امرأةٍ أخرى "

لم أفهم تمامًا معنى ما تقوله، لكنني حافظت على انتباهي، دون أن أقاطعها، بينما همست عمتي:

"لقد جعلتنا زوجة خالي نعيش في ركن الخدم من البيت الكبير. كانت تعطينا وجبة واحدة في اليوم، وتتبعها بعلقة يومية بعصا خيزران ".

عندها، لم أرغب في سماع المزيد. رأت عمتي الألم في وجهي، فدعت من أعماق قلبها:

"أتمنى أن ينتقم الله منها. لقد فعلت هذا بنا مع أننا كنا أيتام ".

بعدها مسحت الدموع عن عينيها، وهي تنهي اعترافها.

ورغم أنه قد آلمني معرفة ما عاناه (بابا) من سوء المعاملة في طفولته. إلا أنني لم أتقبل فكرة أن تكون طريقته المستبدة المتحكمة، كانت بشكل خاص نتيجة للتربية القاسية التي نشأ عليها .

"لابد أن هناك سببًا آخرًا لهذا التضييق الذي يمارسه (بابا) علينا، وقلقه المرضي بشأن عذريتنا ".

قلتها منتظرة أن أستمع إلى المزيد من عمتي (عقيلة). كنت أشك دومًا في وجود سرٍّ خفيّ يفسر حياة عمتي التي كانت بلا زواج، وعدم وجود أب أعرفه لابنتها. وحين لم تجبني عدت لأسأل:

"وماذا عنك عمتي عقيلة؟ ماذا حدث لك؟ "

"ربنا يحرقه في جهنم ".

غمغمت عمتي في سخط وهي تحني رأسها. كانت عمتي تحب (بابا)، وبلا شك لم تكن تدعو عليه .

"عن من تتحدثين يا عمتي ".

"لا شيء. لا شيء ".

قالتها بنبرة تعني أن الحديث قد انتهى. لم يتحدث (بابا) أبدًا عن طفولته المبكرة. كان قد تدرب ليكون مهندس معماري، والتحق بعدها للعمل في شركة الإنشاءات لصهره. ومع الوقت اكتسب احترام مستخدميه، وبنى لنفسه سمعة جيدة له في مجاله. في الواقع؛ صار (بابا) واحدًا من أكثر المعماريين المرموقين في الإسكندرية.

سمحت لنا مهارة (بابا) وعمله الشاق أن نحيا حياة مريحة تمامًا. بل وتمكنا من الالتحاق بأفضل المدارس. كان (بابا) فخورًا جدًّا بما وصل إليه من نجاح. فلقد حظي بالتقدير والاحترام الذي يستحقه في مجتمعنا، ولم يكن لدينا أي شك في مدى هيبته في موقع عمله، وقد كنا نرى؛ كيف يسيطر علينا في المنزل؟

لكنه كان قلقًا بشكل خاص لكوننا أنا و(راوية) على وشك البلوغ. وزاد قربنا من أبناء الجيران من هذا التوتر. كان يؤمن أن الأولاد والبنات في سننا هذا لا يجب عليهم الاختلاط معًا. ولم يكن مهمًّا في رأيه؛ أننا قد تربينا مع أولاد الجيران منذ الصغر. الشيء الوحيد المهم عنده، هو أنهم أولاد ونحن بنات .

كنت في التاسعة من عمري؛ عندما ازداد قلق أبي بشأن عذريتي أنا وأختي، ولعب هذا الأمر دورًا في قراره الذي اتخذه بالانتقال من شقتنا الصغيرة في (زيزينيا) بالإسكندرية إلى واحدةٍ أخرى في (حى رشدي) .

كان (حي رشدي) هو حي راقى وآمن، حيث الشوارع الواسعة النظيفة المزينة، وأشجار الجميز والفيكس والأكاسيا وغيرها.

كان علينا أن ننسي تمامًا حياتنا القديمة في (زيزينيا)، ورأى (بابا) أن (حى رشدي) صار أكثر ملاءمة لوضعه الاجتماعي الحالي، لكن السبب الحقيقي لابتعادنا عن المنزل القديم، كان رغبته في أن نبتعد عن جيراننا القدامى،

وخاصة جارتينا (هويدا) و(ناريمان) حيث كان لكل واحدةٍ منهما خمسة من الأبناء الذكور فقط.

أمضى (بابا) شهرًا في تجهيز الشقة الجديدة، حيث انتوى أن يفرض حصارًا عليّ أنا و(راوية) على وجه الخصوص لحمايتنا كما كان يعتقد، من أي إغراءٍ خارجي.

وبدلًا من اتخاذ واحدة من الفيلات الفاخرة؛ اختار(بابا) الانتقال إلى شقة في الطابق الرابع من مبنى به القليل من العائلات المختلفة. أخبرتنا (ماما) أن الإقامة في الطابق الرابع تمنح (بابا) راحة البال أثناء الساعات التي يقضيها في عمله بخلاف (الفيلا) التي قد تكون أقرب من الطريق. وأن شيئًا كهذا قد يغرينا للتسلل للخارج ومقابلة الأولاد.

لكن الطابق الرابع المرتفع سيكون حتمًا أكثر أمانًا كما رأى (بابا)؛ لحماية عذريتنا. كان همه الشاغل هو خشيته أن يقترف أي منا ما قد يجلب العار للعائلة. فهذا أمر كفيل بأن يدمر مستقبله في المجتمع. ولهذا اتخذ بابا كل الحيطة للإبقاء على سمعته نظيفة.

حجبنا عن أي رجل، وجعل لكل بابٍ مفتاح، يحتفظ به دومًا معه. قام كذلك بتغطية الشرفة الأمامية بالزجاج حتى لا نستطيع الاقتراب من حافة سور الشرفة، فلا يتمكن الأولاد العابرون في الشارع المزدحم بالأسفل من رؤيتنا. بل وحتى التليفون الأرضي الأسود، والذي كان الطراز السائد في ذلك الوقت، كان لقرصه الدوار قفلًا؛ جعل من المستحيل استخدامه.

وعلى خلاف (راوية) فقد تطلعت للانتقال للبيت الجديد، وخاصة حين علمت من (ماما) أنه قريب من شاطئنا المفضل في (سان استيفانو). وفي اليوم المحدد لانتقالنا، جاء سائق (بابا) الخاص، ثم تحرك بنا نحو (شارع رشدي)،

حيث المحلات الراقية العتيقة والفيلات الجميلة المزدانة بالزهور والنافورات. كل هذا في ذلك الوقت شيئًا رائعًا .

توقفت سيارتنا في (جراج) العمارة. فجريت إلى داخل البناية، ورحت اقفز على الدرج. بينما صعدت (ماما) مع الباقين في المصعد .

استقبلني (بابا) على باب الشقة الجديدة، وقال لي:

"هيا. أتبعيني لأريكِ حجرة نومك أنت وأختك ".

سرت خلفه في رواقٍ طويل مزود بإضاءة خافتة. انحرفنا لليمين حيث كان المطبخ هناك، فرأيت عمتي (عقيلة) و(أم زبيدة) اللتين جاءتا للشقة قبلنا ليعدا العشاء. كان هذا اليوم الصيفي من يوليو رطبًا، ففتحوا النوافذ كلها. حمل الهواء الرائحة المألوفة للثوم المحمر المهروس مع الكزبرة، استعدادًا لعمل الملوخية. طبق الطعام المفضل الأول في مصر .

لحقت (بابا) الذي بلغ رواقًا صغيرًا مربع الشكل، معزول عن باقي الشقة ببابٍ زجاجي. فتح بعدها بابًا خشبيًّا في أحد جوانبه، وقال:

"سوف تكون هذه حجرتك أنتِ وراوية ".

ثم تراجع، وأشار نحو حجرةٍ أخرى تجاور حجرتنا، وأكمل :

"أما هذا الحمام، فسوف يكون مشتركًا بيني أنا وأمك، وأنتِ وأختك".

أدار وجهه بعدها نحو ثلاجة عملاقة خلف الباب الزجاجي، وأكمل:

"أما كل ما قد تحتاجونه من طعامٍ وشراب أثناء الليل موجود هنا ".

فتحت الثلاجة، فوجدت زجاجات ماء، وخبز بلدي وجبنة، وثمار فاكهة. وفي باب الثلاجة، كان هناك العديد من الأوعية الخزفية الحمراء الصغيرة، والتي تحوي الزبادي المنزلي الذي تعده (ماما) خصيصًا لـ(بابا). والذي كان يؤمن أنه مفيد للصحة، ويطيل العمر .

ضمن هذا الترتيب لـ(بابا) فرصة مراقبتنا طوال الوقت. هنا وقد أدركت الحقيقة، تبدد الحماس والإثارة الذي شعرت بهما في البداية، وحل في نفسي القنوط .

اعتقد (بابا) أنه يتبع تعاليم الدين بمثل هذه الترتيبات التي يقوم بها من أجل تنشئتنا وفق تربيةٍ صالحة. والتي كانت طبقًا لما فهمه (بابا) أن يفرض علينا المزيد من القيود الصارمة كلما كبرنا. رأى أن الله خلق النساء من ضلعٍ واحد من ضلوع الرجل. وهذا برأيه برهانًا على قوامة الرجال على النساء. ولهذا فرض على المرأة طاعة الرجل .

وكان كثيرًا ما يردد تلك المقولة لـ(ماما) كي يظفر منها بالإذعان الكامل. وكي يتأكد من أنها لا تسمح لنا بالكثير من الحرية .

لكن (ماما) قالت له في أحد الأيام معترضة على قوله:

" إذا كان الرجال يأتون من أرحام النساء، فكيف تكون للرجال قوامة عليهن بعد ذلك؟ "

كانت واحدة من المرات النادرة التي أبدت (ماما) فيها الشجاعة، وواجهت فيها (بابا). لكنه أسكتها بنظرةٍ مخيفة من عينيه. في الواقع لم تتكرر لحظات الشجاعة تلك من (ماما) كثيرًا .

لم يختلف هوس (بابا) بشأن عذرية بناته عن غيره من أغلب الرجال المصريين. وطغت قواعده الصارمة على الجانب الحنون في شخصيته. لقد وفر لنا (بابا) كل أشكال الرفاهية المادية، التي قد يحسدنا عليها أغلب المصريين في ذلك الوقت. ورغم أن بيتنا كان في حي راقٍ آمن، وأن شقتنا كانت واسعة رحبة حتى بالنسبة لعائلتنا الكبيرة التي بلغت أربعة عشر فردًا. رغم كل هذا، فقد شعرت أنا و(راوية) أننا نحيا في سجن. وأن (بابا) كان من يمارس دور السجان.

كان يحمل معه دومًا الحلقة المعدنية الكبيرة، التي وضع فيها كل المفاتيح، والتي لم ينسها يومًا في البيت وهو يغادره .

انتهز (بابا) كل فرصة ليذكرنا بمكانته المقدسة وخاصة حين صرنا أكبر، وراحت (راوية) تظهر طبيعتها المتمردة أكثر وأكثر .

وفي أحد الأيام. وحين بلغت سن العاشرة وصارت (راوية) في الحادية عشر؛ اصطحبنا (بابا) معه إلى موقع البناء الذي يشرف عليه في كفر الدوار. ورغم أننا لم نستمتع أبدًا من قبل بقضاء وقتٍ ما مع (بابا). إلا أننا رحبنا بمثل هذه الفرصة لنخرج من البيت .

قاد (بابا) السيارة بنفسه بعد أن منح السائق إجازة في هذا اليوم. جلست (راوية) بجوار (بابا) في الأمام، وجلست أنا في الخلف، حيث رحت أتطلع إلى الفلاحين، والفتيات الصغيرات اللاتي كن في مثل عمري، كن يمشين بطول ضفة الترعة المتفرعة من نهر النيل. وكان هناك عنزتين وبقرة إلى جوار البنات، لكني لم أر أي ذكورٍ برفقتهن من أجل حمايتهن. حسدت الفلاحات على تلك الحرية التي يتمتعن بها. ولتفادي واحدة من خطبه الدينية والأخلاقية، لم أسأل (بابا): "أليس هؤلاء مسلمون مثله؟"

وعندما اقتربنا من الموقع؛ نزع (بابا) نظارته الشمسية، وابتسم لنا وقال :

"انظروا كيف ستهرول كلابي لتحيتي؟ "

نظرنا إلى النافذة، فرأينا ثلاثة كلاب (شيبرد ألمانية) وثمانية كلاب مهجنة تتسابق خلف السيارة .

أشرق وجه (بابا) بالغبطة وقال:

"إن ولاءها لي وحدي فقط ".

غادر السيارة بعدها، ورفع قطعة من اللحم النيئ في الهواء. أحاطت به الكلاب، وراحت تهز ذيولها ولعابها يسيل. ربت (بابا) على رؤوسهم وأطلق

obeikandl.com

صفيرًا، ثم رمى قطعة اللحم على الأرض، غير بعيد عن المكان الذي يقف فيه. تسابق الكلاب الثلاثة في التهام قطعة اللحم، بينما تبعت الكلاب الباقية (بابا) إلى السيارة، حيث التقط المزيد من قطع اللحم النيئ من حقيبة في السيارة، وراح يرمي بقطعة كبيرة إلى كل كلب، ثم وقف بجوارهم في رضا مبتسما .

قال (بابا) دون أن ينظر إلينا :

"هل أخبرتكم بقصة اثنين من الموظفين: جاءا ذات يومٍ لي لمناقشتي في مشروعٍ ما؛ بينما كانت كلابي هناك؟ "

أومأنا، وقد سمعنا تلك القصة مرارًا، لكنه عاد يرويها ثانية رغم هذا، وهو يضحك كما لو كانت نكتة :

"جاء إلى مكتبي اثنان من الموظفين لمناقشتي في تفاصيل وصلات كهربائية لأحد المشاريع. وعندما احتدم النقاش بيننا؛ رفع الرجلان صوتيهما. هنا وثبت الكلاب فوقهما، معتقدين أنهما يتقاتلان معي ".

ثم راح يضحك في هستيريا، وعندما انتهى من الضحك أكمل حكايته، بينما وقفنا أنا و(راوية) بصمت، كانت من اللحظات النادرة التي نرى فيها السعادة في وجه (بابا) .

"بإشارةٍ واحدة مني توقفت الكلاب ".

قالها بزهو .

"كانوا يحمونني لأنهم أحبوني. ولهذا فهم أفضل أصدقائي ".

واصل (بابا) مراقبة كلابه التي راحت تلتهم وجبتها. بينما وقفت إلى جوار (راوية) شاعرة بالغيرة من تلك الحيوانات التي عاملها (بابا) بحنانٍ أكثر مما منحنا إياه .

لم أر أبدًا بريق الإثارة هذا في عيني (بابا) من قبل، ورغم أنني أحببت هذا الوجه السعيد، وتمنيت لو ظل هكذا للأبد، إلا أنني كنت أعلم أن هذا لن يحدث إلا لو قدمنا له استسلامًا غير مشروط كالذي يعجبه في كلابه .

وفي أعماقي؛ كنت أعلم أنني يومًا ما سوف أنال حريتي حين أكبر، حينها لن يكون (بابا) سعيدًا كما أراه الآن مع حيواناته الأليفة.

obeikandl.com

(8)

فرض بابا سيطرته علينا في داخل البيت وخارجه، كان قد رتب لنا أن نعود من مدرستنا في حافلة المدرسة المخصصة للفتيات فقط، كما منعنا من استقلال الحافلات العامة. نهانا كذلك أن نستقل سيارته برفقة سائقه الخاص إلا لو كان هو أو (ماما) أو (رضا) أو (أحمد) معنا. في الواقع؛ كان (بابا) يعد أي تعامل مع الأولاد خارج نطاق العائلة خطيئة لا يجوز اقترافها. ورغم هذا فقد أولى (أحمد) و(رضا) كل ثقته، وعهد لهما بمهمة مراقبتنا حين لا يكون في البيت .

تمنيت وأنا في سن مبكر لو أنني قد ولدت ولدًا، لأستمتع بالمزايا والحياة الحرة التي يعيشها أخوتي الذكور. رحت أبحث عمن ألومه، وقد حرمت تلك الحرية فقط لأنني فتاة. هل ألوم القدر أم ألقي بلومي على بابا وماما؟ ورغم هذا لم أرغب في لوم (ماما) على هذا الكبت والقيد الذي نشأنا عليه، والذي علينا قبوله مثلما فعلت. فقد كنت أدرك أنها ضحية هذا الأمر مثلنا تمامًا، كما أنني كنت أحبها حقًّا بلا حدود.

عمل (بابا) بجد لمنع أي اتصالٍ بين بناته وأي رجلٍ غريب. ولم يشذ عن تلك القاعدة إلا مرة واحدة حين استقدم رجلًا في الستين من عمره يدعى (الأستاذ شفيق) ليدرس لنا اللغة العربية في البيت. كان لدية رأس ذو صلعة لامعة، وبطن منتفخة كبيرة. كما كان يحمل في يده دومًا منديلًا قماشيًّا يمسح به العرق عن جبهته. لم يستخدم المصعد قط، وكان يفضل أن يصعد إلى شقتنا عبر السلالم؛ ولهذا كان يصل إلينا وقد انقطعت أنفاسه .

سألته (راوية) يومًا. لماذا لا يستقل المصعد؟ فأجاب بابتسامة؛ أنه لا يريد للسلالم أن تشعر بالوحدة .

كان لطيفًا، خفيف الظل وطيب القلب. وكان يعاملنا برفق، لكننا عادةً ما كنا نصاب بالملل خلال الساعة التي يدرس لنا فيها العربية. وعندما كنا نفقد تركيزنا، ونتثاءب كان يعتصر أكفنا بلطفٍ كي نستعيد انتباهنا .

وفي يومٍ دخل (بابا) علينا ورآه وهو يفعل هذا، فطرده على الفور، وجاء بعدها بإحدى المعلمات بدلًا منه .

أدركت (راوية) ذلك الارتباط بين ما يفعله (بابا) ومستقبل تعليمنا، ولهذا سألته بعدها بأيامٍ قليلة :

"هل تخطط يا بابا؛ لإلحاقنا بجامعات للفتيات فقط؟ "

لم تكن تعلم حينها أنه لاوجود في مصر لمثل تلك الجامعات، بل وحتى لو كانت هناك واحدة فسوف يكون فيها أساتذة من الرجال. أجابها (بابا) في سخرية:

" إنه من المبكر جدًّا التفكير في أمر الجامعة الآن ".

ورغم كل تلك الاحتياطات التي اتخذها (بابا) فلم يمكنه التحكم في قلوبنا. فقد ذقت طعم الحب لأول مرة عبر نافذة حافلة المدرسة، حين كنت في الثالثة عشر، كان هناك ولد اعتاد أن ينتظر حافلته كل صباح في الشارع الذي نمر به .

في البداية؛ تبادلنا نظرة خاطفة، ثم أتبعناها بإيماءة، فابتسامة راحت تتكرر في كل مرة نرى بعضنا فيها، حتى أتى اليوم الذي لوح بكفه نحوي محييًا، أرضت لحظات الحب المسروقة تلك عاطفتي الرومانسية. لم يعلم (بابا) بهذا قط، وعددت ما أقوم به نوعًا من التمرد الخاص بي .

لم تنجو (ماما) من سيطرة (بابا) مثلنا، فقد فرض عليها ما يشبه حظر التجول. بل ومنعها أن تزور أختها الوحيدة (حميدة)، والتي مازالت على قيد الحياة .

كانت خالتي تحيا حياةً متحررة وهو أمر عده (بابا) مشينًا. ورغم هذا، فقد ظلت (ماما) تتحدث عنها بكل فخرٍ واعتزاز .

كانت (ماما) كثيرًا ما تردد أمامنا المثل القائل: " ضل راجل ولا ضل حيط".كانت تقصد بهذا (بابا) الذي وهبها الأمان الذي تحتاجه.

أما عنا كبنات، فقط رضخنا لقدرنا، واستسلمنا لسيطرة (بابا) ولكل ذكور العائلة. أرادتنا (ماما) أن نؤمن أنه من العسير أن نحيا بغير الرجل. ورغم حبنا لها إلا أننا لم نؤمن بما تدعيه. ولأنني كنت أرى ما تبديه (راوية) من تمردٍ كرد فعلٍ على فرض (بابا ورضا وأحمد) سيطرتهم عليها، فقد كنت أعلم أنها لن تقبل بظل أي رجلٍ هذا بحثًا عن تلك الحماية المزعومة. رفضت أنا كذلك قبول هذا المثل، ورفضت أن أصدق أن ظل رجلٍ في حياتي سيكون أفضل من أحيا لنفسي .

لقد عاشت (ماما) في خضوعٍ مطلق لـ(بابا)، وكانت تطيع أوامره الاستبدادية بلا مناقشة. فقط لأنه يشعرها بالأمان الذي لا يمكنها أن تمنحه لنفسها. لكنني أردت نوعًا آخر غير تلك الحياة. أردت حياةً قائمةً على الاحترام والتقدير المتبادل .

أصابني تكرار (ماما) لهذا المثل بالدهشة والخيبة. فلم أستوعب: كيف يمكنها أن تفكر بمثل تلك الطريقة، وقد عانت حياةً تعيسة مع بابا! لماذا لم تغرس (ماما) في نفسي الاستقلال! ولماذا لم تعلمني أن أعتمد على نفسي، وليس على الرجال!

شعرت بالاستياء من (ماما) لأنها أرادتني أن أكون مطيعةً خاضعةً مثلها، وأن أقبل بفكرة سيطرة الرجل. فلقد أردت الخروج عن ظل الرجل .

وحين كانت (ماما) تكسر القواعد في بعض المرات، كانت تفعل هذا من أجلنا. لكن لم تفعلها أبدًا من أجل نفسها. كان بإمكانها ودون أن يعلم (بابا).

أحيانًا أن تنتهك تلك القائمة الطويلة من المحرمات التي فرضها (بابا) بصرامة. كانت تشتري لنا (بكيني) للسباحة، بل وسمحت لنا باستعمال مساحيق التجمل، أكثر شيءٍ مرفوض على رأس قائمة (بابا) المحرمة .

كان (بابا) كثيرًا ما يردد:

"لا يضع الكحل وأحمر الشفاه إلا العاهرات".

لكننا، وككل البنات في مثل عمرنا. كنا نضع مساحيق التجميل فوق وجوهنا داخل حجرتنا بعيدًا عن عين (بابا)، وبموافقة (ماما).

ورغم أنني قدرت لـ(ماما) دعمها لنا؛ إلا أن سلبيتها كانت تربكني. أردتها أن تتحدى أوامر (بابا) في العلن، وفي حضوره. لكننا رغم هذا كنا نفرح بهذا الدعم الذي كانت تقدمه لنا. كنا نلتمس لها الأعذار في خضوعها، وهكذا أبقينا على حبها بداخلنا ثابتًا لا يتزعزع .

شببنا عن الطوق، وقد اعتدنا سماع (ماما) وهي تتعارك مع (بابا) خلف باب حجرتهما المغلق، وكنت أنا و(راوية) سبب هذا الشجار عادةً. كانت تتوسل إليه مرةً بعد مرة: " أعطيهم بعض الحرية ".

وخلافًا لـ(بابا) فقد فتحت (ماما) عقلها للتغيرات الجديدة حولنا دون أن تحيد عن أوامر الله. كانت دومًا ما تجد المبررات والأعذار عندما تحتاجها. فمثلًا كانت تؤمن أن الله سوف يغفر لنا، لو ارتدينا (البكيني) ما دمنا صغارًا. لكن (بابا) كره التجديد. وكانت نصائح (ماما) تتبخر قبل أن تصل لآذان (بابا) .

كان يقول حينها:

" لقد احتملت وفاة أبواي، وكذلك احتملت قسوة زوجة خالي. كنت أنا المسؤول عن إخوتي، البنات الثلاث. قبل أن أصبح خبيرًا محترفًا في عملي؛ لذا فأنا أملك الكثير من الخبرات الكافية لاتخاذ الخيارات السليمة في تربية أطفالي ".

ردت عليه (ماما) بانكسار: لكن (راوية وليلى) ليستا زوجة خالك أو أخوتك البنات. إنهن بناتك. عليك أن تظهر لهم حبك، وأن تقترب منهما وتستمع لهما ".

ثم رفعت صوتها لتزيد من ثقتها، وهي تكمل: لا يمكنك أن تعيش حياة البدو، وأنت تحيا في قلب المدينة الكبيرة، وبناتك يتعلمن في المدرسة الكاثوليكية الفرنسية ".

لكنه لم يسمح لـ(ماما) أو لأي كائنٍ آخر أن يخبره: كيف يقوم بتربيتنا؟ كان مؤمنًا أنه قد حاز على الخبرات الكافية لدعم قراراته .

"الحديث مع أبيكما كالنفخ في بالون مثقوب ".هكذا اعترفت (ماما) بهذا لنا يومًا وهي تشعر بالإحباط. كان بابا يعتقد أن الله هو من يدعمه. وكان يرى نفسه بعد الله في حق الطاعة علينا. ولأننا كنا أطفالًا فقد صدقنا هذا. فمن نحن لنحكم على كلام الله. كان (بابا) كثيرًا ما يردد تلك الآيات من سورة الإسراء: "***وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا***"

وككل رجال عصره، فقد لجأ (بابا) لمظلة الدين للسيطرة على نساء عائلته، صارت حياتنا كالعجين في يده يشكلها كيفما شاء. كان (بابا) يعلم التفسيرات الصحيحة للآيات . وحتى حين كان أحدهم يخبره: أنه لا يجب إرغام النساء على الزواج بمن لا يريدوهم، فقد كان قادرًا على تأويل الآيات القرآنية كي توافق رغباته . اعتقدت أنا و(راوية) أن ثقافة مجتمعنا تعكس تعاليم الإسلام. لهذا وبعد إعلان زواجنا، فقد بحثنا في القرآن عما يقوله الإسلام في مسألة الزواج وتربية البنات. هنا اكتشفنا أن لدينا كل الحق في رفض أي زواج، وأن من حقنا أن نختار من نتزوجه .

هذه الاكتشافات أيقظت الفتاة الصغيرة المتمردة داخلي، التي قمعتها وأنا صغيرة خوفًا من أبي .

(9)

كنت أومن أن التعليم هو سلاحي الذي سيحررني من هيمنة الرجال في عائلتي. واعتدت سماع (ماما) في طفولتي وهي تردد: أن التعليم هو ما يهب المرأة الشجاعة للدفاع عن حقوقها. لكن (ماما) لم تمتلك تلك الشجاعة لتعترض على قيود (بابا) أو حتى تجابه التقاليد البالية التي نشأت عليها. كانت أمنيتها الدفينة: لو أتيح لها أن تعيش حياةً أخرى مختلفة. وعندما سألناها: كيف سمحت لـ(بابا) أن يتحكم في الكل هكذا؟ أجابت بإحباط:

" ربما كنت لأترك أباكما لو أكملت تعليمي. كنت لأبحث عن عملٍ حينها لأعتمد على نفسي ".

كنت في الثامنة؛ عندما صرحت (ماما) بمكنون نفسها للمرة الأولى. أربكني اعترافها، وأرعبني التفكير في أن (ماما) قد تهجرنا بالفعل يومًا ما. وقلت لها حينها :

"أنا سعيدة يا ماما، أنك لم تتعلمي ".

لكني وحين صرت بالغة، أحببت المدرسة وقد أدركت القوة التي يبثها العلم في نفسي .

قبل أسبوعٍ من إعلان كتب كتابنا، كنت قد اجتزت العام الأول من المدرسة الثانوية بنجاح. كان جل اهتمامي في ذلك اليوم العظيم هو ما حصدته من درجات، والتي كانت ستعلن في حفل التخرج. كان (بابا) فقط من حضر الحفل، بينما ظلت (ماما) في البيت مع أخوتي الصغار. كان (بابا) ينتظر مني التفوق في الدراسة دومًا. وكان أي تقديرٍ يقل عن درجة الامتياز في نهاية العام يشعل غضبه. لم يكن هذا لأن (بابا) يخطط من أجل استكمال تعليمي العالي، لكن ببساطة كي يختبر سطوته وسيطرته عليّ. ورغم تأكدي أنني أبليت بلاءً

حسنًا في امتحاناتي النهائية، إلا أن قلبي ظل ينبض وأنا أجلس وسط زملائي في الصالة، في انتظار النطق بأسمائنا .

في ذاك اليوم؛ سمحت لنا إدارة المدرسة بارتداء ما نحبه. دوت ضحكات زميلاتي، وهم يقارنون أطوال التنورات القصيرة، والأحذية المرتفعة الكعب التي يرتدينها .

شعرت بالخجل من ثيابي التي حيكت طبقًا لإرادة (بابا)، أكمام طويلة. وياقات مستديرة. وتنورة تغطي ركبتيّ. كانت هناك سلسلة تحيط برقبتي، وقد علق فيها حلقة منقوش داخلها لفظ الجلالة (الله). وبينما كنت أنتظر متوترة، قبضت على حلقة السلسة وأنا أتذكر نصيحة أمي :

"اقرأي الفاتحة لو شعرت بالتوتر ".

رددت الآيات في سري، فتسلل بعض الهدوء نحو نفسي، ثم سمعت صوت (ماري بيرنادت) يتردد في الحجرة وهي تنادي اسمي :

"براءة ! براءة كامل ".

كان اسمي الرسمي الذي اختاره (بابا) لي هو (براءة). لم أحب هذا الاسم قط، وكنت دومًا أفضل كنيتي بـ(ليلى) .

أخبرتني (ماما) أنني الوحيدة في مصر كلها التي تحمل هذا الاسم. ورغم أنها وافقت على تسميتي به، إلا أنها لم تدرك أن أخبار فتاة في الرابعة عشرة من عمرها؛ أنه لا أحد غيرها في العالم يحمل اسم (براءة) سيسبب لها الصدمة أكثر مما قد يدعوها للفخر .

تلصصت حولي لأرى تأثير اسمي الرسمي على وجوه التلاميذ الآخرين، قبل أن أشعر بالراحة حين لم يضحك أحد. أخذت نفسًا عميقًا، ثم تحركت نحو (ماري بيرنادت) .

"مبارك يا براءة. لقد حققت الدرجة النهائية، كالمعتاد ".

هتفت (ماري)، ثم صمتت للحظةٍ وهي تتفرسني، قبل أن تكمل:

"لطالما كنت أشعر بالفضول نحو اسمك. هل هناك من قصة خلف هذا الاسم؟ "

سألت (ماما) حين كنت في العاشرة. لماذا سجلوني في المدرسة باسم براءة؟ فأخبرتني أنه في يومٍ ما، وحين أكون أكبر؛ سوف تفسر لي سبب هذا. وحتى لحظتنا هذه، لم يأت هذا اليوم بعد .

أجبت (ماري) حينها:

"لا أعلم، بابا من لقبني بهذا الاسم ".

ابتسمت بدفءٍ، وقالت :

"وهل ستكونين معنا في العام القادم، ليلى؟ "

"بالطبع!"

كنت واثقة أن درجاتي ستسعد (بابا) وأنه سوف يشجعني على إكمال دراستي. ناولتني (ماري) الشهادة، فضممتها نحو صدري وعدت مباشرة إلى مقعدي. كنت بالكاد قادرة على الانتظار حتى ينتهي الحفل، ورغم تطلعي لسماع المديح من (ماما)، فإن رضا (بابا) في تلك اللحظة كان هو مقصدي. لكن ثناءه أتى فاترًا، فلا شيء في الواقع كان يرضي تطلعاته .

انتهى الحفل، فركبنا سيارته (الفورد) السوداء. ولذهولي لم يظهر (بابا) لي أي اهتمامٍ بدرجاتي، وظل محتفظًا بهدوئه المريب. فلم تذب أي كلمةٍ لسانه المتجمد. حافظ وجهه على تجهمه، وبقت عيناه معلقتان بالطريق .

رحت بين الحين والآخر؛ أرمق وجهه منقبة عن أي تعبيرٍ يهدئ من روعي. لكن صمته البليغ كان ينطق بوضوح؛ أنه لن يدعني أستكمل دراستي. وعندما وصلنا البيت هرولت نحو (ماما) وغبت في أحضانها.غسلت وجهي بالقبلات الحارة، فشعرت بالأمان وتناسيت سلوك (بابا) البارد. قالت (ماما) في سعادة:

" مبروك. يا حبيبتي. الآن صار بإمكانك أن تبدأي حياةً جديدة " .

كان وجهها يتوهج بالفرحة. انسللت من حضنها ونظرت لعينيها، واكتنفت جسدي قشعريرة باردة، وكأنها نذير بأن هناك شيء خطير بانتظار أن يحدث. وسألت :

"أي حياة جديدة تلك التي تقصدين ماما؟ "

"الحياة التي تتطلع إليها كل فتاة ".

قالتها، واستدارت لتذهب .

"مهلًا يا ماما. لقد أخبرتك من قبل أنني أريد استكمال تعليمي ".

ماتت ضحكتها، وتلاشى البريق من عينيها. بينما اعتصرت كفيها، وأنا اسأل :

"ما الخطب يا ماما؟ "

"لا.. لا.. لا شيء ".

قالتها، وهي تغيب في الصالة تاركة إياي بمفردي تائهة في أفكاري المضطربة المذعورة .

وبعد أسبوعٍ واحد؛ اتضح ما كانت (ماما) تقصده. لقد تحددت حياتي دون موافقتي .

لم تكن المدرسة تعني شيئًا لـ(راوية)، بل أنها استقبلت خبر الزواج بترحابٍ كامل. ففي رأيها لم يكن الإعلان عن كتب كتابنا ليحدث في وقتٍ أفضل. كانت أختي تتطلع لليوم الذي تحرر فيه نفسها من استبداد (بابا، ورضا وأحمد). والآن ها هو اليوم قد جاء. كان ترى أنها ما أن تغادر البيت، فلن يعود بوسع (بابا) التحكم فيها. كما أنها كانت تثق في ذكائها الذي سيؤمن لها إخضاع زوجها المستقبلي لرغباتها .

"أختي العزيزة، مهما كان شأن الرجلين الذي اختارهما (بابا) لنا، فلن يكونا أبدًا أسوأ منه ".

قالتها، وهي تحاول أن تغرس في نفسي الشجاعة. ثم رقدت على ظهرها وأنا جالسة إلى جوارها، وأردفت:

" الزواج هو فرصتنا الوحيدة للفرار من هنا، ألا تتمنين أن تصيري حرة؟ "

كنت موافقة على ما تقوله، لكن بعض التردد ظل حيًّا ينبض في أحشائي. نهضت (ليلى) وقطعت نصف المسافة حول الفراش، ثم فتحت ذراعيها وهتفت:

"كل شيء بالخارج في انتظار أن نكتشفه. سوف نشاهد الأفلام العربية، سوف نرتدي ما نحبه، بل وربما جربنا الشراب ".

ثم شبكت ذراعيها خلف ظهرها، وخطت نحوي ببطءٍ، وهمست بحذر:

"بل ربما أتيح لنا تجريب ذلك الشيء الشرير، الجنس ".

كنت أستمع وأنا أوليها كل اهتمامي، كما لو كانت (راوية) مدرسة تلقنني الإرشادات للامتحان النهائي .

"هل تخططين لممارسة الجنس مع (جمال) قبل الزفاف؟ "

سألتها. فعلى خلاف (راوية) لم أكن مستعدة لممارسة الجنس أو حتى احتساء الشراب. كنت أرغب في الحرية من أجل أسبابٍ أخرى. كنت أعلم أن الزواج سوف يسرقني من أحلامي في أن أصبح صحفية. قهقهت (راوية) وهي تهز رأسها، وأجابت:

" يا لكِ من ساذجة، عليك أن تستعلمي عقلك الذي وهبه الله لكِ، وليس ذلك الشيء الميت الذي حشره (بابا) في رأسك ".

"لا أريد أن أفكر بطريقتك. إن لديّ خططي الخاصة من أجل المستقبل ".

قطبت (راوية)، وعندما أوضحت لي أن الطلاق الرسمي هو السبيل الوحيد لإنهاء عقد الزواج؛ جززت على أسناني، ورحت أتجول في الحجرة بعصبية. كنت أعلم أن (راوية) لديها من الشجاعة ما يجعلها تقدم على ممارسة الجنس، قبل الانتقال لعش الزواج .

"هل تخبريني بأنك سوف تمارسين الجنس مع (جمال) ".

"في مجتمعنا، لو تنازلت الفتاة المخطوبة عن عذريتها لخطيبها يتهمونها بالفسوق، وقد تتبرأ منها أسرتها. بل وقد تقتلها. لكنها لو فقدت عذريتها مع من كتب كتابه عليها، فلن تصير العواقب بنفس الخطورة ".

لم تترك كلماتها أي أثرٍ في نفسي. فلم تكن ممارسة الجنس مع (فاروق) أو أي شخصٍ آخر ضمن مخططاتي. بينما أكملت حديثها :

"تلك الورقة، سوف تكون تذكرتنا نحو الحرية، يا عزيزتي. فبمجرد توقيعنا على عقد الزواج بعد أيام؛ سيصير أزواجنا مسؤولين عنا بدلًا من (بابا). هنا يمكننا أن نقايضهم بالجنس مقابل بعض الحرية ".

صدمني استعداد (راوية) لمنح الجنس من أجل حريتها. كانت تتحدث في قوةٍ أفتقدها لأسألها؛ كيف أصبحت بمثل تلك الخبرة في المسائل الجنسية؟ بالطبع لم تتعلم من مجلات حواء أن تستخدم الجنس كوسيلةٍ لنيل ما تريده من الرجل. أبقيت هواجسي تلك بأعماقي؛ لأنني كنت أفتقد الشجاعة للاعتراض على هذا الزواج، كما لم أشأ أن أخسر (راوية) .

كانت الثغرة الوحيدة في خطة (راوية) أن عقد الزواج لا يعني أن نكتسب الحرية، ونغادر المنزل على الفور. فمازال علينا أن ننتظر إلى أن ينتهي والدينا من تأثيث منزل الزوجية. كانت فترة الانتظار تلك تعتمد على قدرات الأهل المادية، وعادةً ما كانت تلك التجهيزات تستغرق من عامين لنحو خمسة أعوام. لكن لو كان الأهل أثرياء، فهذا يعني أنه لا حاجة لأن تنتظر الفتاة طويلًا لإتمام

obeikandl.com

الزواج. كنا نعلم أن أبوينا يملكان المال، لكنهما لم يخبرانا متى يكون الزفاف؟ ومتى ننتقل للعيش في بيت أزواجنا بالتحديد؟

مالت (راوية) نحوي، وهمست:

"اسمعي يا ليلى ".

اقتربت منها، وغمغمت:

"أنا منصته" .

نظرت مباشرةً نحو عيني وقالت :

"لا تقلقي بشأني، فأنا سعيدة بهذا الزواج لأسبابٍ كثيرة، لكن ما يقلقني هو أنتِ. فأنتِ لست على استعداد بعد لمغادرة هذا البيت، ناهيك عن فكرة الزواج نفسها" .

ثم صمتت لوهلة، قبل أن تكمل:

" ولهذا فعلينا أولًا؛ أن نعلم من (ماما) كل شيء ممكن عن (فاروق)، أريد التأكد من أنه لن يكون سجانك الجديد".

ورغم تشككي في مقدرة (راوية) على دفع (فاروق) أو حتى (جمال) للإذعان لرغباتنا، إلا أنني شعرت بالمزيد من الأمان وأنا أستمع إليها. كنت أتمنى أن أعيش نفس حياتي الحالية. أن أستمتع بحياتي كفتاة، وأن أذهب إلى المدرسة، كما رغبت في مواصلة تدريبات كرة السلة، وأن أقضى المزيد من الوقت مع (غسان). هنا رحت أبكي.

احتضنتني (راوية) وقالت:

" هل تخافين الزواج؟ "

"لا أعرف!"

"إذًا، فلماذا البكاء؟ "

"سوف أفتقد أصدقاء المدرسة ".

"هذا ليس وقت البكاء على أصدقاء الدراسة، إننا نواجه مستقبلًا غامضًا، وأهم ما يجب التفكير فيه: كيف هو العالم خارج هذه الغرفة؟ "

صمتت لبرهةٍ، ثم أشارت نحو الشرفة وتمتمت:

"أنا متأكدة أن أي مكانٍ بالخارج؛ سيكون أفضل من هنا ".

ثم نظرت لوجهي بعدها بابتسامةٍ ماكرة، وقالت وهي تراقب انفعالي:

"ألا تريدين رؤية غسان؟ "

كانت تلك الكلمات كالسحر، ونقلتني إلى حالةٍ من البهجة والسعادة

"بالطبع أريد إن هذا هو كل ما أتمناه ".

قلتها دون أن أفكر؛ كيف يمكن أن يساعدني زواجي من (فاروق) على رؤية (غسان). ضحكت (راوية) وأجلستني، ثم وقفت أمامي وأحاطت وجهي بكفها، وقالت برقة :

"ليلى، أريد أن نتبادل حديثًا جادًّا عن عواطفك ".

انزعجت، وقد كرهت أن أسمع أي شيءٍ قد يفسد مشاعري السعيدة. لكنها استمرت:

"عليك التوقف عن الإيمان بالحب ".

تجهمت وتراجعت للخلف، بينما أكملت (راوية):

"ما الذي يريده منك (غسان) برأيك. هل تعتقدين أنه يحبك؟"

أومأت بتحدي، فجذبتني من يدي ودفعتني نحو المرآة، وأشارت نحو جسدي وقالت:

"انظري، يا ليلي. هذا ما يريده (غسان) منك، لا شيء أكثر من هذا. وكلما أدركت هذا مبكرًا، كلما كان الأمر سهلًا عليّ. لا أريد أن أقضي ما بقي من عمري في مواساتك ورعايتك لتبرأي من علاقةٍ فاشلة مع أحد الرجال ".

لم أرغب في أن أصدق كلمات (راوية) القاسية الجافة، وصحت باحتجاج :

obeikandl.com

"أنا لا أنتظر منك أن ترعيني لآخر حياتك، إنني لا أرفض تحكم (بابا) في؛ لتحلي أنتِ مكانه ".

فاجأتني إجابتي تلك تمامًا كما فاجأتها، رفعت حاجبها بغير تصديق، لكنني تجاهلت تلك النظرة المرسومة على وجهها، وقلت :

"أنا لا أنوي أن أنسى (غسان) الآن، أو في المستقبل ".

كان (غسان) هو الشخص الوحيد الذي أشعرني بجمالي وأنوثتي، ولهذا لا أنوي أبدًا أن أنساه، لا من أجل (راوية) ولا حتى من أجل زوجي القادم .

ولهذا قلت بعدها:

"أعلم أنكِ كنتِ من تقود خطاي طوال عمري، لكن لقد أتى الوقت الذي عليك أن تدركي فيه؛ أنني من سيختار من أحبه ".

"لم أطالبك ألا ترينه، فقط حاولت أن أمنحك نصيحة أخوية. أنتِ عاطفيه ورومانسية للغاية. وهذا قد يوقعك في المشاكل، وخاصة لو كنت متزوجة برجلٍ آخر ".

كانت (راوية) محقه، لكنني وقتها لم أهتم. فقط كرهت حديثها، ولهذا ابتعدت عنها.

obeikandi.com

(10)

كنت أدرك أنا و(راوية) أهمية مفهوم العذرية في ثقافة مجتمعنا، ومدى تأثيرها على مستقبلنا. فأغلب الرجال المصريون لا يتزوجون إلا العذارى. كانت هذه هي الحقيقة التي تتعلمها الفتاة المصرية منذ نعومة أظفارها من أبويها، وعائلتها وأصدقائها والمجتمع كله .

وداخل حجرتنا الخاصة؛ اعتادت (أم زبيدة) أن تقص علينا الحكايات التي تبين مدى أهمية العذرية في موطن نشأتها، في محافظة (أسيوط) في صعيد مصر. كانت (أم زبيدة) قد عملت كخادمة لأمي لوقتٍ طويل، قبل حتى أن أولد أنا أو (راوية). وقد تزوجت بينما كانت تحيا في كنف أسرتنا. اكتسبت ثقة والدينا بعد أن لمسا مدى تفانيها في خدمتنا وطيبتها. وقد نشأنا ونحن نعاملها كواحدةٍ من أفراد الأسرة. وفي المقابل كانت تعدنا كأبنائها. ولهذا فقد منحتها أنا وأختي جم ثقتنا .

وفي ليلة، كنت أرقد بجوار (راوية) على الفراش بينما جلست (أم زبيدة) على البساط، ثم راحت تصف لنا ما يحدث في ليلة الزفاف. راحت تحكي لنا؛ كيف يصطحب العريس عروسه إلى غرفة نومها؛ بينما يقبع أهل العروس والعريس خلف باب الحجرة في انتظار دليل عذرية العروس. وبعد بضع دقائق يظهر العريس، وهو يلوح بمحرمة بيضاء مخضبة بالدماء؛ ليؤكد أن عروسه مازالت عذراء، كعلم في كف أحد الفاتحين .

ضحكت (أم زبيدة)، بينما ارتعدت خوفًا، وأنا أضع كفي فوق موطن عذريتي. هنا هبت من مكانها وأبعدت كفي عن المكان وقالت:

"لن يحدث هذا معك أو مع أختك. تلك الأمور لا تكون إلا في الأرياف ".

كنت في ذلك الوقت في التاسعة من عمري، وسألتها: كيف يصل الدم لقطعة القماش؟ أخبرتنا (أم زبيدة) أن العريس أو إحدى النساء تقوم بتغطية إصبعها بمنديل أبيض، بينما تستلقي العروس التي تم تهيئتها لمثل هذا الأمر من قبل على ظهرها في وضعٍ يتيح للإصبع اختراق غشاء بكارتها .

"إنهم يقومون بوكز غشاء بكارة العروس، ويكون القماش الملطخ بالدم دليل عذريتها ".

قالت (أم زبيدة) قبل أن تخفض من صوتها، وتهمس في سخرية :

"بعد ذلك، تصبح البقرة جاهزة للإخصاب ".

شعرت بالغثيان، وأنا أستمع لتلك التفاصيل المروعة، وانتابني الذهول من ضحكات (أم زبيدة) حينها وهي ترى مقدار ذعري.

ألقي على عاتق (أم زبيدة) المرأة التقية المتشحة دومًا بغطاء رأس أسود، مهمة تعلمينا بأمور ديننا. لكنها لم تمنحنا أبدًا الإجابة على سؤالنا الدائم، لماذا لا يتبع الرجال نهج النبي (محمد) ونصائحه في حسن معاملة المرأة والترفق بها واحترامها. على الأقل لم تمنحنا يومًا إجابة مقنعة، واكتفت فقط بأن قالت أن علينا أن نشكر الله وأبوينا لأنهما لم يقوما بختاننا .

وفي يومٍ ما، شعرنا أن تلك النصيحة المبهمة لا تكفى، فسألتها:

"لا أفهم ما تعنيه، هل تقصدين أنه يتم ختان الفتيات أيضا؟"

فأجابت، والحزن يغمروجهها :

"أجل، هذا يحدث. بل وأنا واحدة من اللاتي قد ختن ".

"ألم ترغبي في أن يتم ختانك؟ "

سألتها أنا و(راوية) .

"بالطبع، لم أرغب في هذا، لكن الأمر لم يكن بيدي، فكل الفتيات في قريتي كان يتم ختانهن ".

صرخت، وأنا أفكر في هذا الأمر الذي لا يصدق :

"ولماذا؟ "

"إن هذا يتم لحماية الفتاة، هذا يتم لقتل كل رغبةٍ جنسية لدى المرأة، كي لا تخون الزوجة زوجها في المستقبل ".

"لكن ماذا يحدث بعد أن تتزوج الفتاة؟"

ألحت (راوية) على (أم زبيدة) :

"هل يصير بإمكانها أن تحمل؟ "

"أجل ".

سألتها :

"إذًا. لماذا لم يتم ختاننا بعد؟ أم ترانا قد حدث هذا لنا دون أن نعلم؟"

عاد وجه (أم زبيدة) ليكفهر وقالت :

"سوف تعرفون إجابة هذا السؤال فيما بعد ".

سألناها في صوتٍ واحد :

"وكيف هذا؟ "

"لا يمكنني إخباركما، من الأفضل أن تسألا أمكما ".

قالتها ولاذت بالصمت، وقد قررت ألا تخبرنا بالمزيد .

انتظرت أنا و(راوية) اللحظة المناسبة التي نستجمع فيها شجاعتنا لمناقشة هذا الأمر مع (ماما). كان (بابا) قد منعنا من التحدث بشأن أي شيءٍ عن جسدنا، لكن (ماما) كانت تتجاهل هذا التحذير في بعض الأحيان. وبعدها بأيامٍ قليلة، تناهى لأذاننا جدال قائم بين أبوينا يدور بشأننا. حينها هربت (ماما) منه، ولجأت لغرفتنا كما اعتادت أن تفعل. وجلست على حافة الفراش، وراحت تدلك ركبتها اليمنى بأناملها .

سألتها (راوية) في عبث:

obeikandl.com

" ماما، هل تستمتعين بممارسة الجنس مع بابا؟ "

أصاب هذا التساؤل الغريب (ماما) بالصدمة، نظرت نحوها في شتات، وبدت حائرة في كيفية الإجابة عليها، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت:

"أين تراك سمعت عن الجنس ".

تبادلت أنا و(راوية) النظرات. ولم نكن نرغب في أن نوقع أنفسنا أو (أم زبيدة) في المشاكل .

عادت (راوية) لتسألها:

" هل تم ختانك؟"

ومرةً أخرى، جلب سؤال (راوية) التوتر لـ(ماما). لكننا وقبل أن تفكر في الرد، أمطرنا وجهها بالقبلات كي نتقي غضبها. هنا ابتسمت (ماما)، وكفت عن تدليك ركبتها، واستعدت لتمنحنا الرد. لكن لم تفعل إلا بعد أن جعلتنا نقسم، أتت (راوية) بالمصحف، ووضعنا يدنا اليمنى عليه، ثم أقسمنا ألا نخبر أي أحدٍ بشأن تلك المحادثة .

أبقت (ماما) المصحف في يدها، وراحت تؤكد لنا أن (بابا) لا يؤمن بمسألة ختان الفتيات. وأنها هي الأخرى قد نجت من الختان. وأضافت :

"أبوكما لا ينوي ختانكما. لكنه ينوي تزويجكما في سن مبكر كي يحميكما من الرغبات الجنسية ".

سألتها :

"وكيف يتم ختان البنات؟ "

منحتني (راوية) ابتسامة مشجعة، بينما أخذت (ماما) نفسًا عميقًا وهي تحدق نحو الفراغ، ثم قالت بعدها :

"عادةً يتم هذا حين تصل الفتاه للثامنة أو التاسعة من عمرها، هنا يصطحبها والديها إلي الدكتور، أو حلاق القرية في الأرياف، حيث تتم عملية (الطهارة) ".

وصمتت بعدها لبرهة، ورأسها يهتز في أسى، ثم أكملت:

"إن الختان ليس من أجل تطهير المرأة. بل هو مجرد تشويه لها ".

سألتها (راوية) وصوتها يشوبه بعض التهكم:

"وكيف يقومون بـ(طهارة) الفتاة؟ "

وتساءلت أنا في الوقت نفسه، في تعاطف:

"وهل تعلم الفتاة قبلها بما سوف يحدث لها؟ "

"بالطبع. لكن ليس بالتفصيل".

أجابت (ماما). فغطيت وجهي في رعبٍ، وصحت :

"أوه! كلا يا ماما!"

هنا صرخت (راوية) في وجهي، وقد أحنقها مدى سذاجتي، وما أظهرته من تعاطف:

" توقفي عن تلك الدراما، ولا تقاطعي ماما ".

أشارت لي (ماما) أن أضع رأسي على حجرها، ثم راحت أناملها تتخلل خصلات شعري، وواصلت الحديث :

"يتم إعداد الفتاة لهذه المسألة منذ صغرهم. في الواقع، تتطلع الكثير من البنات لهذا اليوم؛ لأنهم يعدونه يوم عيد للعائلة بأسرها ".

سألتها :

" وهل يمكن للفتاة أن ترفض؟ "

بادرت (راوية) بالرد قائلة:

obeikandl.com

" وكيف يمكن لطفلةٍ في العاشرة أن ترفض؟ هل يمكنك أنتِ أن تقولي لا للقواعد في هذا السجن؟"

لم يكن هناك ما أجيبها به، فقطبت وهززت رأسي، كنت أتمنى لو تتوقف (راوية) عن تذكيري دومًا بالقيود التي يفرضها (بابا) علينا .

"ليس للفتيات أي مشيئة على الإطلاق".

ثم صمتت لبعض الوقت، قبل أن تواصل الحديث بصوتٍ خافت :

" يتم تقييد الفتاة جيدًا بواسطة والديها، وقد يستعدي الأمر مساعدة فردٍ آخر من العائلة لمنع الفتاة من الحركة تماما ".

" وكيف يقومون بـ(الطهارة)؟"

سألت (راوية) بإثارة :

" باستعمال الشيفرة، حيث يقومون باقتطاع جزء من جلد العضو التناسلي ".

" أي جزء هذا؟"

قاطعتها في رعب .

"إنه جزء صغير يتدلى من عضوك الجنسي".

أجابت (ماما) وهي تخفض بصرها نحو الأرض، كان نطق اسم العضو الجنسي محرمًا تمامًا في نطاق أسرتنا. جعدت (راوية) من أنفها في اشمئزاز، وقالت:

" ولهذا يسمون تلك العملية (طهارة). أليس كذلك؟ يبدو أنهم يهيئون ثقبًا نظيفًا للرجل ".

قالت (ماما):

" معظم الرجال في الأرياف يفضلون المرأة المختونة. ربما لأنهم يؤمنون أن زوجاتهن لن يقدمن على الزنا بهذه الطريقة".

obeikandi.com

ولبضع دقائق بعدها، لم ينبس أي منا بأي كلمة. كنت أناضل أنا وأختي لاستيعاب ما نسمعه. لكن (ماما) قطعت الصمت وأضافت:

" عليكما أن تشعرا بالامتنان لأنكما لم تختنا؟ "

"وهل هذا الأمرجزء من الشريعة؟ "

سألتها. لكن (ماما) أوضحت أن الختان لم يكن من الإسلام، بل كان ينتمي للعادات التي يتم ممارستها منذ آلاف السنين. ثم أضافت بعدها :

" -لكن بعض الغلاة من المسلمين يعتقدون أن الختان جزء من الإسلام ".

عرفنا من (ماما) كذلك؛ أن الختان كان يمارس خلال عصور الفراعنة. وأن الكثيرين مازالوا يؤمنون أنه طريقة آمنة لتثبيط الغريزة الجنسية للفتيات وشهوتهن. تعجبت لماذا لا يهتم أحدهم بتثبيط شهوة الرجل؟ وخاصة وهم من يقومون باغتصاب النساء. شعرت (ماما) بالحرج وهي تتحدث معي و(راوية) عن الجنس. واكتفت بعدها بأن طالبتنا بشكر الله؛ لأننا لم نتعرض لهذا الأمر، ثم غيرت مجرى الحديث .

كانت هذه المرة، من المرات النادرة التي أشعر فيها بالامتنان نحو أبي؛ لأنه لم يعرضنا و(فريدة) لمثل تلك التجربة. لكن (سمير، وهادي) وأخوتنا الأكبر لم ينجوا من عملية الختان. فبمجرد بلوغهم عمر الخامسة كانوا يخضعون لحد السكين. كان هذا الأمر من السنة في الإسلام، كما أخبرتنا (ماما). كان الأمر معتادًا كذلك في اليهودية. كان ختان الأولاد أمر حتمي .

شكرت عمتي (عقيلة) وابنتها (فريدة) لـ(بابا) أنه أواهم في بيتنا. فالمجتمع المصري لم يكن متسامحًا مع أي مطلقةٍ جميلة لديها طفل مثل عمتي (عقيلة). نشأنا ونحن نعدهم جزءًا من العائلة دون أن نسأل؛ لماذا يعيشون معنا؟ نهى (بابا) أمنا عن الحديث بهذا الشأن. وحين كانت عمتي (عقيلة) تستمع لتعليمات (بابا) الصارمة، كانت تتطوع بمحادثته وهي تحثه أن يخفف من

قبضته علينا ولو قليلًا. لكنها في أغلب الأوقات، كانت تكتفي بالتحديق في وجهه، قبل أن تنسحب بهدوء نحو حجرتها. كانت عمتي تتحاشى تلميحات (بابا) المبهمة عن ماضيها.

ولما أدركت عمتي (عقيلة) فشلها في إقناع (بابا) باتباع سلوكٍ مختلف في تربيتي أنا و(راوية). وجهت اهتمامها نحو (رضا، وأحمد) حيث راحت تقص عليهما الكثير من القصص التي تتحدث عن حسن معاملة النبي للمرأة. لكن حديثها لم يترك في نفسيهما الكثير من الأثر. هنا أخبرتنا بإحباط؛ أن الأمر بحاجة لمعجزة من عند الله كي يعامل الرجل المرأة على قدر المساواة.

منحتني كلمات عمتي شعورًا عميقًا بعدم الارتياح. ومازلت حتى الآن. أرفض منطقها وإذعانها. ومازلت أعتقد أنه لا شأن لله بما كان يقوم به أبي و(رضا وأحمد) من سوء معاملتنا. لكني احتفظت بأفكاري هذه لنفسي.

obeikandl.com

(11)

سار (رضا، وأحمد) على خطا (بابا) في مراقبتنا والتضييق علينا، وعدّا نفسيهما وكيلين عن (بابا) في البيت حين لا يكون هناك. راحا يتفننان في ابتكار الطرق لإحكام سيطرتهم، وفرض إرهابهم في كل بقعةٍ في البيت. كان الخدم الخمسة ضحاياهم الصامتون دومًا، وبخاصة الخادمتين الصغيرتين (كريمة، وتقى) كنا مازلنا نحيا في (زيزينيا) حين شكت (أم زبيدة) لأمي لأول مرة، أن (أحمد) قد اقتحم مسكن الخادمات، وقام بتفتيش الخادمات متهمًا إياهن بسرقة بعض أمواله وملابسه من حجرته. كانت (كريمة) قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها للتو، بينما كانت (تقى) في الحادية عشر.

وحين انتقلنا إلى (شقة رشدي) تفاقم سلوك الولدين. راحت (أم زبيدة) تؤكد لي ولـ(راوية) أن الولدين حاولا مرارًا التحرش بالخادمات. حاولت (أم زبيدة) منعهما عن هذا، لكنها لم تنجح في ردعهما. في النهاية أفضت بالأمر كله لـ(ماما)، التي ألقت باللوم كله على الفتاتين متهمة إياهما بإغواء الصبيين.

كان سلوك أمي في هذا مفهومًا. كانت تتبع ثقافة المجتمع المصري، والتي لم تكن تلقي بالذنب على الرجل في تلك القضايا مهما اقترفوا. كانت المرأة هي المدانة دائمًا. حتى لو اغتصبت إحدى الفتيات وصارت حبلى بعدها، ووجدت في نفسها من الشجاعة ما يدفعها لاتهام أحدهم بالاسم باقتراف هذا. لم يؤرق (ماما) كثيرًا حقيقة تحرش (رضا وأحمد) بالخادمات. لم تعلق على الأمر، ولم تحاول كبح نشاط المراهقين الجنسي.

كانت معايشتي لمثل هذا التميز، تملأني بالغضب. وتزيد امتعاضي من هذا المجتمع الذكوري الذي نشأت فيه. صممت حينها على تحدي قواعد تلك الثقافة العنصرية مهما كان الثمن.

وذات يوم. قلت لـ(راوية) :

"طالما أمكن لـ(كليوبترا، وحتشبسوت) حكم مصر، فما الذي يمنعنا أن نفعل؟ "

لكنها أجابت في إحباط:

"إننا نحيا في زمنٍ مختلف يا ليلى، لقد انقرضت مثل تلك النساء، كما حدث للديناصورات ".

لكنني هززت رأسي بلا اقتناع، كانت (راوية) تؤمن أن المرأة في هذا الزمن تفتقد الرغبة الحقيقية في تحرير نفسها. وأنهن محاصرات بعقائد ذكورية تبقيهن دومًا متأخراتٍ بخطواتٍ خلف الرجل. لكنني لم أشاركها نظرتها المتشائمة تلك عن المرأة. وقلت لها في عزيمة:

"لو خاضت المرأة معركتها بإصرار، فحتمًا ستستعيد ذات القوة التي تمتعت بها المرأة الفرعونية القديمة ".

"لا تنسي يا ليلى، أن المرأة المصرية القديمة، كانت تحيا في زمنٍ لا يؤمن بالعقائد التي نؤمن بها اليوم. في زمنهم كانوا يقدسون الآلهة (إيزيس)، والتي كانت في الأصل امرأة ".

خلت نفس (راوية) من أي أملٍ في أن تستعيد المرأة مكانتها القديمة ثانية في مثل هذا المجتمع. وآمنت أن نجاح المرأة لن يأتي إلا من خلال حسن تلاعبها بالرجل. كانت ترى أن الإسلام قد أتى من أجل الرجال. عارضتها في هذا بشدة، وقد آمنت أن رسالة الإسلام قد جاءت لتحرير المرأة. وكان رد (راوية) :

"إنني أتفق معك في هذا، لكن الإسلام أتى من أجل تلك المرأة التي عاشت في الصحراء ".

كانت ردودها الجاهزة على الدوام؛ تنجح عادةً في إرباك عقلي. لكنني رغم هذا ظللت على رأيي، إن المرأة ما زال بإمكانها أن تقود العالم كما فعلت في

العصور القديمة، رغم علمي أنه في المجتمعات التي ترى أن الرجل هو هدية الرب وأن المرأة هي خطيئته، يكون المولود الذكر هو هبة الإله الأسمى.

كان (رضا) هو الذكر الأكبر سنًّا في الأسرة، وكان قد جاء بعد ثلاثة أطفال ذكور قضوا نحبهم في صغرهم قبله، ولذا فقد حظي بنصيب الأسد من اهتمام أبوينا. مما جعل من أخي وحش الأسرة المدلل.

وذات مرة، وقد كنت في التاسعة من عمري؛ رغب (رضا) في الصيد وأراد أن يصطحب أحدهم معه، كان قد اعتاد أخذ (سمير أو هادي) معه، لكنهم كانوا قد ذهبوا مع (ماما) في ذلك اليوم من أجل التسوق. كنت أنا وأختي قد اعتدنا أن نمكث في حجرتنا، ونغلق بابها علينا حين يكون أبوانا بالخارج. ولأننا نتشارك نفس الشرفة مع أبوينا، فقد كنا نتأكد دومًا من أحكام إغلاق باب الشرفة. يومها لذنا بالصمت تمامًا، وامتنعنا عن إحداث أي حركة؛ آملين أن يعتقد (رضا) أننا نائمتين. لكن تدبيرنا هذا باء بالفشل. فقد راح وقع أقدامه يقترب من حجرتنا مع كل نفسٍ مضطرب نتنفسه. بعدها أصدر الباب صوتًا كالرعد، و(رضا) يصيح مزمجرًا :

"افتحا الباب ".

وقفت أنا و(راوية) بلا حراك، وغطيت فمي بكفي كي لا تصل لأسماع (رضا) صوت أنفاسي المضطربة. بينما راح هو يقرع الباب بقوةٍ أكبر. هنا لم تحتمل (راوية) وصرخت :

"لن نفتح الباب إلا حين تأتي ماما ".

"كلا. سوف تفتحانه الآن. أريد أن تأتي أحدكما معي ".

توعدته (راوية) قائلة:

"سوف أخبر بابا ".

"إن لم تفتحا الباب في الحال، فسوف أكسره ".

obeikandl.com

وفي ذعرٍ، ولأنني فقط رغبت في إنهاء تلك المواجهة، أخبرت (راوية) أني سوف أذهب معه. ثم فتحت الباب .

قبض (رضا) على ذراعي وقال :

"سوف تذهبين معي الآن ".

تبعته بهدوء نحو الباب الأمامي؛ بينما تلكأت (راوية) خلفنا. وضع (رضا) حقيبة الصيد بين ذراعي في نفس الوقت الذي نظرت فيه إلى (راوية)؛ أنا أتمنى أن تأتي معي، لكن عينيها وشيا حينها بالرفض التام. وقالت لي :

" -لا تقلقي، سوف أخبر (بابا) بما حدث ".

لكن كلامها كان غير ذي معنى. فمهما قالت لن يُعاقب (رضا)!

في البداية؛ حاول (رضا) أن يكون لطيفًا معي، لكنني لم أطمئن لحظة لطيبته تلك. ورغم أنني لم أخرج معه للصيد يومًا إلا أنني أعلم جيدًا؛ كيف يعامل أخويّ حين يصطحبهما من أجل هوايته تلك. ما كان يشغلني كل تلك الساعات التي كان عليّ أن أقضيها معه كي أتقي غضبه. وقد قررت أن أتبع تعليماته بالحرف .

كان الوقت ظهرًا، وكانت السماء ملتهبة. ارتدى (رضا) قبعة من القش، بينما لم يكن لديّ واحدة، ولهذا فقد ألهبت الشمس المحرقة فروة رأسي العارية. حاولت مواكبة خطواته المسرعة، وأنا أسأله :

"إلى متى علينا أن نبقى؟ "

كان يعلم أنه ليس مسموحًا له أن يصطحبني خارج البيت، وأنه من المفترض ألا أكون هنا. لكنه أداررأسه نحوي. حدق في وجهي بقسوة، وأجاب :

"سوف تمكثين معي طالما أرغب في هذا ".

"كما تريد ".

وعندما بلغنا الشاطئ كان البحر هائجًا. وظلت أمواجه الثائرة تعوي وهي تتكسر على حاجز الأمواج الذي امتد بطول الشط. اتخذ (رضا) مكانه فوق واحدةٍ من الكتل الأسمنتية الضخمة التي يتكون منها حاجز الأمواج؛ بينما وقفت أنا فوق كتلةٍ أخرى وجسدي يرتجف، وأنا أحمل له طعم السمك في سلةٍ صغيرة .

غمرت الأمواج الهائجة الأفق كله، وراحت تندفع نحوي بإصرارٍ في موجةٍ تلو الأخرى. ارتعشت ركبتي. والفزع يراودني مع كل موجةٍ تتكسر أسفل الحاجز الذي أقف فوقه، وشذرات من الماء المالح تضرب وجهي .

" أعطني بعض الطعم!"

صرخ (رضا)، فأفقت من شرودي وذعري، اندفعت نحوه على الفور وقفزت من مكاني إلى الكتلة الخرسانية التي يقف عليها مجتازة الفجوة التي تفصلني عنه، وأنا أتجاهل حائط الماء الذي يندفع نحوي بإصرار محاذرة كي لا أنزلق. ألقيت في يده طعمًا صغيرًا، فالتقطه مني ثم أشار لي أن أبتعد. وحين استدرت وتهيأت للعودة لمكاني، اجتاحتني قوى عنيفة مصحوبة بضوضاءٍ مرعبة. ورغم أنني لم أر أو أسمع أي شيء؛ إلا أنني شعرت بجسدي النحيل، وقد هوى في الفراغ بين الكتلتين الأسمنتيتين الضخمتين، وراح يتخبط في الجدران الخشنة للحاجز الخرساني. ولثانية أو ثانيتين؛ رحت أنزلق عميقًا. بينما ساهمت الجدران الطحلبية الزلقة في زيادة سرعة انزلاقي. تمكنت في النهاية من الإمساك بإحدى حواف الكتلة الصخرية وقبضت عليها بقوةٍ، فصار نصفي السفلي معلقًا في فراغ الفجوة. حينها شعرت بجانبيّ جسدي يحرقانني، وأصمني الهدير الصاخب المرعب للموج الذي ظل يضرب الكتل الصخرية من حولي في وحشية .

لم أدر كم من الوقت قضيت، وأنا محشورة هكذا بين الكتل الأسمنتية. وعندما فتحت عينيّ ونظرت لأعلى؛ ضربت آشعة الشمس وجهي. بينما شعرت بالرمال الساخنة أسفل ظهري. هنا رحت أبكي وأنا غير قادرة على تحمل آلام الخدوش والكدمات فوق أضلعي .

وفي لحظة، كان أخي بجواري. رمقني بغضب، لكنني رغم هذا رأيت الخوف يطل من عينيه. كان نفس الخوف الذي كان يبديه عندما كان أبونا يوبخه على درجاته المتدنية. وصاح بقوةٍ محاولًا رفع صوته فوق هدير الموج:

" هيا انهضي! لقد تأخر الوقت وعلينا العودة للمنزل ".

حاولت التحرك، لكنني كنت في ألمٍ مريع. فرحت أصرخ. مد (رضا) يده نحوي ليساعدني، فتعلقت بها. وبينما جلست شاهدت الدم يغمر كل ثوبي. لمست جانبي الأيسر، فاعتراني دوار عنيف حتى أنني فقدت وعيي تقريبًا مرةً أخرى .

التصق ثوبي القطني بجلدي الممزق، وراح الدم يتسرب عبر النسيج الأصفر الرقيق. أردت الصراخ، لكنني لاحظت بعض المارة ينظرون نحوي بفضول، وهم يقفون غير بعيد عن أخي، فابتلعت صراخي. نهضت، وقد قبض (رضا) بقوةٍ على كفي، وتحرك بي باتجاه البحر. جذبت يدي بعيدًا عنه خائفة مما قد يفعله بي .

" إلى أين نذهب؟"

" فقط تعالي معي، أنت بحاجة لبعض الماء الملحي لغسل تلك الدماء" !

" لا عليك. سوف أغتسل في البيت ".

" كلا، سوف تغتسلين منها الآن!"

كنت أرغب في أن يرى (بابا) ما حدث ليعاقب (رضا). لكن (رضا) كما يبدو كان يفكر في هذا بالفعل. ولهذا فقد جذبني من ذراعي وجرني نحو الماء. راح يملأ

كفيه بالماء ويصبه فوق جروحي، وهو يزيل الرمال عن جلدي الملتهب. فرحت أصرخ طوال الوقت. أمرته امرأة عجوز كانت تقف بالقرب منا؛ أن يدعني وشأني. لكنه لم يعرها اهتمامًا.

" هيا بنا نذهب ".

قالها، وقد أخذ بيدي وراح يسحبني مباشرة نحو البيت، وأنا أسير بجواره وأنتحب في صمت، وأنا أحاذر طوال الوقت أن تلامس ملابسي جلدي الملتهب. حذرني (رضا) بقسوة من إخبار (ماما، أو بابا) بما حدث، فطمأنته قائلة:

" لا. لن أفعل. أعدك بهذا. سوف أقول لهما أنه كان خطئي ".

" نعم. عليكِ أن تخبريهما؛ أنك قد تجولت من تلقاء نفسك بين الشقوق بحثًا عن سرطان البحر، ولهذا سقطتِ ".

" وهل تنوي اصطحابي للصيد ثانية؟ "

" لا ".

قالها بلا تردد. ولوهلة ذهب الألم. بل وبالكاد كتمت صرخة فرحٍ كادت أن تخرج من فمي. وعندما عدنا للبيت كانت (راوية) أول من رآني في هيئتي المزرية. هنا صرخت في وجهه برعب:

" ماذا فعلت في أختي؟ "

أسرعت بالرد قائلة:

" لقد سقطت! "

ذهب (رضا) إلى حجرته، واتجهنا نحن -أيضًا- نحو حجرتنا. أغلقنا بابها، ثم أخبرت أختي بما حدث. بينما كانت تصب (الميكروكروم) على جروحي. ماجت (راوية) بالغضب، لكنها كتمته في نفسها وهي تعلم أن أبوينا لن يعاقبانه على ما فعله بي. فطالما تغاضيا عن قيامه بما هو أسوأ بكثير .

اهتم (بابا) بتربية (رضا) وتهذيبه، بل وكان كثيرًا ما يقسو عليه مثلما يفعل معنا. وطالما عاقبه على درجاته المتدنية في المدرسة بعصا الخيزران. كذلك لا أحد كان يعلم ما قد يفعله (بابا) بـ(أحمد ،أو رضا) لو علم بسلوكهما الشائن مع الخادمات. ربما كانت (ماما) تعلم رد فعله، وربما لهذا كانت تخفي أمر ما يحدث عنه. كان رد فعل (ماما) يعكس نظرة مجتمعنا التي كانت تدين المرأة دومًا، وترى أنها من يقوم بالإغواء وأن الرجل ليس أكثر من ضحيةٍ لمثل هذا السلوك .

طالما حنقت (راوية) من تلك المعاملة المختلفة التي يتميز بها (رضا ،وأحمد). لماذا كان مسموحًا لهما بالخروج؟ ولماذا كان بإمكانهما زيارة أصدقائهما؟ ولماذا كان متاحًا لهما مصادقة الفتيات، بينما لا يمكنها فعل نفس الشيء؟ كان احتجاجها ينتهي عادةً بالتبرير الزاعم؛ أن هذا يحدث لأنهم أولاد، ولهذا يمكنهم فعل ما يرغبونه. ولهذا اعتدت كذلك أن أسأل (ماما):

" لماذا يمتلك الأولاد كل تلك الامتيازات؟"

"لأنهم لن يصابوا بالحمل، ولن يسأل أحد ما عن عذريتهم. لقد خلقنا الله هكذا؛ ولهذا فليس علينا أن نتشكك في حكمته هذه ".

اعتادت (ماما) استخدام كلمة (الله) كمبررٍ لتقبل ذلك التميز، وكي نكف عن طرح المزيد من التساؤلات. لكن (راوية) ظلت تضغط عليها وقالت:

" -ولماذا تعاقب الفتاة فقط. لو اغتصبها أحد الأولاد؟ لماذا لا يعاقب الأولاد كذلك؟"

"لأن الفتيات يتحملن وحدهن مسؤولية الحفاظ على عذريتهن. هذا هو العرف في أي مجتمع إسلامي. يمكن لأي شاب أن ينام مع أي عدد من البنات كما يحب، وفي النهاية يظل بإمكانه أن يظفر بزوجةٍ عذراء ".

قالتها (ماما) في شيء من السخرية، وبدت هي نفسها غير مقتنعة تمامًا بما تقوله، رفضت أنا و(راوية) تلك المبررات الواهية، وظللنا نفتش عن سببٍ مقنع، يفسر سر تلك الامتيازات التي يتمتع بها الرجال في مجتمعنا، لم تكن جريرتنا أننا قد ولدنا نساء، إلا أنه كان علينا دومًا دفع ثمن تلك الخطيئة .

ظلت (راوية) تدعو على (أحمد) بالموت في كل ليلة، قبل أن تخلد للنوم، كانت رغبتها المريضة هذه تدهشني، وكنت أسألها بعجب :

" هل تعنين حقًّا ما تقوليه يا (راوية)؟ "

كنت مستاءة بالطبع من قسوة الولدين معنا، كما كان يغضبني بطشهم لأخوتنا الأصغر سنًّا (هادي وسمير) لكن هذا لا يعني أن أتمنى الموت لهما. كان (رضا ،وأحمد) يرغمان الصغيرين على لعب الورق معهما، وعندما كان (هادي وسمير) يتغلبان عليهما، كانا يغضبان ومن ثم يوسعهما ضربًا. كنت أحاول حينها حماية الصغيرين، فأقف بينهما، وأنا أتوسل إلى (رضا وأحمد) أن يتوقفا عن معاقبة الصغيرين. كان (سمير) يلجأ لي طلبًا للحماية كلما أراد (رضا) إيذاءه. ولم أخذله في أي مرة، بل وفي بعض الأحيان. كنت أتشاجر مع (رضا وأحمد) حتى نتبادل الشتائم كي لا يضايقوا (سمير) .

كان (سمير) هو الأخ الأصغر؛ ولهذا فقد ظفر بجل اهتمامي ورعايتي، كان طفلًا مسالمًا، وكان يتقي دومًا الوقوف في وجه (أحمد، أو رضا). بينما كان (هادي) يشبه (راوية)، وكان يؤثر القتال. وكانت (راوية) طالما تردد:

"لا حاجة بـ(هادي) لمساعدتنا يا (ليلى)، إنه مقاتل مثلي".

أما (هالة) فقد كانت تهرب برعبٍ من أي مكان فيه (رضا، أو أحمد). ولأنها كانت الفتاة الأصغر في العائلة، ولأنها كانت تعاني من حب الشباب، فقد رأى الولدين أنها ليست بحاجةٍ للمزيد من المضايقة. في الواقع؛ عاملها الولدين بشكل جيد.

"إنها تقف إلى صفهما ".

هكذا كانت تقول (راوية) عندما كنت أحاول أن أضم (هالة) إلى صفنا. قبل أن تضيف بجدية:

"أنا لا أفهم؛ لماذا يبقى الله (أحمد، ورضا) على قيد الحياة، ويسمح لهما أن يصيرا أكثر شراسة ووحشية كلما تقدما في العمر".

لم أكن أشارك (راوية) كراهيتها هذه، لكنني كذلك لم أكن أحبهما .

اعتادت (راوية) التشاجر مع (رضا وأحمد). وبذل كلاهما كل الجهد كي يحيلا حياتها لجحيم. كانا يتبعانها في كل مكانٍ في البيت، بل وكانا يقتحمان حجرة نومنا بلا دعوة حين تكون (راوية) بمفردها. وفي بعض الأحيان كان (أحمد) يقصد حمامنا حين يعلم أن (راوية) داخله للاستحمام. متظاهرًا أنه يرغب في استخدامه، رغم وجود ثلاثة حمامات أخرى في شقتنا. لجأت (راوية) لـ(ماما) كي تمنعهما من اقتحام حجرتنا، لكن دموعها لم تزحزح ثقة (ماما) فيهما. كانت ترى أنهم أولاد يمارسون حقهم في حمايتنا. وكي تمنعهما من دخول حمامنا؛ اعتدنا أن نوصد باب الحمام بإحكام حين نكون داخله. وعندما كان الآخر منا يرغب في دخوله، كان عليه أن يطرقه بطريقةٍ معينة. قررنا كذلك وحين بلغت الحادية عشر من عمري؛ أن نغلق باب حجرتنا بالمزلاج بعد ما حدث ذات ليلة .

فذات مرة، كنا نتأهب للنوم، حين شعرنا بمقبض الباب وهو يتحرك، هنا وقفنا في قمصان نومنا بترقبٍ وهدوء. آملين أن يذهب من يحاول فتحه، ويكف عن محاولة الدخول سواء كان هذا (رضا، أو أحمد) .

" افتحا الباب!"

صاح (رضا)، وهو يطرق الباب بعنف .

"افتحاه أو أقتلكما!"

ارتجفت أنا و(راوية) في رعب، لكننا لم نفتح الباب. هنا راح (رضا) يخبط الباب بقوة، حتى أن صورة (راوية) الملعقة سقطت عن الجدار. انتبهت (ماما) لتلك الجلبة، فهبت نحو المكان. وسمعناها وهي تسأل (رضا) بالخارج:

"ما الذي يحدث هنا؟ "

تجاهلها (رضا)، وعاد ليقرع الباب بصورةٍ أكثر عنفًا وهو يصرخ:

"ماذا يفعلان بالداخل؟ ولماذا يغلقان الباب بالمزلاج هكذا؟ "

هنا صرخت (راوية) من الداخل محتدة:

"هذه ليست حجرتك!"

بينما قالت (ماما):

"افتحوا الباب يا بنات ".

"ليس قبل أن يذهب رضا ".

"رضا. هيا إلى حجرتك الآن ".

قالتها (ماما)، ثم فتحت (راوية) الباب بعدها بحذر، خطت (ماما) للداخل، قبل أن تحكم إغلاق الباب خلفها. هنا هتفت (راوية) في سخط:

"من حقنا أن نحظى بالخصوصية ".

أجابتها (ماما) بتهكم:

"حقكم! ليس للبنات أي حقوق أو حرية هنا. وعلى إخوتكم الذكور الحفاظ عليكم والحرص على شرفكم".

كنا قد سمعنا نفس تلك الكلمات من (ماما) مرارًا وتكرارًا. ورغم هذا عدت أسألها :

"لكننا يا (ماما)، في أمان داخل حجرتنا. أخبريني لماذا كان الحفاظ علينا مسؤولية الذكور وليس نحن، أو حتى أنت و(بابا)؟ "

"هذه هي عاداتنا وتقاليدنا. وعليكم أن تتقبلوها كما هي".

قالت (راوية) بإصرار:

"ليس من حق أي أحد أن يتحكم في. ولا حتى أخي!"

"من حق (بابا وماما) أن يتحكما فينا ".

قلتها، فاستدارت (راوية) نحوي. أخذتني (ماما) بين ذراعيها وقالت :

"لا ينبغي لأحد أن يتحكم فيكما. لكن في هذا البيت وهذا المجتمع، ليس أمامكما إلا الإلتزام بالتقاليد. مهما بدت لكما غير عادلة!"

تساءلت (راوية) بغضب:

"ومن فرض مثل تلك التقاليد؟ "

تنهدت (ماما) وتحلت بأكبر قدرٍ من الصبر أمام كلمات (راوية) المتحدية وصمتت، بينما سألتها :

"وهل كان (الرسول) من أمر الفتيان بحماية أخوتهن؟ هل أمرت الشريعة بهذا؟ أريد أن أقرأ تعاليم الشريعة بنفسي لأرى ".

بدا التردد في وجه (ماما)، كنا نعلم أن (ماما) لا تقرأ القرآن كثيرًا مثل (بابا)، وأنه لا أحد قد لقنها الكثير من التعاليم الدينية. لقد كانت (ماما) تردد فقط الآيات التي حفظتها بالسمع. لكنها أجابت :

"لست واثقة من هذا، لكن هذه هي الطريقة التي ربتني أمي عليها. إنني لم أفكر يومًا، أو أتساءل عن حقيقة دور الرجل وحقه في تربية المرأة. لكن هذه هي الطريقة التي ينشأ عليها الرجل في مجتمعنا. وهذا ما يجب على المرأة أن تتقبله. إن الأخ الذي لا يقوم بدوره في الاعتناء بأخوته البنات ومراقبتهن: ليس برجلٍ في نظر أسرته أو مجتمعه ".

لكننا لم نر قط. أن تصرفات (رضا، وأحمد) كانت بغرض حمايتنا. إنهم فقط قاسون ويستمتعون ببسط سطوتهم علينا بصورةٍ يوميه. مثلما حدث مع (راوية) بعد شهرين من بلوغها الحادية عشرة من عمرها. خرجت يومها إلى

الشرفة الأمامية . بينما تخلفت عنها وقد كنت في غرفة الطعام. لم يكن (بابا) قد أتى للبيت بعد، وكانت (ماما) تقوم بأمرٍ ما خارج البيت. وفي الشرفة كانت (ليلى) وجهًا لوجه أمام ولد يقف في الشرفة المقابلة .

خاطبها الفتى قائلًا :

"مرحبًا!"

بدا أكبر منها في السن. وقد نما على وجهه بعض الزغب في غير انتظام. كان يتودد إليها ليحدثها، فقالت له مجيبة:

"مرحبًا، ما اسمك؟"

"سامي ".

قالها، وابتسم لها قبل أن يتراجع للخلف داخل باب وراءه ويختفي في شقته. وقعت (راوية) في حبه على الفور. وكان من الطبيعي أن تخبرني بهذا. علمت بعدها أن (سامي) كان طالبًا في الصف الأول في المدرسة العسكرية الجوية . وأنه يتدرب هناك ليصير طيارًا. كان يعود إلى بيته يومين من كل أسبوع، حيث كانت (راوية) تتحين أي فرصه لتتسلل للشرفة حين يعود كي تراه. راحا يتبادلان الابتسامات والقليل من الكلمات خلال تلك اللحظات القصيرة من هذا الحب الأفلاطوني. وبأعجوبة نجحت في ألا يشعر بها (بابا) أو يراها هكذا .

لكنهما لم ينجيا من عينيّ (رضا وأحمد). ففي أحد الأيام فاجأ (رضا) (راوية) وهي بداخل الشرفة تتبادل الابتسامات والنظرات مع (سامي). أمسك (رضا) بشعر أختي، وراح يجرها حتى وصل بها إلى الرواق خارج حجرتنا، وراح يصرخ وهو يصفعها على وجهها بلا توقف :

"لقد فقدتي "..

لكن (راوية) صرخت فيه وهو تخلص نفسها من بين يديه قائلة:

"لم أفعل شيء.. مازلت عذراء ".

راحت تصرخ طلبًا للنجدة من عمتي (عقيلة أو فريدة) لكن أيًّا منهما لم تهب لنجدتها. ففي رأيهما كان (رضا) يقوم بواجبه الأخوي الذي سمح له أبوانا به .

صفعها (رضا) مرةً أخرى، وحذرها من أن يراها ثانية في الشرفة أمام (سامي). أقسم أن يعاقبها بعنفٍ أكبر، كما فرض علينا بعدها قيدًا جديدًا، فقد صارت الشرفة ممنوعة علينا. لم يعترض أحد من العائلة على ما أقره أو راجعه فيه، وعندما ناشدت (راوية) (بابا) كي يتدخل ، أيد قرار (رضا)، وقال محذرًا :

" ليس مسموحًا للبنات الحديث مع الأولاد. حتى لو من بعيد ".

كان للعشق الممنوع لذة لا تقاوم. وراحت (راوية) تتحايل بشتى الطرق للتواصل مع (سامي) .

كنت قد انتهيت من استحمامي، وبدأت في تجفيف جسدي حين تناهى لأذني ثلاث طرقات خفيفة سريعة على باب الحمام، اتبعتها (راوية) بطرقتين أكثر بطئًا، ثم طرقت واحدة أخيرة. فتحت الباب وأنا فخورة بذاكرتي التي مازالت تتذكر إشارتنا السرية التي اخترعناها لمثل هذا اليوم .

دلفت (راوية) للداخل، وأعادت إغلاق الباب وهمست: "أنا بحاجة لمساعدتك يا ليلي ".

فَتحتُ صنبور المياه كي لا يسمع أي أحد ما نتحدث به ، بينما واصلت هي الهمس: أريدك أن تقفي لتراقبي المكان، وأنا أتحدث إلى (سامي). لقد فكرت في حيلة جديدة للتواصل معه ".

أرتني (راوية) ما بدا كتليفون بدائي مكون من كوبين ورقيين كبيرين متصلين من قاعدتيهما بخيط صيد طويل مصنوع من النايلون. تبعت (راوية) إلى الشرفة لنقوم بتجربة حية لاختراعها مع (سامي). ألقت (راوية) بواحد من

الأكواب نحوه. لكن الكوب كان خفيفًا للغاية ليكمل طريقه نحو شرفته. ركضت (راوية) بسرعة إلى داخل شقتنا وملأت الكوب برخامٍ التقطته من أحد غرف أخوتنا. ثم أغلقت غطاء الكوب بمنديل وثبتته بإحكام، قبل أن تلقيه نحو (سامي) مرةً أخرى. هذه المرة التقط (سامي) الكوب بكلتيّ يديه، ثم توارى خلف (درابزين) شرفته .

قبعت (راوية) على أرضية شرفتنا، وأمرتني أن أبقي نظري على الطريق؛ لأنبئها حين أرى (رضا، أو أحمد، أو بابا) يقتربون من بنايتنا .

رحت استمتع حينها بالاستماع إلى الحديث الحالم القائم بين (راوية، وسامي)، وعندما قالت (راوية) لـ(سامي) :" وحشتني أيضًا." هويت في الحب مع حبهم .

من سوء الحظ أنني استسلمت لأحلام يقظتي ونسيت واجبي في مراقبة المكان. وفجأة سمعت وقع أقدام خلفنا. لقد برز (أحمد) من العدم، ثم انقض علينا وهو يعض شفته السفلى في غيظ. قبض على ذراع (راوية) ونزع خيط الصيد من الكوب الورقي، ثم جر (راوية) نحو حجرته وأغلق الباب عليهما. دفعتني صرخات (راوية) للجري نحو عمتي (عقيلة) كي تنجدها. لكنها تجاهلت مناشدتي، وواصلت حياكة سترتها قائلة:

"دعيه يعلمها بعض الأدب. أختك فتاة مستهترة، وأنا لا أستطيع الدفاع عنها، وقد كانت تتحدث إلى أحد الأولاد ".

صدمتني كلمات عمتي، فعدت أجري ثانية نحو باب حجرة (أحمد). بالداخل كانت (راوية) تصرخ وتصيح، ووصل لسمعي صوت شجارهما. شلني الخوف حتى أنني بللت نفسي .

توقفت صرخات (راوية) بغتة، قبل أن تبرز من الحجرة بشعرٍ مبعثر، وعيون محمرة نصف مغلقة مليئة بالتحدي. كان وجهها محتقنًا، وكان خداها

obeikandi.com

دامين. لم تنطق بكلمة، وسارت خلفي حيث اتجهنا نحو حجرتنا. ذهبت مباشرةً للفراش وغطت وجهها بالغطاء. أغلقت الباب ثم زحفت بجوارها. مسحت دموعها ورحت أمسح بشرة وجهها بينما استلقت هي بلا حراك. مضى وقت طويل علينا هكذا حتى غابت في النوم .

هذه المرة لم تعاود (راوية) الكرة، ولم تدخل الشرفة لترى (سامي) مرةً أخرى .

obeikandl.com

(12)

في ذلك الصيف، وقبل أن أعلم بقرار زواجي، أخبرت (راوية) بشأن قصاصة الورق التي تحوي رقم هاتف (غسان). وفي ظهيرة أحد الأيام، وعندما خلا الشاطئ من المصطافين، أحضرت أنا و(راوية) الهاتف من حجرة والدينا إلى حجرتنا. لم يفلح القفل الذي وضعه (بابا) لمنع دوران القرص الدوار في إيقافنا. وقالت (راوية) بحسم:

" دعيني أريكِ ما اكتشفته ".

رفعت سماعة الهاتف، وتأكدت ثانية من الرقم في قصاصة الورق، ثم بدأت في الضغط بسرعة على زر إغلاق وفتح الخط، ستة ضغطات متوالية للرقم ستة، أربعة مرات للرقم أربعة وهكذا، حتى انتهت من طلب الرقم كله. وقالت بعدها بحماس:

" إنه يرن، والآن هاكِ السماعة ".

وضعت السماعة في يدي، ولوهلة بعدها فقدت رباطة جأشي، وعندما جاء صوت (غسان) عبر الهاتف وهو يهتف: " الو..الو.." كانت السماعة قد سقطت من يدي تقريبًا .

لا أذكر ما دار بيني وبين (غسان) من حديث، لكنني لم أجرؤ على إبقاء الاتصال لمدة أطول من دقيقتين أو ثلاث، خوفًا من أن تظهر (ماما، أو رضا، أو أحمد) بغتة، ويضبطني في هذا الموقف المريب. ومع ذلك نجح (غسان) في أن يسألني إن كان ممكنًا أن نتقابل على الشاطئ مرةً أخرى .

" نعم، .. أقصد، ربما يحدث، إنني أتوق لهذا ".

وفي أحد أيام الصيف السابق لهذا، وقبل أن نتجه للشاطئ قامت (راوية) بفرد شعري بمكواة الشعر. بدا شعري أكثر جمالًا، وقد خلا من التجاعيد.

obeikandl.com

وبمجرد وصولنا للشاطئ تسللنا إلى الحمام العمومي؛ حيث قامت (راوية) بتحديد عينيّ بقلم الكحل. وغمرت رموشي بال (ماسكره)، بينما تظاهرت (ماما) أنها لم تلحظ هذا. التوت ركبتي ولم أشأ أن يشعر أي أحد بألمي .

" هل أنت بخير، يا ليلى. أشعر وكأنك في عالم آخر ".

قالتها (ماما) وهي تجلس على كرسي الشاطئ؛ بينما كان إخوتي الصغار يندفعون نحو الموج .

" أنا بخير، يا ماما. لا تقلقي ".

مشيت أنا و(راوية) بطول الشاطئ. ونحن نتفحص كل شاب أسمر البشرة غزير شعر الصدر. بالطبع كنا نسير بعيدًا عنهم، وكنا ندير رؤوسنا للناحية الأخرى لو لاحظ أيهم نظراتنا. في النهاية وبعد أن درنا على أعقابنا لنعود إلى نقطة البداية لمحت (غسان). كان واقفًا في البحر، وقد غاصت قدمه في المياه حتى الركبة على بعد خمسين خطوة منا. وكانت آشعة الشمس تتوهج على بشرته المسفوعة. لوح بيده نحوي حين رآني. وارتفع صوته فوق صخب الشاطئ والبحر وقال : " هاي، ليلى ".

مسحت الشاطئ بعيني لأتأكد أن (ماما) لا ترانا. كانت ترتدي نظارة القراءة، وبدت منهمكة في مطالعة الجريدة. لكن أخويَّ الصغيرين (سمير، وهادي) كانا يقفان غير بعيد عن (غسان) وهما يقذفان بعضهما بالماء .

ورغم أنني لم أجرؤ على إجابة تحية (غسان) إلا أنني لوحت له بيدي مع ابتسامة كست وجهي. ابتسم لي (غسان) دون أن يقترب، وقد أدرك أن عليه ألا يقترب مني هذه المرة كما حدث في المرة الأولى .

اعتدت بعدها أن أبحث عنه في كل مرة نذهب فيها للشاطئ، وصرت أراه أربع مرات في أسبوع. بينما راح حبه ينمو في أعماقي. وفي البيت وحين كنت أغلق أجفاني قبل النوم، كنت أراه مرةً أخرى بعين خيالي، وهو واقف في المياه

الضحلة مبتسمًا و يدعوني باسمي. رحت أتخيل نفسي وأنا أقبل شفتيه وصدره، بل وجرؤت على تخيله معي في الفراش وهو يغمر شفتيَّ ونهديَّ وبطني بقبلاته. وعندما كنت أشعر بذلك الإحساس الغريب الذي يهيج أعضائي، كنت أفتح عينيَّ على الفور. لم يكن ممكنًا أن أعبث في جسدي بيدي، وقد أخبرتنا (ماما) أن هذا إثم .

منحني لقائي بـ(غسان) -مع ما تقوم به (راوية) من جهد لتجعلني أجمل- دفقة كبيرة من الثقة بالنفس. لكن داخل البيت لم يكن مسموحًا أن استخدم (المكياج) الذي تضعه لي (راوية) في الشاطئ. كنت أكتفي بلمسة خفيفة من أحمر الخد وأنا آمل ألا يلحظ (بابا) وجوده .

كانت (ماما) مسؤولة أمام (بابا) عن أي خطأ يحدث بالبيت. وراح يؤرقها طوال الوقت بتذمره الذي لا ينتهي. مبديًا استياءه من الطريقة التي تعالج بها شؤون البيت. وأمام تلك المعاملة السيئة كانت (ماما) تكتفي بالصمت .

وفي أحد الأيام، وعندما ضبط (بابا) مكواة الشعر معنا، أمر (ماما) أن تلحق به في حجرتهما. تبعناهما بفضول. قاد (أحمد، ورضا، وراوية) الموقف. بينما لحقتهم وأنا أمسك بيد (هالة، وسمير، وهادي) في أعقابنا. ضغطت أذني على باب حجرتهما، فسمعت صوت (ماما): " كلا وكلا، كلا أنا لن أعطيهما أبدًا مكواة الشعر دون إذنك ".

كانت كلمات (بابا) مجرد صراخ غير مفهوم على الجانب الآخر من الباب ، لكن ظل هناك نبرة اتهام في صوته. ثم ارتفع صوت (ماما) اليائس وهي تجيبه محتدة. وبعد ما بدا أنه وقت طويل، فتح الباب وظهرت (ماما). كان وجهها محمرًّا وكانت عيناها منتفختان .

" ماما، ماذا يحدث هناك؟ "

obeikandl.com

شرع (هادي) في البكاء، كنا نعلم أن (ماما) لن تخبرنا بشيء. اتجهت (ماما) نحو الصالة مترنحة وهي تقبض بيدها على صدرها، ثم فتحت فمها. لكن الصوت الوحيد الذي خرج من بين شفتيها، كان مجرد حشرجة مختنقة جافة. بدت وكأنها غير قادرة على التقاط أنفاسها. قدنا (ماما) نحو مقعد بجوار نافذة مفتوحة، بينما هرع (سمير) ليجلب لها كوبًا من الماء البارد . كانت عيناها جاحظتين ومزقت ياقة ثوبها لتفتحها. أحاطت حلقها المختنق بأحد كفيها، بينما التقطت كوب الماء باليد الأخرى وصبته فوق حمالة صدرها. وضعت رأسي فوق صدرها ورحت أبكي. حاول كل منا بطريقته التخفيف عنها؛ حيث احتضنها البعض. وقام البعض الآخر بالتهوية على جسدها. وبعد قليل قالت لنا:

" لا بأس بما حدث يا أحبائي، ما حدث ليس خطؤكم!"

كنت أكبر وأنا أرى مثل هذا الموقف يتكرر مع (ماما) مرارًا. وكأطفال لم نكن نعرف التأثير طويل المدى الذي تخلفه تلك الندوب –كما كنت أسميها أنا وراوية- لكننا كثيرًا ما شهدنا معاناة (ماما) حين كان (بابا) ينتهي منها بعد ساعات من الاستجواب الذي كان يخضعها له. تلك المرات لم تسبب لها عادةً نوبات من الاختناق ، لكن عندما كان يحدث هذا، كنا نصاب بالهلع من أجلها. شخصها طبيب العائلة أنها تمر بنوبات عصبية سببها التوتر.

وخلال ذلك، كان الرجل الذي يستحق اللوم على نوباتها تلك، قابعًا في حجرته، قاسيًا لا يعرف الرحمة.

الجزء الثاني: عرائس جميلة

obeikandl.com

obeikandl.com

(13)

صاحت (أم زبيدة، وكريمة) وهما تصفقان وتصدران ضجة مع فتحهما للمصاريع: "هيا استيقظا أيتها العرائس الجميلات، هيا يا عرايس!"

حدقت فيهما بعينين نصف مغمضتين وسحبت الوسادة على وجهي، فيما سمعت (راوية) تأخذ نفسًا عميقًا من جانب سريرها وتصرخ ساخطة: "اخرجا!"

مشاركة (راوية) في غضبها، لم أبدي أي رغبة في الاستيقاظ أو التسامح مع الخادمتين اللتين اقتحمتا غرفتنا دون استئذان.

غير أن (كريمة، وأم زبيدة) تجاهلتا اعتراضاتنا وأطلقتا زغرودة مدوية. أخذت أصواتهما تعلو وتعلو، حتى أعلنت (أم زبيدة) بكل سعادة أن العريسان سيأتيان لزيارتنا مساء يوم الثلاثاء، قبل يومين من إتمام الخطبة.

دخلت (ماما) وعلى وجهها تلك الابتسامة التي ترسمها عندما تضطر إلى الترحيب بزملاء أبي وزوجاتهم على العشاء. ثم جلست، ومع كل رشفة من كوبها الصغير، كانت تبتسم وتصدر صوتًا ينم عن الارتياح.

كانت تشرب الشاي الأسود عدة مرات في اليوم، ولا تستطيع تنفيذ أي مهمة قبل أن (توزن راسها)، على حد تعبيرها. ووزن رأس (ماما) يعني وضوح أفكارها.

جلست أنا و(راوية)، نظرنا إلى بعضنا البعض، ثم تحولنا إلى (ماما).

" ماما، ما هذا؟" أشارت (راوية) إلى الخادمتين.

وضعت (ماما) كوب الشاي على (الكومود) وشرعت تفك ضفائر شعري، قائلة: "أبوك دعا العرسان، وهم قادمون."

فعاجلتها (راوية) وعيناها متسعتان عن آخرهما من فرط الغضب: "لماذا يا ماما، ليعاينوا البضاعة؟"

فشهقت بدوري مذعورة: "لماذا يا ماما؟ كنت أعتقد أن موعد الحفل قد حُدد ليكون يوم الخميس."

أمرت (ماما) الخادمتين بمغادرة الغرفة.

وقالت (كريمة) قبل مغادرتها: "الحلاوة جاهزة يا سيدتي."

في الماضي، عندما كانت (كريمة) تطبخ هذا المزيج المصنوع من الماء والسكر والليمون، كنا نحن الأطفال نتقافز حولها في المطبخ؛ محاولين تذوق طعمه قبل أن تعطيه لـ(ماما، وفريدة) لإزالة شعر الساقين والإبطين.

ظهر (بابا) عند الباب ترتسم على وجهه نظرة صارمة، وأصدر أوامره وهو ينظر إليَّ أنا و(راوية) نظرات باردة: "ممنوع إزالة الشعر، مفهوم؟"

لم تواتني الشجاعة للرد عليه، فيما كانت عيناي تشيان بالاستياء الذي لم أستطع التلفظ به؛ فقد روعني غضب (بابا)، لكنه لم يكن مفاجأة لي، فلطالما نظر إلينا أبونا نظرة ملؤها الغضب بطريقة لا أجد لها تفسيرًا.

دخل الغرفة وجلس على الكرسي المقابل لنا، فسألته (راوية) وهي ترمي بكتفيها إلى الخلف:

"ماذا عن طلاء الأظافر؟"

أبدت (راوية) لهفة لبدء ممارسة بعض الحرية، لأنها ستتزوج قانونًا في غضون بضعة أيام، لكن (بابا) لم يكن مستعدًّا بعد للتخلي عن قبضته السلطوية، فشرع يسمعنا محاضرة عن مساوئ مستحضرات التجميل في حين كان يرمق (ماما) بنظرات غاضبة من طرف عينيه بين الحين والآخر، وهي الطريقة التي دأب على استخدامها لإسكاتها. ظننت حينها أننا قد كبرنا وعلى وشك الزواج، وبالتالي ستقول (ماما) شيئًا دفاعًا عنا. لكنها لم تفعل.

"لقد خلق الله الأظافر بهذا اللون. ولو أرادها باللون الأحمر، لجعلها حمراء." أفرد (بابا) إصبعه السبابة وفرك ظفره، ثم واجه المرآة مردفًا: "أحمر الشفاه ممنوع أيضًا. لقد اختار الله هذا اللون للشفاه." وأشار إلى شفته السفلى. "لماذا تريدون تغييره؟ لو أن الله أرادها باللون الأزرق أو الأخضر أو الأصفر، لخلقها بهذا اللون." ثم لمس الجفن العلوي من عينه ورفع حاجبيه لزيادة الإيضاح، قائلًا: "لو أن الله أراد هذا أزرق أو أخضر أو أصفر اللون، لخلقه بهذا اللون."

اقتربت بفمي من أذن (ماما) وهمست لها: "اسأليه إن كان ممكنًا أن أقص شعري عند الكوافير." على أمل أن يسمح لنا إتمام الخطبة على الأقل ببعض الأشياء التي لم نكن نستطيع فعلها من قبل.

أومأت (ماما)، وقالت في صوت هادئ: "كمال، ماذا عن قص (ليلى) لشعرها؟"

"لا! لقد خلق الله شعر المرأة طويلًا، والرجل لا يحب زوجته قصيرة الشعر." فبادرته (راوية) متسائلة:

"سبحان الله. قل لي، من فضلك، هل ولدنا فقط لإرضاء الرجال؟"

قاطعها (بابا): "ماذا تقولين؟" لكنني كنت متأكدة أنه سمعها، وكنت أظن أنه تعب -أيضًا- من نقده المستمر.

تمتمت (راوية): "لا شيء." وأشاحت بعينيها نحو الشرفة.

بخيبة أمل، بقيت أنا و(راوية) صامتتين حتى ينتهي من إملاء تعليماته وفرض قيوده. وعندما غادر، تبعته (ماما)، ولكنني ناديت عليها، فعادت.

سألتها: "ماما، لماذا يأتون الليلة؟"

قالت بصوتٍ مكتئب: "لرؤيتك أنت وأختك".

"لماذا يا ماما؟ ألم يبلغهما (بابا) بموافقتنا بالفعل ".

"وفقًا للإسلام، يجب أن يرى كل منكما الآخر قبل إتمام الخطبة". بدت (ماما) غير مقتنعة، لا يبدو أنها تتفق تمامًا مع هذه العملية.

كنت أعرف أن الإسلام يفترض رؤية الفتاة للمتقدم لخطبتها قبل موافقة الأب.

سألتها: "ماذا لو لم يعجبني فاروق؟ هل سيتبع (بابا) قواعد الإسلام، والتي تنص على عدم جواز إجبار الفتاة على الزواج من رجل لا تريده؟"

لم ترد (ماما). شعرت بأنني أشبه بالحمل البائس الذي نضحي به كل عام بعد موسم الحج. لقد وقع الاختيار عليَّ أنا و(راوية)، ونحن في انتظار اقتيادنا إلى غايتنا النهائية، مستسلمتين تمامًا، إلى المذبح.

"ماذا لو رفضت لقاء فاروق، ماما؟"

"إياكِ أن تحاولي." حذرتني (ماما)، وخرجت. تركتني غارقة في بحور اليأس.

ولكن (راوية) أعادت لي الأمل بعد أن قالت: "أعتقد أنكِ ستتمكني من رؤية (غسان) عما قريب."

رسمت على وجهي تلك الابتسامة التي أرسمها للتظاهر بالموافقة على ما تقوله (راوية) لي، رغم أنني لم أكن أتظاهر أحيانًا.

"كوني جادة يا راوية. من الآن فصاعدًا، لن تعود حياتنا كما كانت. قد تكونين مستعدة، ولكنني لست مستعدة للزواج، وأخطط لإفشال تلك الزيجة. لن أستسلم أبدًا."

"أنت مولعة بالدراما يا ليلى. قلتِ لي، فيمَ تريدين التخصص؟"

"الصحافة!" قلتها، وليس لي مزاج للمزاح، ثم أضفت: "كم مرة يجب أن أذكرك؟"

ابتسمت (راوية) ابتسامة عريضة، قائلة: "هل أنت متأكدة؟ هل فكرت يومًا في أن تصبحي ممثلة؟"

قاطعتها: "بصراحة، لا أفهم كيف تتحدثين بهذا المزاج الرائق."

عادت (ماما) ودعتنا إلى حسن التعاون وعدم التسبب في مشاكل. أرادت تهدئة الجو، وحاولت أن تبدو مبتهجة. وراحت تجول بعينيها يمينًا ويسارًا بين نظراتي المتسائلة ونظرات أختي المفعمة بروح التحدي.

ثم قالت: "لقد أعطى أبوك كلمة شرف، وقرأ الفاتحة مع الناس. ولا يوجد شيء يمكنك القيام به لوقف هذا الزواج يا ليلى."

علقت (راوية)، متسائلة: "هل قلت لـ(بابا) أن (ليلى) تريد إنهاء المدرسة لتصبح صحفية مشهورة؟"

فركت (ماما) ركبتها.

"ما الخطب يا ماما؟" سألتها: "هل فاروق ثري؟ هل نحن بحاجة إلى ماله؟"

مشت مبتعدة في محاولة فاشلة لإخفاء عينيها الدامعتين، فتوسلت إليها:

"أجيبيني يا ماما. قفي بجانبي، من فضلك."

أشاحت (ماما) بوجهها إلى الوراء، وعيناها تسبحان في بركة من الدموع، قائلة: "اعذريني يا حبيبتي. لو كان في مقدوري لفعلت."

كنت أصدق (ماما)؛ فهي لن تعارض أوامر أبينا، لا سيما في مسألة خطيرة مثل زواجنا، مما يعني أنه ليس لديّ أي خيار سوى أن أنصاع لرغبات والدي؛ بأن أقابل زوج المستقبل وأجعلهم جميعًا سعداء.

"هيا يا حبيبتيَّ!" هللت (فريدة) و(طنط عقيلة) وهما تهرعان إلى غرفة النوم. "لقد حان وقت الاستعداد. دعونا نبدأ بحمامٍ جيد"!

باتت غرفة نومنا أشبه بسوق ومرتعًا للجميع. يقدمون لنا الاقتراحات ويملون علينا الأوامر، فيما راحت الخادمات تشدو بأغنية الزفاف الشهيرة (ماتزوئيني يا ماما أوام يا ماما). ومثل كل فتاة شابة تستمتع بتكرار تلك الأغنية، كنت أحلم باليوم الذي ستزين (ماما) وجهي بالماكياج، كما تقول

كلمات الأغنية، وأستعد لحفل زفافي. لكن كلمات الأغنية لم تملأني بالفرح في هذا اليوم، حتى أن أصوات النساء بدت لي أشبه بنعيق الغربان.

كنت أنا و(راوية) في حالة ذهول ممتنعتين عن الكلام، كنا كمن يتفرج على طقس قبلي قبل ذبح الأضحية .

هتفت (فريدة وطنط عقيلة) وهما تصحباننا إلى الحمام، وكل منهما يحمل منشفة بيضاء كبيرة. انضمت أمي و(أم زبيدة، وكريمة) إلى الموكب. عندما وصلنا هناك، تركوني وحدي مع (فريدة) وعمتي.

تلاشت أصواتهم بعيدًا عندما بدأت طقوس الاستحمام، وأخذ الماء البارد ينساب فوق رأسي. وقفت عارية في حوض الاستحمام، متنازلة عن ملكية بشرتي لعمتي وابنتها، بعد أن لوح كل منهما ب(لوفة) جديدة. عادة ما كان يتم تليين (اللوفة) الجديدة في الماء لليلة كاملة بغرض تنعيمها، ولكن هذه كانت خشنة كما لو كانت صنفرة.

راحت (فريدة وعمتي عقيلة) تقلبانني بين أيديهما كما لو كنت دمية لا حول لها ولا قوة، وهما تعرضان بشرتي لأسلحة الجلخ الخاصة بهما. كانتا تدعكان جسمي كما لو كنت قطعة قديمة من الجلد كلفوهم بتنظيفها وتلميعها. وعندما حكت (فريدة) وجهي ب(اللوفة)، لم أستطع الصبر فخرجت عن طوري صارخة في غيظ: "أنت تجرحينني."

"الصبر يا حبيبتي". ولوحت ب (اللوفة) مردفة: "هذا سينعم بشرتك."

"أنا أكرهه" أجهشت بالبكاء. "لا أريد الزواج منه."

"لا، يا ليلى يا حبيبتي، لا تقولي هذا." نهتني (طنط عقيلة): "فاروق نفسه لا يستطيع أن يرفض هذا الزواج. اقبلي قسمتك ونصيبك."

"لقد قلت لي ذات مرة: إن القسمة والنصيب بيد الله، وليس والدي." مسحت الصابون من عيني.

لم ترد واستمرت في دعك جلدي ب(اللوفة). قام والدي باستبعاد (ماما) من طقوس الاستعداد تلك؛ عقابًا لها على مناقشتها قراره بشأن زواجي، وكلف عمتي وابنتها بإعداد كل شيء، بما في ذلك شراء فستاني. اشتروا لي فستانًا من الحرير الأزرق الفاتح بأكمام طويلة يشبه الزي المدرسي.

بينما يلبسونني الفستان؛ لاحظت أن (راوية) مختفية عن الأنظار، فتساءلت ترى أين ذهبت؟ وأين تتجهز؟ أخذت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ثم جلست على حافة سريرنا وهززت نفسي لتخفيف الألم الذي بدأت أشعر به يجتاح معدتي.

عندما بدا لي أن الاهتزاز لا يحسن حالتي، ركضت لـ(ماما). وجدتها تجلس وحدها في غرفة التليفزيون، مطرقة برأسها حزينة. ولكن عندما رأتني؛ ابتسمت لي ابتسامة مفعمة بالحب، فقلت لها: ماما، ألن تقابل (راوية) زوج المستقبل هذا المساء؟"

"لا." أشاحت بوجهها إلى الزهور الميتة في الفازة الكريستاليه الرابضة فوق طاولة التلفزيون.

جثوت أمامها على ركبتي سائلة: "هل غير جمال رأيه؟"

"لا. لقد طلب تأجيل الزيارة إلى يومٍ لاحق."

"لكن (راوية) أكبر مني يا ماما. أليس من المفروض أن تكون الأولى؟"

"إنه قرار أبيك ".

صمت كلانا. أنا على يقين من أنها تخفي عني شيئًا، وهي تعلم أنه لن يهدأ لي بال حتى تخبرني به. ماما، هل تحبيني؟"

أجابت بسرعة: "ليلى! أحبك أكثر من الحياة نفسها."

"إذًا، قولي لي ما الذي تكتمينه هنا." وأشرت إلى صدرها.

"لا يا ماما!" جاء صوت (راوية) كالرعد المدوي في الغرفة. وكانت قد دخلت الغرفة بهدوء ووقفت ورائي. "دعيني أخبر ليلى بنفسي." أخذتني (راوية) إلى غرفتنا وعانقتني. لفت ذراعيها بإحكام حول خصري. "هذا هو يومك يا ليلى، يومك وحدك. إن جمال يرفض زيارتنا في نفس اليوم الذي سيزورنا فيه فاروق."

بحثت في عينيها علّني أجد تفسيرًا. فأكملت: " جمال يريد أن يزورنا ويقيم الحفل في يومٍ آخر لا يزاحمه فيه أحد. لا يمكننا أن نلومه في ذلك."

بطريقةٍ أو بأخرى، لمست شيئًا في صوتها، كانت تحاول التمويه عليه بابتسامة، فقالت بحزم: "ركزي على نفسك. ليلى. وتذكري، نحن نخطط لمستقبل مختلف دون فاروق وجمال."

أعلنت كلمات (راوية) وفاة زواجي قبل أن يبدأ. حاولت تجاهل الشعور المشؤوم، على الرغم من معرفة أن (راوية) تخفي عني شيئًا. اغرورقت عيناي بدموع الشك. ولكن مع تذكيرها لي بخططنا المستقبلية، سرعان ما استجمعت شتات نفسي.

"لا أريد أن أرى الدموع في عينيك الحمراوتين بالفعل." قبلتني (راوية) على جبيني وتفرست في وجهي، مردفة: "ماذا حدث لبشرتك؟ إنها ملتهبة."

إنها اللوفة."

فتحت (راوية) درج (الكومود)، وأخرجت علبة كريم نيفيا، ودهنت وجهي ببعضه، قائلة: "هذا سيداويها، والآن انتظريني هنا. سأعود" وعادت بطبق صغير عليه بضع شرائح من الخيار. "استلقي يا ليلى."

استلقيت على السرير مطيعة أوامرها. وضعت (راوية) شرائح الخيار على جفوني جيدًا. بقي هكذا لمدة نصف ساعة. وغمغمت: "سوف تبدو عيناك طبيعيتين مرة أخرى."

أمسكت يد (راوية) بقوة للحظة. تدفق كل ما أحتاجه من حب من يدها وسرى في جسمي كله. وبيدها الأخرى منديل. مسحت (راوية) دموعي قبل أن تبلل الوسادة. ظللنا صامتتين لفترة من الوقت. كنت أسمع أنفاسها وشعرت بأسفها على حالي. لم تدخر (راوية، وفريدة) وسعًا لجعلي أشعر بالسعادة. اغتنمتا هذه الفرصة للقيام بتلك الأمور التي لا يسمح لنا بالقيام بها. تحديا قواعد والدي بخصوص (الماكياج). أخفوا آثار الأضرار الناجمة عن اللوفة تحت طبقات من كريم الأساس والمساحيق. كحلوا عينيّ وأعادوا رسم محيط حواجبي. حتى أنهم رسموا وحمة على خدي الأيمن، علامة على الجمال، في رأيهم. صففت (راوية) شعري بتسريحة (شينيون). عندما نظرت في المرآة، لم أصدق نفسي. بدت الفتاة في المرآة مضحكة جدًّا. جعلتني أبتسم، حتى حينما شوشت دموعي صورتها وأفسدت مكياجها. مسحت الدموع من حول عينيّ بمنشفة. جلست على سريري، في انتظار لقاء فاروق. انضمت لي (هالة). دخل كلٌّ من (سمير وهادي) وجلسا بهدوء إلى جانبي. وقف (سمير) وعانقني وعيناه مغرورقتان بالدموع. ثم غمغم في أسى: "لو أنني كنت أكبر سنًّا لأنقذتك من هذه الخطبة."

مسحت دموعه بأناملي، قائلة: "لا تقلق عليَّ يا أخي الصغير. أستطيع أن أعتني بنفسي."

دخلت (راوية) وطلبت من شقيقينا المغادرة. "ليلى، تذكري، كل هذا شيء مؤقت."

لم أكن أدري؛ كيف أن عقدًا قانونيًّا يمكن أن يكون مؤقتًا، ولكنني أومأت موافقة على أية حال.

(14)

في السابعة مساء ذلك اليوم؛ رن جرس الباب. وبعد لحظة؛ سمعت صوت والدي يناديني، فمشيت أجر الخطى في الردهة للقاء زوج المستقبل. تجمدت خارج الصالون، حيث كانوا ينتظرون، ثم سمعت صوت (راوية) ورائي تقول لي مشجعة: "هيا ادخلي".

رحت أبحثث بيدي عنها، فأمسكت (راوية) بها وضغطت عليها، ثم ربتت على ظهري. دخلت الصالون ورأسي منكسة، وقلبي ينبض بقوة. في تلك اللحظة؛ توقفت عن محاولة إقناع نفسي بأن كل ذلك مجرد كابوس. بدأ الواقع يتكشف أمامي، ولم أعد أعرف كيف ومتى بدأت المحنةوأين ومتى ستنتهي إن الذهاب للقاء (فاروق) كان بداية سقوطي في بئرلا قرارله.

حدقت فيَّ أربع عيون. تعثرت واصطدمت ركبتي برخامة الطاولة الموضوعة في منتصف الغرفة. كتم (فاروق) صرخة مفاجئة، ومد يده مترددًا لمساعدتي، ولكنها جمدت مكانها قبل أن تمسني. سكّنت قلقي بنفس عميق، وفركت ركبتي.

لم يكن (فاروق) زوجي شرعًا حتى اللحظة وربما لهذا تراجع وكان يعرف أنه لا يستطيع لمس أي جزء من جسمي، باستثناء مصافحتي يدًا بيد.

فاحت رائحة (كولونيا أولد سبايس أفتر شيف) الثقيلة التي يضعها (فاروق) وطغت على عطر البراعم الطازجة على الطاولات الجانبية. حاولت جاهدة السيطرة على نفسي، وأنا أواجه سجانيَّ الاثنين.

مد (فاروق) يده. سرت رعدةً باردة في جسدي؛ عندما رفعت رأسي ونظرت إلى وجهه. حدقت فيه بنظرة خالية من المشاعر، ثم وجهت نظري إلى صدره، غيرمتأكدة من كيفية التصرف حياله وحده، أوفي وجود والدي.

كان (فاروق) شخصًا غريبًا عليّ، خاصة وأنه لم يسبق لي الاختلاط بأي رجال من خارج أسرتي، ولم أكن أرغب أو أرتاح للاختلاط بهم. بدا (فاروق) في سن أبي تقريبًا. ولكي أهرب من هذا الجو الخانق، رحت أفكرت في (غسان) وأسترخي.

سلم عليّ (فاروق) وهو يبتسم، قائلًا: "أهلًا، أهلًا!" اعتصرت يده أصابعي.

سحبت يدي ومسحتها على فستاني. جلس (فاروق) وخيلاء الانتصار بادية على ملامحه. على الأريكة واضعًا ذراعه على الإطار الخشبي المذهب. هبت نسمة صيفية لطيفة عبر النوافذ، ولكنها لم توقف تصبب العرق من جبينه، كما فشل الضوء الساطع من مصابيح (الأباجورات) النحاسية في تفتيح لون حلته الرمادية، ذلك اللون الذي لم أحبه أبدًا.

أخذت يداي تجوسان هنا وهناك دون أن يقر لهما قرار، ولم أستطع أن أحدد أين أضعهما؟

أشار لي أبي أن أجلس على كرسي إلى جانبه.

"إذًا، كنت تقول لي إن ميزانية الأسمنت بدأت تنفد." التقط (بابا) طرف الحديث مع (فاروق).

بقي (فاروق) صامتًا. كان يضع ساقًا على ساق، فأنزلها، ثم وضعها عليها مرةً أخرى. راقبت حركات (فاروق) البلهاء من خلال المرآة المقابلة لنا. عندما تكلم (فاروق) متلعثمًا، أبعدت نظرتي الفضولية بعيدًا عنه، وعاودت النظر إلى الأرض. ملأت الزقزقة المتقطعة للعصافير في الخارج حيز الغرفة؛ عندما توقف (بابا، وفاروق) عن الحديث.

قال (بابا) في نهاية المطاف: "قدم طلبًا في الغد، فهذا المشروع متأخر ثلاثة أشهر بالفعل".

ارتحت عندما تحول تركيزهم مني لينصب على العمل، وسرحت بخاطري بعيدًا؛ مفكرة في كلمات (غسان) الحلوة.

أعادني صوت (فاروق) القادم من بعيد إلى عالمهم من جديد: "سأفعل." قالها، وهو يرمش بعينيه مرارًا وتكرارًا. وشأنه شأننا جميعًا، كان يمتثل لكل طلبات والدي، الأمر الذي جعلني أكرهه أكثر وأكثر.

رفعت رأسي ببطء ونظرت في المرآة، فرأيت صورة جانبية لوجه (فاروق)، رأسه تكتسي بشعرٍ مرسل فاحم السواد، بخلاف معظم المصريين الذين يتصفون بالشعر المجعد، ومفتقرًا للخصلات الذهبية كما في شعر (غسان).

من الواضح أن (فاروق) لم يكن يدرك أنني أستطيع رؤية كل خطوة يقوم بها في المرآة، عندما اختطف بضع نظرات إلى وجهي بطرف عينيه، فيما رحت أفحصه من منبت شعره حتى أخمص قدميه. كانت أرنبة أنفه الطويل معقوفة لأسفل، وتغطي جزءًا من شاربه الأشبه بسلك. وكانت الفجوة بين شفتيه البارزتين تتيح لي إلقاء نظرة خاطفة على أسنانه الصفراء الصغيرة. كانت آذان (فاروق) صغيرة مقارنة برأسه الكبير، أما عيناه الخرزيتان، تحت حواجبه الكثيفة، فكانت غير مرئية تقريبًا؛ فبدا لي وجهه غير متسق، ومنفرًا.

كانت سترة (فاروق) الرمادية أشبه بتلك التي يرتديها أبي في مواقع البناء. أصدرت حكمي ضده بالكراهية لسببين: أولًا، لتعاونه مع أبي. وثانيًا، لمظهره غير الجذاب؛ فارتاح ضميري.

لم يكن حبي لـ(غسان) ليتغير حتى لو أن حكمي على (فاروق) كان أخف وطأة. وما كنت لأقضي بقية حياتي مع (فاروق) مهما كانت الظروف.

كنت أعرف ما أريد وكيفية تحقيق ذلك بمفردي.

وبينما كنت مفعمة فى تخطيط مستقبلي، رأيت (فاروق) يثبت نظره عليَّ لفتراتٍ أطول، وتساءلت؛ عما إذا كان يستطيع قراءة ما يدور في عقلي. كنت أريد أن أصرخ، أن أقول له؛ إنني لا أريد الزواج منه.

شعرت وأنا أجلس بجانب (بابا) كما لو كنت أَمَةً مطيعة، غير قادرة على التعبير عما يجيش بصدري. حينما عاودت النظر مجددًا إلى السجادة الفارسية تحت قدمي، سبحت عيني في دموع اليأس.

ظهرت (كريمة) تحمل (صينية) عليها ثلاثة أكواب مملوءة بالشربات. مسحت دموعى، آملة أن أحدًا لم يراني وأنا أبكي.

مد (بابا، وفاروق) أيديهما لأكوابهما. أما أنا فلم أفعل. طلب مني (بابا) مغادرة الغرفة. هرعت للخروج من الصالون إلى الردهة وأنا أشعر بالارتياح، حيث كانت (راوية) تنتظرني.

همست لي: "تبدين مروّعة، ماذا حدث؟ لم تحببه. أستطيع أن أخمن. جيد، نحن نتشارك نفس المصير." تبعتني عائدتين إلى الغرفة، حيث جلستُ على حافة سريرنا في حين أخذت (راوية) تزيل دبابيس الشعر من تسريحة (الشينيون)، قائلة: "تبدين أفضل بالضفائر." قمت بإبعاد يدها بلطف، فقالت لي:

"قولي لي ما الذي يدور في ذهنك؟"

"ما الذي يدور في ذهني يا راوية؟! حياتي.. ها أنا لم أتجاوز الخامسة عشرة، وأفكر في الطلاق قبل أن أتزوج حتى".

أخذتني (راوية) بين ذراعيها."بالمناسبة، لقد نسيت أن أقول لك؛ طلب (جمال) من (ماما) إبعادي عن أي مناسبات اجتماعية مع (فاروق) بعد عقد قرانك".

"لماذا؟" جفلت برأسي إلى الوراء، ورحت أبحث في عينيها عن إجابة.

" بسبب جرائم حماك. طلب (بابا) من (جمال) إعادة التفكير في الأمر، ولكن (جمال) رفض".

"ماذا تقصدين؟ أي جرائم؟"

"استاء (بابا) من قرار جمال، حتى إنه سألني ما إذا كنت أرغب في الزواج من (جمال). كان يمكنني أن أطلب منه اللا يعقد قرانى، لكني سعيدة بأن (بابا) لا يحب (جمال). أريد الرجل الذي يستمع لي وليس إلى أبي".

رحبت (راوية) بالعداء بين أبينا و(جمال). أرادت أن يكون (جمال) مختلفًا عن أبينا قدر الإمكان، وأن يمارس حقوقه الشرعية كزوج دون تأثير (بابا).

بدت راوية منهكة مثلي. "دعينا ننام الآن، ويمكن أن نتحدث أكثر غدًا. ربما يمكنني العثور على حل لك".

"من الآن فصاعدًا، سيكون غدي كأمسي، لا فرق".

في السرير، أعطيتها ظهري. لفت (راوية) ذراعيها حول خصري بحنان، ولكنني لم أستطع النوم. قفزت من السرير، وأنرت ضوء المصابيح، لبست نظارتي، وجلست أمام المرآة.

وقلت لها متوسلة: "هل أنا قبيحة فعلًا يا راوية؟ أخبريني الحقيقة: لا تكذبي! هل لهذا السبب يسرع (بابا) في تزويجي من أول رجل يطلب يدي؟"

اقتربت (راوية) مني وخلعت نظارتي، قائلة: "عندما تخلعينها تبدين أجمل بكثير." ثم انتقلت إلى أبعد زاوية من الغرفة عن يميني، ورفعت ثلاثة أصابع، وسألتني: "كم عدد أصابعي تلك؟"

"ثلاثة".

"إذًا، تستطيعين أن تري. فلماذا تلبسين تلك النظارات؟"

"أردت أن أبدو مثلك يا راوية! عندما لبستِ النظارات، قلت لـ(بابا) إنني لا أستطيع أن أرى الإبرة على السجادة. كذبت. ظننت أنني لو لبست نظارات، فسأبدو جميلة في عين أبي مثلك".

"كنت أشك في الأمر من البداية، ولكنك ستضعفين بصرك إذا استمررت في لبسها، فضلًا عن أنك جميلة جدًّا في كل الأحوال، بالنظارات أو بدونها." بدت صادقة. "أتذكرين من أعجب بك على الشاطئ، غسان؟ لقد أحبك من دون نظارتك. هل نسيت أن (غسان) اختارك أنت وليس أنا؟ انظري." وأشارت لي أن أقف بجانبها أمام المرآة. "أنت أطول مني وجميلة جدًّا. هل تعتقدين أنك إذا كنت قبيحة، فهل كان (غسان) سيعطيك رقم هاتفه؟"

"لا".

"إذًا، كفي عن هذا الهراء! اذهبي واغسلي وجهك وتذكري أنني مقبلة على الزواج أيضًا. ولست وحدك من يريدون تزويجها".

تعانقنا.

obeikandl.com

(15)

كنت أنا و(راوية) نخشى التنصت على محادثات أبي وأمي. كنا نعتقد أن أبانا سيرانا أو يعرف بطريقة ما أننا كنا نتنصت على محادثاته الخاصة مع أمي.

في مساء ذلك اليوم، وأنا خارجة من الحمام، سمعت أصواتًا مدوية قادمة من غرفتهما. بدت (ماما) غاضبة. تسللتُ إلى الردهة وأخذت نفسًا عميقًا لما وقفت أمام الباب، ورحت أستمع، رغم أنني أعرف أنني يمكن أن أضبط متلبسة بالتنصت، إلا أنه كان يراودني شعور قوي بأن حديثهما الصاخب ذاك له علاقة بعقد قراني، وهكذا قامرت بتحمل مخاطر التنصت.

"لن تقولي لليلى، وهذا أمر." وصلني كلام (بابا) بصوتٍ عالٍ وواضح.

تسارعت دقات قلبي بعنف.

"هل أنت تخشى رد فعل والد فاروق؟" كانت كلمات (ماما) أقرب إلى الهمس، ولكني سمعتها.

ارتعشت وواصلت الاستماع.

"فاروق ليس والده".

"أنا لا أستطيع أن أواجه ليلى. يمكنك أن تخبرها بنفسك." كان صوتها حازمًا وعاليًا.

جرى الدم بطيئًا وثقيلًا في عروقي كحممٍ بركانية، وشعرت بأحشائي تذوب من الداخل. وضعت يدي على مقبض الباب، ولكني توقفت عندما سمعت صوت أبي يقول: "لا. يجب أن تعرف (ليلى) شيئًا قبل عقد قرانها. هذا أمر، وإلا سأطلقك بالثلاثة".

ساحت الأرض تحت قدمي. أطلقك بالثلاثة. تعني الطلاق ثلاث مرات متتاليات. طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه. وللرجال في ثقافتنا حق إلهي في التلفظ بكلمة (الطلاق) شفهيًّا ليصير طلاقًا صحيحًا من الناحية القانونية.

تجمدت في مكاني، غير راغبة في اقتحام الغرفة ومواجهتهما بما سمعت للتو، خشية أبي يطلق ماما.

غطيت فمي بيدي، وأخرى أمسكت معصمي. سحبتني (راوية) إلى غرفتنا، وأغلقت الباب بهدوء، قائلة: "منذ متى تتنصتين؟ ما الذي سمعتيه؟"

قلت بصوتٍ متهدج: "إنه حماي. بابا يخفي عني شيئًا".

وبعد بضع دقائق، جاءت (ماما). إنها تعرفني جيدًا. تفرست في وجهي، وأدركت أن شيئًا خطيرًا قد هزني، فاستدارت على الفور لمغادرة الغرفة.

"ماما! أريد أن أتحدث معك".

جلست على السرير، وطلبت من (كريمة) إعداد إبريق شاي. "ليلى، يا حبيبتي، لا أريدك أن تقلقي من أي شيء." تحدثت (ماما) بصوت كله حنان. "أعرف أنكِ لا تريدين أن تتزوجي، وحاولت أن أقنع والدك بذلك، لكنك تعرفين حدودي".

"أنا أصدقك يا ماما." قلتها بابتسامة متكلفة، ثم أردفت: "هل وقعتِ في حب (بابا) قبل أن تتزوجيه؟"

يبدو أن سؤالي باغت (ماما)، فتوقفت، وأخذت تفرك ركبتها.

ظهرت (كريمة) تحمل إبريقًا من الشاي على (صينية). وضعتها (ماما) على حجرها، وملأت كوبها بالشاي، ثم أضافت ثلاثة مكعبات من السكر، وراحت تحرك وتحرك وتحرك المشروب الساخن، حتى بادرتها (راوية)، قائلة:

"لقد ذابت المكعبات يا ماما!"

قالت (ماما) أخيرًا: "نعم، لقد أحببته. أحببته كثيرًا." أخذت رشفة من الشاي. "كنت أنا وأبوك نسكن في نفس العمارة التي يمتلكها والديه. كان حبنا نقيًّا وبريئًا، لكنه لم يتحدث معي. عادة ما كنا نلتقي مصادفة، كما تعرفين، على السلم. كان يطاردني بعينيه فقط." تورد وجه (ماما).

كنت أنا و(راوية) قد سمعنا تلك القصة مرات عديدة.

فعاجلتها (راوية)، مكملة: "نعم يا ماما، ولم تستطيعي التحدث معه، ولكنك قدمت له الكثير من الابتسامات؛ لأنه كان وسيمًا وفتى أحلام كل فتيات الحي، لكنه اختارك أنت لتكوني زوجته".

"إذًا، لقد وقعت أنت و(بابا) في الحب يا (ماما)، أليس كذلك؟" قلتها؛ حتى لأتيح لها وقتًا للتفكير.

"نعم، بالطبع"!

"فلماذا تنكرون علينا هذا الحب،إذًا؟"

"الحب سيأتي مع الوقت".

"هل تريدين حقًّا أن أتزوج هذا الرجل يا ماما؟"

"أنا لا أريد يا ابنتي، وإنما هو قرار أبيك".

أخذت المصحف من على (الكومود) وأمسكته بين يدي بكل حنان واحترام، قائلة: "أريدك أن تقسمي على هذا المصحف؛ أنكِ ستقولين لي الحقيقة عن جميع الأسئلة التي سأسألها لكِ الآن. ورجاء، ماما. لا أريد أعذار." ثم أردفت في تحدٍّ: "أنا أعرف أنك لا تذهبين إلى الفراش إلا بعد الوضوء، لذلك فأنت طاهرة وعلى استعداد للحلف على القرآن".

وافقت (ماما)، ولكن ليس قبل أن تحذرنا من أنه إذا كانت أسئلتنا بخصوص (فاروق)، فلن تجيب عنها.

فقلنا بصوتٍ واحد: "لمَ لا؟"

"لقد أوضح لي أبوكم أنني إذا قلت لكم شيئًا فسوف يطلقني." بدت (ماما) جادة، فأعدت المصحف إلى مكانه مرةً أخرى.

"حسنًا، كما تشائين".

سألتها (راوية): "هل (طنط عقيلة) تعرف شيئًا عن والد (فاروق)؟"

اتسعت عينا (ماما)، لكنها استجمعت شتات نفسها بسرعة، قائلة: "نعم بالطبع. عمتك تعرف كل شيء. ربما كان ما تعرفه (عقيلة) أكثر مما أعرفه أنا".

قالت (راوية): "هل هناك مشكلة في أن نسألها، إذًا؟"

"الأمر يعتمد على ما تودين معرفته." هزت (ماما) رأسها، ونظرت نحونا نظرة غضب.

قلت متوسلة بنبرة يكسوها الإحباط ونفاد الصبر: "أريد أن أعرف كل شيء عن الرجل الذي يفترض أن يكون حماي في المستقبل!"

"حماك؟" نظرت لي (ماما) نظرة توحي بالدهشة، وهي تؤكد على كل مقطع.

تكلمت (راوية) نيابة عني: "ليلى سمعت حديثك أنت وبابا عن فاروق".

"ماذا سمعت؟" ارتعشت يد (ماما)، وانسكب الشاي على ملابسها.

"لا أستطيع أن أقول لك يا (ماما)، لأنني لو فعلت؛ لن يكون لديك أي خيار سوى إخلاف الوعد الذي قطعتيه لـ(بابا)".

غضت (ماما) بصرها لتنظر إلى الأرض، وهزت رأسها في استسلام، ثم رفعت يديها ووجهها إلى أعلى: "يا رب اهدهم لقبول قسمتهم ونصيبهم".

فقلنا بصوتٍ واحد: "لن نفعل يا ماما!"

ظللت مستيقظة طوال الليل في السرير، أعد وأرتب في رأسي الأسئلة التي أود طرحها على عمتي، حتى تعالى أذان الفجر من مئذنة قريبة ليوقظ أفراد الأسرة. فانتظم أبي، والخادمات وعمتي، في صلاة الجماعة.

انقبضت معدتي، وأنا أتساءل عما ستقوله عمتي عن حماي. ومع شعوري بالقلق والاضطراب، تسللت إلى غرفة (طنط عقيلة) وقفزت إلى سريرها الدافئ، متوقعة عودتها إلى غرفتها، كما تفعل دائمًا بعد صلاة الفجر. لم أعتد أن أزورها في هذا الوقت المبكر.

جاءت عمتي ورأسها ملفوفة بطرحة بيضاء فضفاضة، كانت ترتديها دائمًا أثناء الصلاة. رحبت بي بابتسامة.

سألتها من على سريرها: "عمتي، إن علاقتك بعائلة (ماما) ليست على ما يرام، أليس كذلك؟"

نظرت لي (طنط عقيلة) لي نظرة مفعمة بالحيرة، ولكنها أجابت بابتسامة جذابة: "نعم، لأن خالتك (حليمة) وعائلتها ليسوا مسلمين صالحين ملتزمين. لماذا تسألين؟"

لم أكن متأكدة مما تقصده بعبارة: "مسلمين صالحين ملتزمين." لكنني تجاهلت تعليقها لإبقاء تركيزنا منصبًا على قضيتي.

"عديني أن تقولي الحقيقة، مهما كان ما أسألك عنه".

"أنت تعرفين كم أحبك، يا عزيزتي. سأقول لك ما تريدين معرفته." جلست على السرير بجانبي، ويديها في حجرها.

"ماذا تعرفين عن حماي؟" نظرت في عينيها مباشرة، وأنا أعلم أنه يمكنني الثقة في صراحة (طنط عقيلة) معي.

"يا حبيبتي، لا علاقة لـ(فاروق) بأبيه." قالتها، وهي تهز رأسها وعيناها تتسعان: "فاروق غيره".

أصابني جواب (طنط عقيلة) بالخدر من منبت رأسي إلى أخمص قدمي، وبدا القلق واضحًا على وجهي.

فأضافت: "ستعرفين الحقيقة إن عاجلًا أو آجلًا؛ لذلك سأخبرك بكل شيء الآن".

أومأت برأسي موافقة. على الرغم من أنني أرغب في الاستماع، إلا أنني لم أكن أعتقد أنني سأحب ما ستقول.

"كان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية؛ عندما وقع ميناء الإسكندرية تحت احتلال الجيش البريطاني، وكانوا في حاجة إلى إمدادات من عمال الشحن والتفريغ." أخذت رأسي لتستقر على حجرها، فتراجعتُ للخلف. "كان هيثم، حماكِ المستقبلي، يشغل منصب مدير القوى العاملة في شركة كبيرة يملكها زوج خالتك، ثروت. كان (هيثم) حينها شابًّا قوي البنية ذي أكتاف عريضة مثل الجدار، صوته أشبه بزئير الأسود".

قلت لعمتي مشجعة: "ادخلي في صلب الموضوع." كنت أريدها أن تتخطى التفاصيل غير ذات صلة.

"أذعن العمال لسلطة هيثم، ليس لأنه يتمتع بأي موهبة خاصة، ولكن لأنهم كانوا يخافون منه".

"عمتي، أنا غير مهتمة بسماع الحكايات عن صوته أو بنيته"!

تجاهلت غيظي وواصلت الكلام، قائلة: "وثق (ثروت) في (هيثم)، ليس فقط لصلة القرابة التي تربط بينهما، بل لأن (هيثم) كان يسيطر على العمال في الميناء، ويحققون تحت رئاسته إنتاجية عالية".

قلت لها متوسلة: "طنط عقيلة، تعجلي من فضلك، أريد أن أعرف كل شيء قبل الغد".

تنهدت (طنط عقيلة)، قائلة: "ليلى، يا عزيزتي، دعكِ من الماضي، وانظري إلى المستقبل. فاروق رجل طيب. ما كنتُ لأقول لكِ ذلك لو أنني أعرف العكس. ارضي بقسمتك ونصيبك، وفكري في الحرية التي توشكين على الحصول عليها.

أتمنى لو كان لي حظك. لو أن (فاروق) طلب الزواج من (فريدة)، ما ترددت ثانية واحدة في الموافقة".

"لماذا لا تعرضون عليه فريدة، إذًا؟"

"لقد اتخذ والدك قراره، وأعطاهم كلمة شرف".

رفعت ذراعي في يأس، قائلة: "حسنًا يا طنط، أكملي".

خلعت (طنط عقيلة) الطرحة من على رأسها، قائلة: "تردد أن (هيثم) كان قد قتل العديد من الشباب، ولكن الشرطة لم تجد أي جثث".

شعرت بالدوار. قتل؟ كيف يمكن أن يرمي بي أبي في هذه الأسرة؟

"ولماذا قتلهم؟" لم أستطع التفكير في أي سببٍ معقول يدعو لأن يرتكب أحدهم جريمة قتل.

أجابت (طنط عقيلة) في صوتٍ هادئ: "لا أحد يعرف".

ولكني ضغطت عليها، فقلت: "لقد وعدتني أن تقولي لي الحقيقة".

طقطقت (طنط عقيلة) عظام أصابعها، وأخذت وقتها قبل أن تفشي لي سرًّا آخر، فقالت: "أثبتت التحريات تورط هيثم، ووجهت له الشرطة تهمة الاعتداء الجنسي على هؤلاء الأولاد".

غطيت وجهي بيديَّ.

فرفعتهما (طنط عقيلة) بلطف، وأمسكتهما وهي تحدق في عيني، مردفة: "يا حبيبتي، لقد صدر الحكم ببراءته من كل التهم الموجهة إليه بعد محاكمة طويلة".

دارت الغرفة بي، وأنا أستمع إلى (طنط عقيلة) غير مصدقة. طلبت مني عدم الحكم على (هيثم) قبل أن أسمع القصة كاملة؛ فأسندت رأسي على حجرها مرةً أخرى، واستمعت.

"فضل أفراد الأسرة تصديق براءة هيثم، وخاصة ثروت، الذي بذل كل ما في وسعه لمساعدة هيثم، وكان (ثروت) ذا نفوذ واسع في ذلك الحين." بدت فخورة بذلك (النفوذ).

أحسست بالخدر يشل أعضاء جسمي، فلم أرد سماع المزيد. حاولت الوقوف، ولكن لم أستطع التحرك.

وأضافت: "خوفًا من أن تتسبب الاتهامات الموجهة ضد (هيثم) في فضيحة كبيرة للعائلة، وكَّلَ (ثروت) عددًا من كبار المحامين لتبرئة هيثم." أشاحت (طنط عقيلة) بعيدًا، وبدت كما لو كانت تحاول إيقاظ ذكرياتها. "استمرت المحاكمة عدة سنوات، ولم تتمكن الشرطة من العثور على الجثث. كما لو أن الأولاد محل القضية قد اختفوا من الوجود".

بدت عمتي، كما لو أنها تحكي قصة درامية في فيلم سينمائي. لم أستطع أن أصدق أنني كنت جزءًا من هذه القصة البشعة. لابد أنني أحلم، ولكن صوت عمتي نبهني إلى أنه لم يكن حلمًا.

"وفقًا للقرآن، يجب إثبات الجريمة بشاهدين، وبما أنه ليس هناك شهود، حكمت المحكمة ببراءة هيثم." هزت كتفيها.

رحت أموء كحيوان جريح، وأجفل مهتزة مع كل كلمة. أخذت أفكر أثناء كلامها في شيءٍ كانت (ماما) قد أخبرتني به من قبل؛ يمتلك (هيثم) العقار الذي سأعيش فيه أنا و(فاروق). كانت فكرة السكن بالقرب منه تصيبني بالذعر.

كانت تساورني الشكوك في براءة (هيثم)، وكان (جمال) قد رفض (فاروق) بسبب سمعة والده. فإذا لم تعثر الشرطة على الجثث، فلابد وأن هناك حلقة مفقودة في القضية. هل أخفت (طنط عقيلة) ذلك عني؟ ولماذا أبى حذر ماما. وهددها بالطلاق لو كان حماي بريئًا؟ ولكني احتفظت بشكوكي لنفسي. كنت واثقة الآن من أنني لن أقضي بقية حياتي مع (فاروق) مهما حدث.

"كم عمر حماي المستقبلي يا طنط؟" كنت آمل أنها ستقول لي شيئًا يخفف من حدة مخاوفي، كأن يكون عجوزًا لا يستطيع الرؤية أو المشي.

"لا أعرف. لابد أن (هيثم) كبيرًا جدًّا في السن، ولكني سمعت أنه لا يزال قويًّا ويخافه أبناؤه".

"وأنا أيضًا أخافه".

فقالت لي: "ستتزوجين ابنه، ستعيشين أنت و(فاروق) في شقتكما، وسيعيش (هيثم) وباقي أسرته في شقتهم." حاولت (طنط عقيلة) إقناعي بأن (هيثم) غير مؤذٍ، ولكنها قرأت ملامح الانزعاج على وجهي. "والآن، دعيني أكمل الحكاية." قالتها، وهي تتجنب النظر في عينيّ. "في اليوم الذي حصل فيه (هيثم) على البراءة، ولدت أمك طفلًا و ـ"

"أنا هذا الطفل! وقد سموني (براءة) تيمنًا ببراءة (هيثم). كيف يفعلون ذلك؟ كيف يربطونني إلى الأبد بذلك الرجل؟ ولماذا يريد أبي تزويجي بابن هيثم؟" كنت أشعر بالضعف وفقدت الوعي تقريبًا.

أخبرتني (طنط عقيلة) أن والدي مستاء مما حدث لأسرة (هيثم)، وأنه يكن مشاعر حميمية خاصة لـ(فاروق)، وقالت:

"كان يعمل مع أبيك منذ تخرجه في كلية التجارة. وقد استغرق الأمر عدة أسابيع لإقناع أبيك بالموافقة على منحك لقب ليلى".

لو كان أبي وأمي على يقين من براءة (هيثم)، فلماذا أصرت (ماما) على تسميتي باسم آخر؟ ازدادت حدة شكوكي.

قالت (طنط عقيلة): "يا حبيبتي، اسمك كله بركة، فهو أول كلمة من سورة (التوبة) في القرآن الكريم".

لم أهتم بأي بركة خاصة يمنحني إياها هذا الاسم.

obeikandl.com

أمسكت (طنط عقيلة) بالمصحف وفتحته على السورة العاشرة، ورفعته أمامي، مشيرة إلى الكلمة الأولى، (براءة).

"إنه اسم مميز. اسم فريد، ويجب أن تكوني فخورة به".

استهلك الغضب وخيبة الأمل كل قواي، فهززت رأسي، وأنا أجر أقدامي خارجة من غرفتها.

عندما غادرت غرفة (طنط عقيلة)، رحت أبحث عن (ماما) حتى وجدتها تجلس في زاوية المطبخ، وأمامها كوب من الشاي على الطاولة لم تمس منه شيئًا.

سحبت كرسيًّا وجلست إلى جوارها. دون أن تتحرك، وكانت تضع مرفقيها على الطاولة ورأسها بين يديها.

"ماما، أنت مدينة لي بتفسير".

"ما الذي تريدين أن تعرفيه بعد أن أوضحت لكِ عمتك كل شيء".

"لقد حكت لي فعلًا، ولكني أريد أن أعرف منك؛ ما إذا كان حماي المستقبلي مجرمًا حقًّا أم لا؟ أريد أن أعرف رأيك فيه." كنت أريد أن تؤكد (ماما) شكوكي. فأنا في حاجة إلى مبررات قوية لأعضد رفضي لعقد القران.

أخذتني (ماما) بين ذراعيها وهمست لي، قائلة: "تعلمين أن اسمك مميز مثلك بالضبط." قالت هذه الكلمات ونبرة الحزن بادية في صوتها، فأدركت أنها لا تريد الإجابة على سؤالي.

لم أستطع إلا أن أبتسم لـ(ماما) ابتسامة استسلام.

غير قادرة على التعامل مع عبءٍ ثقيل من كراهيتي لغلظة أبي وسلبية أمي، وعدت نفسي أن أكون حازمة وألا أستسلم أبدًا لسيطرة الرجال. لم أكن متأكدة، لكنني كنت أعرف أنه يجب عليّ أن أحاول عدم إتمام عقد القران.

(16)

دفعتني المفاجآت التي استجدت إلى التفكير في طريقةٍ ما للفرار من البيت قبل موعد عقد قراني. مزقتني شتى الأفكار وأنا أفكر في كافة الخيارات حال إقدامي على الهرب. هل يكون الهروب هو الحل الأمثل حقًّا، أم أن عليَّ الإذعان لرغبة أبي؟ تصارعت الأفكار في ذهني؛ حين ارتفع صوت (راوية) من حولي، فانتزعتني من شرودي.

"ليلى، ألا ترغبين في تناول شيء ما، يمكنني أن أطلب من (كريمة) أن تحضر لك كوبًا من الشاي باللبن مع شطيرة ".

"لست جائعة. فقط أريد أن أهرب قبل عقد قراني، وعليك أن تساعديني في هذا ".

"لو فعلت سيقتلك بابا أورضا ".

تمنيت من كل قلبي أن يفعلا هذا ويقتلاني. بدا هذا في تلك اللحظة حلًّا ممتازًا

"سيكون أمرًا رائعًا لو حدث. أنا لا أرغب في العيش".

"توقفي حالًا عن تلك الدراما ".

صرخت (راوية) في جزع، فنهضت من فوق الفراش ورحت أدور في الحجرة .

"سوف أواجه أبي هذه الليلة".

"تعلمين أنه لا شيء يمكن أن نفعله الآن ".

قالتها، وفتحت النافذة، ثم اتجهت للشرفة قبل أن تردف:

"قريبًا، سوف يتم عقد قراننا، ولا توجد قوة على الأرض بمقدورها إجبار أبي أن يلغي تلك المراسم. لقد أرسلت دعوات الفرح بالفعل ".

حطمت كلماتها كل أمالي، بل وخنقت رغبة القتال في روحي، لكنني رغم هذا رفضت الاستسلام دون قتال، بينما واصلت (راوية) الحديث:

"يمكنك التفكير في كل المزايا التي سوف تكتسبيها بعد الزواج، ألا ترين كيف هو حالنا، إننا مجرد عبيد هنا، أي شيء لن يكون أسوء من هذا؟ "

ثم ربتت علي كتفي وواصلت :

"لتنظري لـ(فاروق) على أنه فارسك المنقذ، مثلما أعد (جمال) كذلك ".

لكنني لم أكن على استعداد لتقبل فكرة الزواج، ولم يتقبل عقلي حتى تلك اللحظة أن أدع نفسي للظروف تفعل بي ما تشاء. فما زالت الروح المتمردة القلقة في داخلي حية تتنفس.

"أنا متأكدة أن أبي رغم كل شيء يحبنا ".

قلتها، وأنا أنقب في وجه (راوية) عن أي أثرٍ يؤكد رأيي، لكنها اكتفت بأن أشاحت بعينيها بعيدًا .

"هل تذكرين كيف بكى أبي في ذلك اليوم الذي قمنا فيه بإزالة اللوزتين؟ ربما لو توسلت إليه لعاد ذلك الشخص ثانية ".

"أنت تحلمين ".

قالتها (راوية) وهي تهز رأسها في اعتراض. فعاودني الشعور باليأس مرةً أخرى. وقلت بإحباط لا حد له:

"لا آبه بما تعتقدينه، مازلت أرى أن هناك أملًا باقيًا".

مضى بعض الوقت قبل أن تأتي أمي، كانت تغطي شعرها بحجاب الصلاة الأبيض، وعينيها منتفختين حمراوين كالدم. جلست على حافة الفراش، فاتخذت مكاني بجوارها قبل أن تغطي وجهها بالحجاب. راحت الدموع تنحدر على خديها بلا انقطاع، فأمسكت بطرف الحجاب ورحت أجفف به دموعها،

وأنا أربت على كفيها لتهدئتها، لكن بكاءها اشتد. هنا احتضنتها بين ذراعي، وأنا أهزها برفقٍ كأم تهدهد طفلها .

"لا داع للحزن من أجلي يا أمي. لقد غيرت رأيي بشأن (فاروق) والآن لا أمانع الزواج به ".

قلتها كاذبة، فاعتصرتني (ماما) بقوة وتمتمت:

"أنا آسفة يا حبيبتي؛ لأنني لم أنجح في مساعدتك".

"سأحاول أن أتقبله يا أمي ".

واصلت الكذب، وقد أردت أن تصدق أنني بخير. فقد كانت معاناتها تعذبني. غمغمت ماما وهي تربت على ظهري:

"إنني أصلي لله وأدعوه أن يرشدك للطريق القويم ".

"هذا ما أعول عليه يا ماما، ألم تخبريني أن دعاء الأم مستجاب، وأن مباركتك هي كل ما احتاجه؟ "

كنت أعني كل حرف قلته، كنت آمل أن تغير صلوات أمي من قدري بصورةٍ ما. بينما قالت ماما مؤكدة:

"إنني أصلي لله كل يوم، مثلما يصلي أبوك كما أعتقد ، كي يغفر الله لنا من خطايانا ".

لكنني كنت أشك في أن الله قد يغفر لهم؛ خطيئة إجباري على الزواج بشخصٍ لم أختره .

(17)

استقدم أبي إحدى المعلمات وتدعى (سعاد)، لتأتي لنا في المنزل لتدرس لنا اللغة العربية. وكان من واجباتها أيضًا، أن تقوم بتحفيظنا القرآن. طالبتنا (سعاد) بطاعة والدينا مهما فعلا، وراحت تنذرنا من عصيانهما، وهي تردد في كل مرة الآية القرآنية: " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " لكنها أخبرتنا كذلك؛ أن القرآن ينهى عن تزويج أي فتاة دون رغبتها. وهنا قررت مواجهة أبي مسلحة بالآيات القرآنية التي تعلمتها، ومستعينة كذلك بموافقة أمي على قراري في مواجهته .

طرقت باب حجرة نوم أبي والأفكار تتصارع في عقلي، لكنه لم يدعُني للدخول. تبعتني ماما لتشد من عضدي، فتقدمتني للأمام ، وفتحت الباب ثم أشارت لي بالدخول .

اكتنف الظلام الحجرة، باستثناء بعض ضوء الفجر الشاحب المتسرب من خلال المصاريع الخشبية للنافذة المغلقة المسدلة الستائر. كان بابا منهمكًا في أداء صلاة الفجر، والتي عادة ما كان يطيلها. دلفت الحجرة على أطراف أصابعي وانتظرت قرب الدولاب. كان أبي ساجدًا في تلك اللحظة؛ رحت أتابعه وأنا أعلم أنه عادة ما يتبع صلاة الفجر بأداء صلاة السنة، كلما سمح له الوقت بهذا، تحرك بعدها نحو الفراش حيث جلست بلا حراك على حافته، وأنا آمل ألا يصلي السنة هذه المرة. كان التحدي يعتمل في نفسي، فوضعت ساقًا فوق ساق، رغم أنه أمرًا كان غير مسموح به في حضور أبي.

obeikandi.com

كرر أبي الركوع والسجود، وفي النهاية تربع فوق سجادة الصلاة، وراح يهتز في رتابة وهو يتمتم بالتسابيح والأدعية التي تسأل الله أن يغفر له خطاياه، وأن يرحمه في الحياة الآخرة. تمنيت لو أسأله: هل تشمل خطاياه التي يتمنى غفرانها إجباري على زواجٍ لا أرغبه؟

انتهى من صلاته، فراح قلبي يتواثب في صدري، هنا أنزلت ساقي من فوق الأخرى، ونهضت وعقلي مشتت بين رغبتي القوية في مواجهته، وبين الثقة في نفسي التي أفتقدها. باغتني صوت (بابا) القوي، وهو يقول:

"ماذا تفعلين هنا؟ "

"أردت التحدث إليك ".

"بشأن ماذا؟ هل هو الفستان؟ "

"كلا. أنا أعلم أن فستاني جاهز ".

"سوف يعجبك ".

قالها بثقة، ومازال جالسًا فوق سجادة الصلاة قبالة الشرفة. فرددت عليه في هدوء:

"أنا متأكدة من هذا، يا بابا. فأنا أعلم ذوقك الراقي. شكرًا لك ".

"إذًا. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ "

قالها في نبرة ضيق، ثم هب من مكانه وطوى السجادة بعناية، ثم اتجه بوجهه نحو الشرفة قبل أن يكمل:

"لو كان هناك أي شك في نفسي أن (فاروق) هو الرجل المناسب لك لما قبلته ".

قالها، ومازال ينظر بوجهه نحو الشرفة، ومازالت سجادة الصلاة في يده.

"وهل سيسمح لي (فاروق) بأن أذهب للمدرسة؟ "

أردت أن أخبره: كم أبغضه وقد أفسد حياتي كلها، لكنني كنت أفتقد الشجاعة لأقول له هذا .

"لم أسأله عن هذا، لكن لو شئت يمكنك مواصلة الدراسة وأنت في البيت ".

أجابني وهو يلوح بيده ومازال يوليني ظهره، بينما وجدت نفسي أصرخ باحتجاج:

"في البيت؟ هل تعني أن (فاروق) سوف يمانع مواصلتي الدراسة في المدرسة؟ "

هنا التفت نحوي ورمقني بعين منذرة، وأجاب:

"لا يتردد على المدرسة الثانوية إلا الفتيات المنحلة؛ حيث تقوم البنات بإفساد بعضها البعض ".

ثم صمت لبرهة قبل أن يهتف :

"الله يحرقه في جهنم!"

"يحرق من؟ عن من تتحدث؟ "

أجاب باحتقار:

"قاسم أمين؛ إنه السبب في وقوفي مثل هذا الموقف الآن".

"ماذا تعني يا بابا؟ "

قلتها، وقد كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم (قاسم أمين). فأجاب مقطبًا:

"إنه الرجل الذي شجع المرأة على مشاركة الرجل في خوض مجال العمل خارج المنزل. لقد ظل يردد للنساء؛ أنهن لسن إلا رفيقات لأزواجهن، وأن عليهن الكفاح لنيل حريتهن. ومنذ هذا الوقت، والنساء لا تفتأ في السؤال عما يدعي بـ (حقوقهن) " .

obeikandi.com

في تلك اللحظة؛ أردت أن أعرف أين يكون (قاسم أمين) هذا؟ فقد بدا وكأنه يغرد خارج سرب رجال هذا المجتمع، لكن أبي لم يمنحني الفرصة. فقد راح يلومه ويحمله ذنب سلوكنا الصفيق كما كان يرى .

"فيم سبق، لم يكن هناك أية مشاكل؛ حين كانت المرأة تلزم بيتها وتربي أبناءها، وترعى زوجها وشؤون بيتها. فلولا (قاسم أمين) لما كنت هنا الآن أجيب أسئلتك هذه ".

نهضت وقد تشوشت أفكاري، وأنا لا أصدق أن هناك رجلًا مصريًّا، كان يدعو حقًّا لتحرير المرأة .

"وهل (قاسم أمين) مازال حيًّا؟ "

"كلا، ولابد أنه يشوى في نار جهنم الآن ".

بالطبع. كنت أختلف معه في رأيه بشأن (قاسم أمين)، لكنني أردت أن أتبين منه المزيد بشأن تلك النقطة فقلت:

"أنت لا تؤمن بأهمية تعليم المرأة؟ "

كان من العسير؛ أن أصدق أن هناك رجلًا متعلمًا مازال يرفض تعليم المرأة .

"بلى!"

"إذًا. لماذا لم تبقنا في البيت، ما دمت معارضًا لتعليم المرأة؟ "

في تلك اللحظة؛ كنت أدرك أنني قد تجاوزت كل الحدود وقد اسود وجهه. ارتجف ذقني لكنني حافظت على التحدي في عينيَّ دون أن أدمع. التقط أبي جريدة الأهرام من فوق المنضدة وغمغم :

"هل من شيءٍ آخر تريدين التحدث بشأنه؟ "

قالها، وهو يفتح الجريدة.

"أريد أن أعلم. هل يأمرك الله بسؤالي: إن كنت أرغب في الزواج من هذا الرجل، أو أي رجل آخر غيره؟ "

كنت أشعر بالفخر من شجاعتي في تلك اللحظة. زم شفتيه وهو يجيب:

"أجل، هذا صحيح ".

لكنه سرعان ما أكمل :

"لكنك لم تبلغي سن الرشد بعد، وأنا لا زلت ولي أمرك ".

"إذًا. كيف أتزوج وأنا لم ابلغ سن الرشد بعد؟ "

" ليس عليك أن تقلقي بشأن تلك المسألة ".

"ولماذا اخترت لي رجلًا اقترف والده الكثير من الجرائم في الماضي؟ "

فاجأتني شجاعتي فيما قلته، حتى أنني اعتقدت أني شخصًا آخرًا هو من يتفوه بتلك الكلمات، لكنني كنت الشخص الوحيد في الغرفة مع أبي.

"لقد تم تبرئة (هيثم) من تلك الجرائم ".

أجاب بانكسار، قبل أن يخفي رأسه خلف الجريدة، اقتربت منه فخفض الجريدة لتقابلني عيناه بنظرة باردة كالثلج .

"وهل تؤمن حقًّا؛ أن القاضي الذي أشرف على محاكمة (هيثم) كان نزيهًا؟ "

قلتها بصوتٍ مرتعش، وقد رحت أشعر بالضعف والوهن يتملكان مني، وأن شجاعتي وتماسكي يفارقاني وقواي تخور، فاستدار أبي واتجه نحو الدولاب، وفي المرآة كنت أرى انعكاس عينيه، وهما يموجان بالغضب .

لم أتمالك نفسي في تلك اللحظة؛ فتهاويت على فراشه وبدأت أبكي، تحرك نحوي لكنه لم يكمل طريقه. تمنيت لو احتواني في تلك اللحظة بين ذراعيه وأخبرني؛ أنه قد غير رأيه بشأن زواجي، لكنه بدلًا من هذا ابتعد وهو يطلق زفرةً عميقة، لم أدر حينها كانت تعبق بالغضب أم بالشعور بالذنب!

obeikandi.com

مكثنا هكذا لبعض الوقت وأنا مازلت أنشج. ثم قلت من بين دموعي:

"لماذا تريد تزويجي بتلك السرعة؟ ولماذا يكون رجلًا لا أريده؟ ما الذي اقترفته لأستحق أن أقضي ما تبقى من عمري مع رجلٍ في عمر أبي، وقد اتهم أبوه بقتل شبابٍ صغار".

"شباب صغار؟ "

زمجر أبي، وبدا وكأن هذا التعبير قد باغته، ثم قال في قلق:

"من أخبرك بهذا؟ "

"إنها عمتي".

"كان على (عقيلة) أن تخبرك أن كل هذا مجرد شائعات".

قالها منتظرًا أن أصدق ما يقوله، لكنني قلت في تحدي:

"طالما هي شائعات؛ فلماذا يرفض (جمال) الاختلاط به؟ "

هز أبي رأسه في انزعاج وهتف:

"اسمعي، لقد اتخذت قراري، وعليك أن تثقي في اختياري. إن (فاروق) هو الرجل الذي سوف يمنحك حياة رغدة، وليس تعليمك".

جمعت ما تبقى من شجاعتي لأقول:

"لن أمنح نفسي لـ(فاروق) وأعدك أن أتطلق منه، حتى لو كان في هذا نهاية حياتي".

هز أبي رأسه في أسف:

"ستكونين أنت الخاسرة".

"لقد خسرت بالفعل، وفقدت أثمن ما في حياتي، لقد ضاع مستقبلي.!"

obeikandl.com

(18)

مساء اليوم التالي؛ سمعت جلبة قادمة من الصالون، فتحت الباب المؤدي للصالة، وللحظة حينها ظننت أنني أحلم. كانت (راوية) تجلس هناك على الأريكة في مواجهة الشرفة، تلاقت عينانا لوهلة، لكنها تجاهلتني، كانت تبتسم وهي ترتدي فستان شيفون بلا أكمام، أبيض اللون لم أره عليها من قبل. كانت ساقاها معقودتان بصورةٍ كلها إغراء، وهو ما كان أبي يعده سلوكًا مشينًا، بينما جلس بجانبها رجل قصير ذو بشرة زيتونية، وشعر أسود مجعد. كانت ابتسامته واسعة كابتسامتها، بينما شغل (بابا) المقعد الذي كان في مواجهة (راوية)، وكانت عيناه تحدقان بثبات في الباب الزجاجي المغلق المؤدي للشرفة .

كان هناك كذلك، رجل عجوز يرتدي عمامة بيضاء وقفطان بني اللون، ويجلس في المنتصف ما بين (راوية) والرجل ذو الشعر المجعد، أخرج الرجل من جيبه منديلًا أبيضًا، وغطى به كفي كل من أبى والرجل الذي خمنت أنه (جمال). ردد الشيخ بضع آياتٍ من القرآن؛ بينما ذابت أعين العروسين في نشوة. وعندما انتهى الرجل؛ صافح أبي وهنأه:

"بارك الله لهما وبارك عليهما، ورزقهما الذرية الصالحة ".

هل تم عقد قران راوية؟ مادت الدنيا بي، وراودني شعور غريب بالوحدة، وكأنني فقدت للتو أعز صديقة لي. كنت مشوشة، وكل ما فكرت فيه هو أن أعدو بعيدًا عن هذا المكان وأهرب. لكنني ما أن سمعت الزغاريد تتردد في المدخل ، حتى ارتجفت وفقدت قدرتي على التحرك .

التفتت (راوية) ناحيتي، وانفرجت شفتاها كما لو كانت تحدثني بشيءٍ ما، وبصورةٍ ما تحررت حينها من جمودي وغادرت المكان. لماذا أخفت عني (راوية) خبر عقد قرانها؟ ولماذا حدث هذا فجأة هكذا؟ ربما لم تكن (راوية) نفسها تعلم

به. وربما فاجأها أبي بالأمر، كنت أتمنى تصديق أن (راوية) لم تخذلني، لذا فقد رحت أفكر في كل ما كان يجمعني بها من ثقة وإخلاص، وأنا أتجه إلى حجرتي؛ حيث انتظرتها كي تفسر لي ما حدث. لحقتني (ماما) وقالت:

"إنه والدك الذي يرغب في الخلاص من (راوية) في أقرب وقتٍ ممكن، حتى أنه لا يهتم بالكيفية التي تتزوج بها، ولا متى يحدث هذا ".

إذًا؛ فهذه كانت فكرة أبي كي يتخلص من جرأة (راوية) وتحديها له. إنه يعتقد أن تزويجها سوف يضع حدًّا لتأثيرها السلبي علي (هالة، وعلي) مع كل ما تعتنقه (راوية) من أفكار تحررية وسلوك يضيق بالعرف والتقاليد. وبعد وقتٍ وجيز من عودتي لحجرتي. انتزعني من حزني؛ قعقعة صادرة من عضد الباب .

"نحن قادمون يا ليلى ".

كان صوت (راوية) ، وما أن فتحت الباب حتى التفتت للخلف وقالت:

"يمكنك الدخول يا جمال ".

وبذهولٍ شاهدت (راوية) وهي تقود هذا الرجل من يده إلى حجرتنا الخاصة. طلبت (راوية) من (جمال) أن يجلس فوق كرسي التسريحة، ثم جلست بعدها فوق حجره كالطفل .

"حبيبي جمال، يمكنك أن تعد نفسك وكأنك في بيتك".

اتسعت ابتسامة (جمال) وقد راقه جرأة (راوية)، التي التفتت نحوي وهي مازالت في حضنه، ونظرت لعينَّي الجاحظتين في خيلاء ثم غمزت. اغتصبت بسمة من شفتي، وأنا لا أدري ما ينبغي علي فعله. فعلى عكس (راوية)، لم يكن من السهل أن أغير من طبيعتي الخجول، وبالطبع كانت (راوية) تدرك هذا. فوجود رجل في مخدعنا وأختي تجلس على حجره، لم يكن فقط يزعجني، بل كان -أيضًا- يشعرني بالتوتروعدم الارتياح .

شعرت بالدوار، وأنا أفتقد الخصوصية التي تؤمنها لي حجرتي، وانتظرت أن يقتحم أبي الغرفة بغتة وأن ينسفها في غضب. كان ما يحدث أمرًا لم أختبره من قبل. ولم أكن أدري كيف سينتهي. جلست على حافة الفراش وغطيت ركبتيَّ بغطاء الفراش، وقد عانقتهما بذراعي، ورحت أهتز ببطء في انتظار الكارثة القادمة. لكن الوقت مضى دون أن يندفع إلى حجرتنا أي أحد، هنا هدأ توتري، وبدأت أستمتع باللحظة الجديدة الغير معتادة، وقد نسيت كل غضبي وخيبة أملي .

راحت (راوية) تدور حول نفسها كراقصة البالية. ثم وقفت خلف (جمال) وأرخت ذقنها على شعره المجعد، وقالت في صوتٍ هادئ، كما لو كانت قد اعتادت أن تقدمني للرجال طوال عمرها:

"ليلى، دعيني أقدم لك زوجي، جمال. هذه هي أختي الحبيبة، ليلى ".

قالتها، وهي تبادل (جمال) النظر في إعجاب. فقلت بابتسامة عريضة:

"هل يعلم بابا أن جمال هنا؟ "

"ليس من حق (بابا) أن يعترض على شيء بعد الآن ".

قالتها، وجذبت (جمال) من فوق المقعد ثم جلسا سويًّا على طرف الفراش. وأشارت (راوية) إلى صدر جمال بإصبعها، وأكملت:

"-إنه زوجي الآن، وصار من حقه أن يدخل أي حجرة في هذا البيت ".

وبينما لم أشاهد وجه (راوية) من قبل مشرقًا بمثل هذه السعادة؛ إلا أنني رحت أتعجب من عرضها الرومانسي المفاجئ هذا مع رجلٍ بالكاد كانت تعرفه. وددت لو أسألها؛ هل تلك الفرحة التي أراها في عينيها متوهجة كالنجوم، حقيقية، أم تراني أتوهم؟ وفي تلك اللحظة؛ عاد لذاكرتي حديث ابنة عمتنا (فريدة) التي كانت تقسم أن الممثلين في الأفلام يضعون (الجليسرين) في عيونهم ليجعلوها تلمع من الحب على الشاشة .

لكن فرحة (راوية) بدت حقيقية، كانت في أوج تألقها. كان لدي الكثير من التساؤلات بخصوص الحفل، وما تبديه (راوية) من حب نحو (جمال)، لكن لم يكن الوقت مناسبًا لطرح تلك الأسئلة، وأنا أرى (جمال) ملتصقًا بها .

قاطعنا صوت أبي الذي وصلنا عبر الجدران التي تفصل بين حجرتينا. بدا وكأنه يصرخ في أمي :

"اذهبي وأخبري ابن أختك الوقح أن يحافظ على حرمة هذا البيت، وأن يخرج من غرفة البنات في التو ".

وصمت لبرهة، ثم واصل الصراخ:

"هذا ليس بيت دعارة، من منح ابن أختك الحق في تجاوز حدوده واقتحام خلوة البنات، إن مكانه هو الصالون ".

أنصتنا لأبي في صمت، بينما تجعدت جبهة (جمال) في غضب، راحت (راوية) تدق بقدمها على الأرضية في عصبية، ونيران الغضب تتوهج في عينيها. كنت أبتسم وأنا أفكر في فضول؛ إلى أي مدى ستصل إليه مع تلك الحرية الجديدة التي اكتسبتها؟ في الواقع؛ لم أشعر بالفخر من أختي اكثر من تلك اللحظة .

دلفت أمي حجرتنا وأغلقت الباب خلفها، وغمغمت في قلق:

"دعونا نذهب جميعًا إلى الصالون، إن (كريمة) في طريقها إلى هنا لتنظيف الحجرة".

أمسكت (راوية) بيد (جمال) وتبعت أمي؛ بينما سرت أنا خلف الجميع. لكن (راوية) توقفت منتصف المسافة بين الصالون وغرفة نوم أبي، ورفعت صوتها قائلة:

"سوف أخرج هذا المساء مع زوجي ".

لكن أبي ظل في حجرته دون أن يبدي أي رد فعل. كان يؤمن أن الفتاة التي تجلس وهى تبعد ما بين ساقيها هي فتاة منحلة، تنتظر من يغتصبها. وأن مضغ العلكة هو سلوك لا تقدم عليه إلا فتيات قاع المجتمع، وأن الفتاة التي تضع مساحيق التجميل؛ إنما تفعل هذا لتحظى بمن يقبلها. أما تلك التي تتحدث بصوتٍ صاخب مرتفع، فإنما تفعل هذا لتدعوا الرجال لارتكاب كبيرة الكبائر التي يتفنن الشيطان بنفسه في تدبيرها، الجنس .

وهنا تذكرت ما قاله أبي في صوتٍ يقطر حنينًا للماضي: أن النساء قديمًا كن يرتدين أساورًا في أقدامهن بها الكثير من الحلي التي كانت تجلجل، لينتبه الرجال ومن ثم يغضون أبصارهم بعيدًا عنهن .

شعرنا بالرضا، ونحن نتخيل نظرة الألم في عيني أبي، وهو يرى كيف تحطم (راوية) كل قواعده الصارمة التي ربانا عليها. وفي تلك الليلة، نمت بصورةٍ متقطعة في فراشي بمفردي، حتى تناهت لأذني خطوات (راوية) قادمة من الرواق، فشعرت بالدهشة.

كان أبي حينها مازال مستيقظًا هو الآخر، كنت أعلم هذا لأنني وقبل أن أذهب للنوم؛ رأيت باب حجرته مواربًا، وقد تسلل عبره ضوء (الأباجورة) التي بجوار فراشه نحو الردهة. اعتاد أبي حين يكون غاضبًا أن يجلس باستقامة على كرسيه، وهو يدس إحدى قدميه أسفل منه؛ بينما تمتد الساق الأخرى فوقها، وهو يهزها في إيقاعٍ رتيب، كان بإمكاني تخيله الآن، وهو يتخذ نفس الجلسة عاقدًا ذراعيه أمام صدره؛ بينما يهتز جذعه للأمام والخلف مع حركة قدمه؛ بينما يتردد وقع أقدام (راوية) في الردهة . ,

قفزت من الفراش، وفتحت الباب لـ(راوية) وأنا أشير بعيني نحو باب حجرة أبي؛ لأنبهها أنه مازال مستيقظًا. لكن (راوية) هزت رأسها باستخفاف وهي تشيح

بكفها، وكأنما لا يعنيها الأمر. أشرت لها أن تغلق زر البلوزة العلوي، لكنها بدلًا من هذا فتحتها أكثر، هنا تراجعت بسرعة لداخل الغرفة، وأنا مرعوبة مما قد يحدث بعد ذلك .

خطت (راوية) مباشرة داخل الغرفة، وقد تبعثر شعرها وتورد خدها من أثر القبلات. بدت في تلك اللحظة كممثلات السينما الساخنات ذوات الجمال الكامل وقصص الحب الملتهبة. بدت كواحدة من أولئك اللاتي كانت (فريدة) تحكي لنا عنهن من وراء أبي. لم أتمالك نفسي فهمست :

"راويه، تبدين كما لو كنت فاتن حمامة ".

جلست على الفراش وبلا اكتراث؛ راحت تهذب شعرها، وهي ترميني بنظرة حادة. وقالت:

"هل تعلمين، لقد درست كل مشاهد الحب التي قامت بها؟ "

ثم منحتني ابتسامة عابثة، وهى تردف:

"والآن جاء الوقت لممارسة تلك الفنون!"

"ألا تكترثين بما قد يظنه جمال فيك؟ "

قلتها، وكلي شكوك نحو ما تكنه (راوية) من مشاعر نحو (جمال). هل حقًّا وقعت في حبه؟ أم أن كل هذا مجرد تمثيل؟ لكن (راوية) لم تجب واكتفت بالابتسام، وفي تلك اللحظة؛ حبست أنفاسي وسؤال عابث يلح على عقلي أمام نظرتها المشرقة:

"هل تنوين ممارسة الجنس معه قبل زفافك؟"

"بالطبع سوف أفعل، يا عزيزتي. الحب شيء جميل، كما أن (جمال) هو زوجي الشرعي ".

"وماذا عن أبي؟"

قهقهت (راوية) وأجابت:

"هذا أمر لا يقلقني، يعلم أبي جيدًا؛ أنه لا يملك أي سلطة عليّ الآن، وقد صرت زوجة جمال ".

كان هذا صحيحًا، وفي ذلك اليوم خلدت للنوم وكلي حسد مقرون بالإعجاب بشقيقتي، كنت أتمنى بشدة لو صرت مثلها؛ كي أجرب الحب وأخرج مع الرجل الذي أحبه، حبيبي (غسان). كنت أتوق لحياة المراهقة ومتعة المشاعر الرومانسية .

صارت مغامرة (راوية) مع (جمال) نافذة لي نحو المستقبل. لم أفكر في الاستماع إليها، وهي تصف كيف كان يحتضنها جمال وكيف يقبلها، ورغم هذا تمنيت أن أحظى بنفس شجاعتها ومهارتها. لم أكن مستعدة لممارسة الجنس بعد، ولا حتى مع (غسان). حتى لو واتتنا الفرصة لشيء كهذا، كانت (راوية) تحمل دومًا لواء السبق؛ بينما كنت دومًا في الخلف لأتعلم منها، وكان مما تعلمته؛ ألا أقدم على تقليد أي شيءٍ تقوم به؛ إلا لو نجح معها. وقالت لي:

"انظري كيف أدبر أموري. وكيف أتعامل مع جمال، وما أعطيه له، وما أمنعه عنه ".

لم أرغب في أن أتعامل مع (غسان) بنفس الكيفية التي أرادت (راوية) أن أسلكها. لكنني رغم هذا أومأت بالموافقة. بينما أضافت بعدها، وهي تشير لنفسها:

"حاولي أن تتعلمي من أخطائي. لا تسمحي لمشاعرك أن تعميك عن الأخطار التي صرت على وشك مواجهتها، أنا أقصد هنا عالم الرجال ".

ثم رفعت رأسها نحو السقف وقالت:

"أسفل سقف هذا البيت؛ تعلمت كل شيء عن الرجال، لقد عهد أبانا لـ(أحمد) أن يحافظ علينا، وبسبب (أحمد) هذا لم أعد فقط أتساءل، بل أشك كذلك في أن الله قد أمر الرجال حقًّا بحماية عفتنا والحفاظ عليها".

(19)

صباح يوم عقد قراني؛ انهمكت (عمتي عقيلة، وفريدة)، والخدم تنظيف الشقة وترتيبها؛ استعدادًا لمراسم الاحتفال، وكان ذلك في نفس الوقت الذي صدحت فيه أغاني الأفراح من جهاز التسجيل في صخب .

تردد صبي التوصيل على المطبخ مرارًا، وهو ينقل الصواني المحملة باللحوم، والدجاج. وكعادة الأفراح المصرية، كان تقديم الديوك الرومية طقسًا رئيسيًّا، حيث كانت تقدم محشوة بالأرز والمكسرات والزبيب المختلط بالزبد والقرفة. عبق هواء الشقة بالرائحة اللذيذة للديوك الرومية الثلاثة التي كانت تطبخ حتى طغت على رائحة عطر الورد الذي وضعته أمي في كل جوانب الشقة. أمرت أمي كذلك بإعداد صواني المكرونة بالبشاميل، والتي كانت طقسًا آخرًا مميزًا للاحتفالات المصرية .

ولم يكن الاحتفال ليتم كذلك بدون محشي الكرنب، ومحشي ورق العنب. كما كان هناك العديد من أنواع السلطات، وكان نوعي المفضل هو سلطات الطحينة، والحمص، والبابا غنوج. أما بوفيه الحلوى، فقد اشتمل على الكثير من صنوف الحلوى الشرقية والغربية كالجاتوه الفرنسي، والبسبوسة والبقلاوة، والكنافة والغريبة .

أكدت أمي على (كريمة) أن تنتبه للصواني، وأن تمنع أخوتي الصغار من تذوق أي منها أو العبث بترتيبها. كان الكل يرقص ويغني في سعادة إلا أنا و(راوية) و(جمال). كنت قد لحقت بـ(راوية) التي رغبت في الخروج هذا المساء مع (جمال) لكن أبي رفض .

obeikandi.com

اندفع السائق (علي) نحو المطبخ حاملًا صندوقين مفتوحين ممتلئين بزجاجات (الويسكي) والنبيذ. هنا تساءلت (راوية) في غضبٍ، وهي تغطي فمها بيدها:

"كيف يمكن لأبي بعد هذا أن يدعي التدين؟ أليست الخمور محرمة في الإسلام؟ لا أعتقد أن أبانا بعد هذا أهل لأن يعلمنا ما هو حلال وما هو حرام، إن خروجي مع زوجي ليس بحرام ومع ذلك يرفض، وها هو يقدم الخمور رغم أن الله أمر بألا نشرب الخمر، كما أنني متأكدة من أنه يحرم تقديمها كذلك".

"ششش، اصمتي يا بنت ".

همست أمي محذرة، وهي تتلفت حولها في قلق. لم يكن هناك بالطبع ما تبرر به تلك الخطيئة التي يقترفها أبي، وقد علمتنا من قبل أن الكحوليات محرمة في الإسلام .

كانت أخوات أمي يحتسين الخمر، وأرادت (ماما) أن يستمتعوا تمامًا في تلك الأمسية. لم يحب أبي أبدًا نساء عائلة أمي، وكان دومًا يدعوهن بال (فاجرات)، لكنه وكما يبدو تجاهل كل معتقداته الشخصية والدينية هذا المساء، وبدا وكأنه لا يرى أي ضير من السماح لخالاتي بالاستمتاع بالشراب في تلك الليلة .

عادت (راوية) لتسأل:

"لا أدري كيف سيفسر أبي لله ما يقوم به الآن حين يقف أمامه في الصلاة القادمة ".

بدا وكأن (راوية) لن تصمت أبدًا، وقد رأت كيف أقدم (بابا) على ارتكاب تلك الخطيئة الفادحة. وواصلت الحديث بصوتٍ أكثر ارتفاعًا:

"هل سمح الله بالاستثناءات؟ وهل سيكون الجحيم مصيرك أنتِ وأبي من أجل هذا يا أمي؟ "

قالتها، وهي تمد عنقها ناحية حجرة أبي، لكن أبي لم يسمعها حيث كان صوت الموسيقى عاليًا .

"وماذا لو رغبنا نحن -أيضًا- في الشراب؟ هل مازال من حق أبي أن يمنعنا عن هذا؟ "

كانت (راوية) حينها تدق على الأرض بقدميها. سمع (أحمد، ورضا) تذمرها، فقال (رضا) محذرًا، وهو يشير بإصبعه في وجهها:

"ستلتزمين بكل قواعد هذا البيت طالما تعيشين فيه ".

ردت عليه (راوية) بتحدٍّ، وهي تمسك بكف (جمال):

"لن أفعل. لقد أصبحت تحت سيطرة رجل آخر الآن ".

وكي لا يتصاعد الوضع؛ أبعدت أمي (رضا، وأحمد) بأن أمرتهم باصطحاب أخوتي الصغار الذين كانوا قد تبعوها إلى داخل الحجرة، بعدها التفتت إلى (جمال) وقالت:

"هل ستسمح لزوجتك بالشراب يا صغيري؟ "

"سأمنحها النجوم نفسها لو رغبت فيها ".

قالها، وهو يحيط خصر (راوية) بحنان. فهمست وهى ترخي رأسها على كتفيه:

"أشكرك يا حبيبي ".

وكتحدٍّ علنيّ لأوامر أبي؛ غادرت (راوية) الشقة مع (جمال) وذهبا سويًّا لمشاهدة فيلم عربي في السينما .

وفي ظهر ذلك اليوم؛ تسللت آشعة النهار عبر خصائص النافذة في غرفتي، وانعكست على بلورات الثريا، فراحت تتوهج، لتذكرني بآشعة الشمس وهي تسطع فوق المياه الفيروزية لشاطئ (مرسى مطروح). هنا رأيت بعين الخيال نفسي مع (غسان)، ونحن نتمشى سويًّا على الرمال البيضاء. أغلقت عيني،

وسبحت أفكاري حيث عيني (غسان) العاشقتين. كان يبتسم فانحسرت شفتاه الرطبتين عن صفين من الأسنان البيضاء النضيدة. قادتني أحلامي لأدنو وأقترب من وجهه، وبينما استعدت شفتاي لتذوبا في شفتيه؛ اندفعت (راوية) للداخل، وفتحت النافذة وهي تصيح بتهكم:

"حان الوقت لتعدي نفسك!"

كانت (راوية) تحمل حقيبة ورقية بيضاء مطبوع عليها اسم أحد المحلات الراقية، يدعى (هانو)، رفعت الحقيبة لأعلى فوق مستوى رأسها، وراحت تطوحها يمينًا ويسارًا كطائرة ورقيه، وهي تهتف :

"هيا استيقظي، وانظري ما اشتراه لي حبيبي جمال ".

بدت الحقيبة الورقية القادمة من محلات (هانو) غريبة أمام عيني تمامًا، فقد كانت ملابسنا تأتي إما من "L’Enfant Chic" وهو بوتيك متخصص في إنتاج الملابس الفرنسية للأطفال والمراهقين، أو تقوم بحياكتها مدام ماري، الخياطة اليونانية .

"أريني ما داخلها ".

"أغمضي عينيك أولًا، وإياك أن تفتحيهما قبل أن أسمح لك ".

أغمضت عيني وبعد لحظات، قالت:

"تستطيعين أن تنظري الآن".

فتحت عينيَّ وحملقت. كانت (راوية) تضع ثوبًا أسودًا على جسدها في حذرٍ وحرص. بدت أختي في تلك اللحظات كالحورية في ثوبها ذا الخصر المحكم، وفتحة الديكولتيه العميقة. والتي يراها أبي في عرفه كالعاهرات ..

"يا للروعة. لم أرمن قبل (دانتيلا) منسوجة بمثل هذه الدقة ".

"يدعونها"guipure" جيبور. يا ليلي ".

قالت (راوية) بفخرٍ،وهي تصحح لي وتعلمني .

"لكنها تكشف الكثير من ظهرك ".

قلتها بقلق كبير. تجاهلت (راوية) تعليقي، وأولت اهتمامها نحو الحقيبتين الصغيرتين التي أخرجتهما من الحقيبة الكبيرة. فضت بحذر الغلاف الورقي الوردي لأحدهما وأخرجت منها صدرية حمراء، ومن الحقيبة الأخرى،أخرجت شيء من نفس اللون والنسيج، كان سروالًا داخليًّا رفيعًا للغاية. لا يشبه أبدا السراويل التحتية التي اعتدنا منذ الصغر على ارتدائها .

"-أشبعي عينيك الجائعتين بالأشياء التي كان علينا ارتدائها قبل وقتٍ طويل " .

قالتها (راوية) وعلى وجهها ابتسامة عريضة. ثم خلعت ملابسها وارتدت الصدرية الحمراء و(البانتي) الجديد. بدت في تلك اللحظة؛ أجمل من أي من نجوم السينما التي اعتادت ابنة عمتنا (فريدة) وصفهن لنا. جلست بعدها في مواجهة خزانة الملابس، ووضعت ساقًا على ساق، ثم شبكت كفيها حول ركبتها وهي تميل برأسها نحو اليمين واليسار. راحت تبدي تعبيرات مختلفة مع وضع تتخذه كفتيات الموديل. حلوة وبريئة. أو جريئة وساخنة .

لم أكن أدري مدى تأثير نيل (راوية) لحريتها على نفسي، حتى نظرت للمرآة ورأيت جبهتي العابسة. لقد كنت أخشى أن تنتزعها حياتها الجديدة بعيدًا عني، وأن أخوض معركتي هنا بمفردي. لكن (راوية) أخرجتني من شرودي؛ حين لمست خدي بإصبعها، ثم قبلتني على جبهتي وقالت:

"هل ترغبين في ارتداء فستاني هذه الليلة؟ "

"أتعنين أنك سوف تمنحيني..."

لم أكمل كلامي، فقد التقطت يدي، وساعدتني على خلع ملابسي في ثوان، ثم ألبستني الفستان. علق الفستان بجسدي، فرحنا نقهقه ونحن متعانقتان في مواجهة المرآة.

سمعنا بعدها من يطرق الباب، لكننا تجاهلناه. وبعد لحظات أخرى؛ كان هناك المزيد من الدقات. غطت (راوية) جسدها شبه العاري باللحاف وفتحت الباب؛ حيث كان أبي واقفًا مرتديًا بذلته الكحلية والقميص الأبيض. كانت عيناه تنطقان بالغضب. هنا أغلقت أختي الباب، لكنه دخل رغم هذا، وبعنفٍ أغلق مصاريع النافذة، وهو يهتف:

"لماذا تخلعون ملابسكن والنافذة مفتوحة؟ "

وقفنا أمامه متصلبتين في صمتٍ كلصتين ضبطن متلبستان بجريمتهن. حملق أبي في فستاني للحظات، ثم نظر بعيدًا وهو يبصق في قرف. بعدها استدار نحو (راوية)، وقال في صوتٍ منخفض بقسوة:

"أنت فتاة وعديمة الأخلاق!"

لكنها هزت كتفيها بلا مبالاة وتحركت نحوي؛ لتتعثر في اللحاف الذي تداري به جسدها، تراجعت بضع خطوات للوراء حتى شعرت بزجاج الشرفة خلفي، بينما ظلت عيناي معلقتين بوجه أبي، جلست (راوية) على الفراش، ووضعت ساقًا فوق ساق وتمتمت :

"كم أتمنى لو يحررنا الله من هذا السجن بسرعة ".

لم أصدق ما سمعته للتو، وبينما رحت أرتجف وأنا محصورة في ركن الحجرة؛ نظرت إليها بنفس النظرة اللائمة التي تنظرها لنا أمي؛ حين نقترف فعلًا لا يعجبها. لكنها حدقت بسخط في أبي، وصرخت:

"أي حياة هذه التي نعيشها؟ ألا يوجد أي حرية للمرء في هذا البيت، ولا حتى في حجرة نومنا؟ أهذا هو حكم قراقوش؟ "

كانت كلمة (قراقوش) هي ما اعتادت (راوية)أن تصف بها أبي حين تتحدث عنه.

سحبني أبي من يدي إلى خارج الحجرة، وأمام صمته المخيف، لم يكن هناك أي بديل سوى الانصياع له. كانت يدي اليسرى أسيرة كفه الأيمن. نظرت للخلف نحو (راوية) وأنا أتمنى لو تتبعنا. لكنها ظلت بمكانها وهي تومئ لي مشجعة، وأنا أتجه إلى حجرة أبي .

أغلق (بابا) الباب علينا، وطلب مني أن أجلس؛ اخترت أبعد مكان على فراشه، وأنا أتمنى أن تنشق الأرض أسفل قدمي وتبتلعني .

ثم قال :

"تعلمين يا ليلي. أنك كنت دومًا طفلتي المفضلة ".

أومأت مؤكدة؛ رغم أن كلينا كان يعلم أنه يكذب .

"لا أريد أن يؤثر سلوك أختك المبتذل الذي يخلو من الاحترام عليك ".

لكنني قاطعته قائلة:

"راوية ليست مبتذلة ".

"لا تقاطعيني".

قالها، فخفضت رأسي بإذعان .

"لو شاءت (راوية) أن تنال حريتها، وأن تفرض استقلالها عليّ، فعليها أن تغادر هذا البيت في الحال ".

"ما الذي يعنيه هذا؟ وماذا عن زفافها؟ "

وقف في مواجهة الشرفة، ثم قال:

"لن يحصل (جمال، أو راوية) على أي شيء مني. لقد رفضت المهر الذي قدمه".

قالها، وهو ينظر في وجهي، فقرأت التصميم في عينيه. ثم أردف:

"لو شاء (جمال) أن يأخذ (راوية) الآن فليفعل. لكن لن يكون هناك أي حفل زفاف أو أثاث. في النهاية؛ (راوية) تعد الآن زوجته شرعًا ".

"ألا تحب أختي؟ أخبرني ما الذي جنته راوية؟ "

"لقد اختارت (راوية) طريقها بمحض إرادتها، وعصت أمري وتحدت سلطتي. ولهذا فلا مكان لها هنا ".

ثم خفف أبي من حدة صوته، وهو يخبرني أنني كنت دومًا ابنته التي يثق بها ويحترمها، ويعتمد عليها في الحفاظ على سمعة العائلة النقية. لم أفهم تمامًا معنى ما يقوله. لكن ما يقوله قد سرني. لكنني رغم هذا ظللت أشعر بالقلق على أختي.

"هل تعلم (راوية) بقرارك؟"

"كلا، لكنني أنتظر أن تخبريها به أنتِ ".

نظرت في عينيه، وأنا أفتش عن أي أثرٍ للحب يتوارى خلف تلك النظرة الباردة التي يرمقني بها، لكنني لم أجد شيئًا.

"عليك أن تخبرها بهذا بنفسك ".

قلتها، وأنا أستعد لمغادرة الحجرة.

"اعدي نفسك لتخبريها. عليك أن تقومي بما آمرك به، هل تفهمين؟ "

"هل أعد نفسي لإخبار شقيقتي أن عليها أن ترحل؟ أم أعد نفسي للاحتفال؟ "

سألته، وأنا أرجو لو يغير قراره الذي اتخذه ضد (راوية، وجمال).

"استعدي للاثنين. وعليك كذلك أن تخلعي عنك هذا الثوب. تبدين فيه كالمتشردات ".

شعرت وكأن كلمات أبي تعريني، حتى أنني غطيت الشقوق المفتوحة في الفستان بكلتا يديّ، وأنا أخرج من الحجرة حائرة مضطربة. لم أدر كيف يمكنني أن أواجه (راوية) بقرار أبي، فوقفت أمام باب حجرتنا شاعرة بالعجز. كانت كلماته تلهبني، ولم تقو ركبتاي على حملي. هل ستلقى (راوية) بحق خارج

البيت مثل القمامة، وكيف أحتمل أن أخبرها أن أبي يحتقرها، حتى أنه قرر أن يطردها. وأنها لم تكن أكثر من مجرد لطخة لسمعته الطيبة؟

"لماذا لم تستعدي يا ليلى؟ "

أجفلت من صوت (ماما) الذي ظهر بغتة، لم أشعر بها وهي قادمة من الرواق نحوي. وحين لاحظت وجهي الشاحب؛ قالت بقلق :

"ماذا بك يا ليلى؟"

تنازعتني المشاعر المتناقضة حينها، وأنا أفكر هل ألقي بأعبائي في حجرها، أم أبتعد عن تلك المرأة التي أعلم أنها ستتخذ جانب أبي تمامًا في قراره بالتخلص من أختي؟. لكنني لم أحتمل كل هذا العبء، فدفنت وجهي بين كفي وصرخت:

"آه يا أمي، أرجوك. أتوسل إليك!"

أخذتني بين ذراعيها، وقالت:

"ما الأمر يا ليلى، أخبريني ".

"لا يمكنني احتمال فكرة أن أخبر راوية بقرار بابا".

قلتها، وأنا لا أستطيع كبح دموعي. كان وقع كلماتي على أمي غريبًا، أبعدتني عنها قليلًا، وتراءت على وجهها نظرة قلق عميقة .

"أحقًا لا تعلمين؟! لقد أخبرني أبي أنه لن يقيم حفل زفاف لـ(راوية). وأنه يريدها أن تنتقل إلى منزل (جمال) في الحال، كما أنه لن يشتري لها جهازها وأثاثها ".

اتسعت عينا أمي، وبدا جليًا أن (ماما) لم يكن لها أي دور في هذا المصير الرهيب. فنظرت إليها بامتنان. لكن تعبيراتها تبدلت سريعًا، وهي تستجمع رباط جأشها، وقالت:

"من فضلك، لا تخبري (راوية) بأي شيء من هذا ".

هنا شعرت بالراحة، فكففت عن البكاء. عدت لحجرتي، فوجدت (راوية) تحوم فيها كحيوان حبيس القفص .

"ما الذي قاله أبي لك، هيا أخبريني ".

"لا شيء مهم ".

قلتها، وأنا أحاول ألا يخونني وجهي وأنا أكذب .

"لقد أمرني أن أخلع عني ثوبك؛ لأنه يراه فاضحًا ".

دنت (راوية) مني ورفعت ذقني، وهي ترغمني أن أنظر لعينيها. لكنني دفعت يديها بعيدًا عني برفق واستدرت بعيدًا، لكنها أمسكت بكفي، وقالت وهي تعيدني إليها:

"حسنًا، لتخبريني الآن، أعلم أن الحديث كان بشأني".

"أجل ".

قلت، وأنا غير قادرة على إخفاء أي شيء عنها .

"لا يروق لـ(بابا) سلوكك الذي يراه غير محترم ".

"ومن يبالي!"

قالتها، وهي تحرر كفي وتهز كتفيها بلا مبالاة

"كل ما أنشده هو أن أخرج من هنا ".

"وماذا عن جمال؟ ما الذي قد يقوله عنك؟"

"جمال لا يبال بهذا هو الآخر ".

لم أصدق ما تقوله .

"سيدتي، من فضلك خذي فستانك".

كان هذا صوت (كريمة) قادمًا من الردهة؛ حيث وقفت وهي تحمل فستاني. بدا الفستان كما لو كان زيًّا مدرسيًّا، أزرق اللون بياقة واسعة تلتف

حول رقبتي مثل الحبل، ثم تتشابك أسفل ذقني في عقدة كبيرة. بينما كان هناك حزام ووشاح من نفس اللون مربوطان في الخلف .

انتزعت (راوية) الفستان من يد (كريمة) وصرفتها. ثم قذفت الفستان على الفراش في نفور.

"أهذا ما أتى به أبوك من أجلك؛ لترتديه في تلك المناسبة الخاصة؟ "

لابد أن صوتها المرتفع الساخط قد بلغ كل مكان في الشقة .

"أهذا فستان، أم زي راهبة؟ "

غمرني سلوكها المحتد بالذعر، كانت تتحدث بعنفٍ كشخص يبغي افتعال المشاكل .

"هل يتوقع أبوكِ حقًّا؛ أن ترتدي شيئًا مثل هذا؟ "

قالتها، ثم التقطت الفستان من الفراش، وألقته على الأرض .

اندفعت أمي نحو الحجرة وأبي في أثرها. لكن (بابا) عاد، وتقدمها وسار مباشرةً نحو (راوية) .

"ابعدى عن أختك ".

"ألم يكن ممكنًا أن تجد ثوبًا أفضل من هذا الخيش؟ "

سألته دوأن ترمش، في تحدٍّ، ووجهها في مواجهة وجهه تمامًا .

"إنه من نسيج رائع يا راوية ".

قالتها أمي؛ لتخفف من حدة التوترالذي تصاعد في سرعة.

"وما هذا الحبل الذي على أختي أن تربطه في الظهر؟ "

قالتها (راوية) في سخرية متجاهلة أمي، وهي تشيرللحزام المثبت على ناحيتي الخصر، وأكملت:

"لم تعد (ليلى) تلميذة المدرسة بعد الآن! لا أفهم؛ لماذا لا يمكنها ارتداء ثوبي الأسود".

نظرت (راوية) إلى أبي بعيونٍ يملؤها التحدي. بدا أن صبر أبي قد نفد تمامًا أمام إيماءتها الجامحة وتهكمها الغاضب. تقلصت عضلات وجهه، وزم شفته العليا -كدلالةٍ للغضب كنت أعرفها- فانزلقت قطرات من العرق فوق ظهري وجبهتي .

رفعت (راوية) بالفستان الأسود، كما لو كانت تلوح به في وجه أبي. شحب وجه (بابا)، فرفع كفه وهوى به على خدها في صفعةٍ عنيفة. فسقطت على الفراش. غطت خدها بيدها؛ لتخفى العلامات الحمراء الدامية، وعيناها تقذفان (بابا) بالشرر، وهتفت:

"هذا لن يوقفني، فدومًا سأكون هنا كي أحمي (ليلى) منك ومن طغيانك ".

تلاحقت أنفاسي في تلك اللحظة، واندفع أبي ليصفعها مرةً ثانية، لكن (ماما) أمسكته من كتفه، وهى تبعده عن الحجرة. هرعت (عمتي عقيلة) نحونا مجذوبة بالصراخ، وشرعت في تهدئة (راوية). لكن (راوية) لم تهدأ. التقطت الفستان الذي اشتراه (جمال) لها، ثم جذبت حقيبة من أسفل الفراش وأخذت في تعبئتها بملابسها .

"إلى أين أنت ذاهبة؟ "

سألتها في قلقٍ وذعر، لكنها واصلت حشو الحقيبة بملابسها الجديدة وأدوات التجميل، ثم غادرت الحجرة. رحت أتبعها مع (هالة) بينما أغلق أخواي الصغيران باب حجرتهما عليهما في ذعر. تبعتنا (عمتي عقيلة، وفريدة) إلى الردهة، وهما يحاولان إيقاف (راوية). وركض أبي خلفهم، لم ينتظر (رضا) قدوم أبي ليسيطر على الوضع. اندفع نحو (راوية) لكن (ماما) وقفت بينهما؛ لتمنعه من ضربها .

"عودي لحجرتك يا راوية!"

أمرتها (ماما)، لكن (راوية) لم تتحرك .

همست بالفرنسية في أذنها :

"لا تتركيني ".

لكن (رضا) صرخ فينا:

"توقفا عن الهمس، وتوقفا عن الحديث بالفرنسية ".

لكنني تجاهلته، وواصلت الحديث بالفرنسية قائلة:

"دعيني أرحل معك ".

"لا يا ليلى، سوف يقتلونك. أنت لم تتزوجي بعد ".

قالتها بالفرنسية، وأمسكت بيدي، ثم دارت بي متجهة نحو حجرتنا، قبل أن تغلق الباب علينا. وأكملت:

"لم يحن الوقت لتغادري هذا البيت بعد، لن يسامحوك أبدًا على العار الذي سوف تجلبينه للعائلة لو فعلت ".

ثم زفرت في إحباط، وقالت:

"سوف أبقى من أجلك ".

شعرت ببعض الارتياح، وبعد وقتٍ عادت (راوية) للكلام مرة أخرى:

"لن ترتدي ليلى. قطعة الخيش هذه، أليس كذلك؟ "

قالتها بصوتٍ مرتفع ليسمعها أبي، ولم ننتظر طويلًا، قبل أن يطرق ثانيةً باب حجرتنا، فتحت (راوية) الباب، فوجدت (بابا) أمامها. تجاهلها وتحرك مباشرةً نحوي، وقال بهدوء:

" ابنتي العزيزة، يمكنك ألا ترتدي هذا الفستان طالما لا تحبيه ".

وعندما غادر أبي الحجرة؛ منحتني (راوية) ابتسامة ظافرة فاحتضنتها. هنا انطلقت نحو الدولاب، وأخرجت منه بلوزتي الفضية، وتنورتي الصوفية السوداء الضيقة. قذفت بهما فوق الفراش، وقالت بانتصار:

"ارتدي هذا!"

شعرت بالقوة في تلك الليلة وأختي بجانبي، ورحت أتطلع لتلك اللحظة التي يمكنني فيها مواجهة أبي مثلما فعلت. وبينما مازلت منتشية بقواي المكتسبة سألتها؛ عما إذا كان رقم (غسان) مازال بحوزتها. فأجابت مبتسمة:

"بالطبع معي، لقد سجلته في ورقة وخبأتها خلف المرآة ".

ثم أردفت :

"في الغد؛ حين نخرج مع زوجينا سوف نتصل به ".

"وكيف سنفعل ذلك؟"

"لا تقلقي، سوف أهتم بكل شيء ".

ثم ربتت على ظهري، وقالت:

"والآن لنأخذ حمامًا ونستعد ".

احتضنتها، ثم رحت أغني أغنيتي المفضلة، وأنا أستحم بالماء البارد .

"-هاقابله بكره وبعد بكره وبعد بعده ".. .

رحت أردد المقطع بصوتٍ مرتفع، غبت عن العالم كله، وأنا أغني بصوتٍ حلو، حتى سمعت صوت أمي وهي تصيح:

"-الحمد لله أنك سعيدة. هل كل هذا من أجل فاروق؟ "

أردت أن أخبرها بحقيقة خططي، ولأنني أعلم ما قد تبديه من قلقٍ حينها، فقد أحجمت واكتفيت بأن أومأت إليها وابتسمت .

أنهيت استحمامي، وعدت ثانية إلى غرفتي، وهناك رأيت بين يدي (راوية) علبةً صغيرةً مزينة بالزخارف الذهبية والحمراء. كانت في الأصل صندوق حلوى، وبداخلها كان هناك الكثير من طلاء الشفاه المختلف الألوان، و(الماسكارا) السوداء، وعلب بودرة، وأنبوبة كحل .

"-من أين جئت بكل هذا يا راوية؟ ومنذ متى وتلك الأشياء هنا؟"

obeikandl.com

"أمتلكها منذ عام كامل، هل تذكرين (مارى مزراعي)، صديقة الدراسة، تلك الفتاة اليهودية، لقد باعتني إياهم".

"وهل استخدمتي أيًّا منهم من قبل؟ "

قلتها، وأنا أنظر لكل شيء في شغف .

"ليس بعد. لقد احتفظت بهم من أجل المناسبة الملائمة. هل ترين كم أنا ماهرة؟ لقد أخفيت الأمر عن الكل، حتى أنت ".

قالت مبتسمة في فخرٍ بنفسها، ثم أشارت نحو رأسي، وأكملت:

"منذ اليوم. أريدك أن تستخدمي هذا ".

أومأت موافقة، فقالت:

"والآن استلقي على ظهرك؛ كي أضع (المكياج) على وجهك ".

رقدت على ظهري بتردد، وأنا أخشى غضب أبي لو رآني بهذا المكياج، لكنها قالت:

"إياك أن تخافي من أي أحد، مهما كان هذا الشخص، يعتقد الرجال أنهم يقومون بما يأمرهم به القرآن، لكنهم في الحقيقة لا يفعلون. نحن بالنسبة لهم لسنا إلا متاعًا يمتلكونه. ولهذا علينا أن نقاومهم ".

"وحتى أبي؟"

"طبعًا، وبابا أيضًا ".

"حسنًا، سوف أتحلى بالشجاعة " .

كنت أعني ما أقوله، أغلقت عينيَّ وجعدت شفتيّ. بينما تمتمت (راوية):

"أخشى أن يمضي وقت طويل، قبل أن تفعلي ما قلتيه، أنت رومانسية وهذا يجعل منك هدفًا للتلاعب "

كتمت (راوية) أنفاسها وهي تقوم بتحديد عينيّ، وفعلت نفس الشيء كي أساعدها. ثم همست بعدها:

"يمكنك التنفس الآن".

" وهل يمكنني فتح عينيَّ؟ "

"كلا، انتظري حتى يجف الكحل، والآن اسمعي، من الغد سوف نغدو أنا وأنت شبه أحرار، إن كلمة شبه هذه لا تعني الكثير، لكن يمكننا استخدام تلك الحرية المحدودة في فعل ما نريد ".

قالتها، وفرقعت بأصابعها .

"ماذا تريدين مني أن أفعل؟ "

"حسنًا. ألا تريدين رؤية غسان؟ إن هذا ما أعنيه. الآن أنت قريبة من نيل حريتك، ومع هذا لا تعلمين حتى ما عليك القيام به لتنعمي بتلك الهبة الثمينة ".

أومأت بالموافقة وأنا أشعر بانزعاجها..

"أريدك أن تقفي في وجه (بابا) وأن تحاربيه، لو أمرك بشيء لا تحبيه، فكل ما عليك فعله؛ هو أن تقولي "لا."، وهذا الأمر يسري على كل الرجال الذين قد تقابليهم في حياتك، بل وحتى غسان ".

"وهل قلت يومًا لا لجمال؟"

"كلا، لم أفعل، فهو لم يطالبني يومًا بفعل شيء ما لا أرغب فيه ".

قالتها ضاحكة.

"وهل طلب منك (جمال) ممارسة الجنس؟ "

"الرجال لا يطلبون ممارسة الجنس يا ليلى، إنهم ببساطة يفعلون هذا ".

"ولم لا تقولي لا، لجمال؟"

"ولماذا أفعل؟ جمال زوجي ، لكن (غسان) ليس زوجك بعد. وعليك ألا تسمحي له بتقبيلك حتى ".

"لكنني أريده أن يقبلني ".

فتحت عينيَّ

"إذًا قولي لا بعد أن يقبلك، فقط تذكري ألا تخلعي سروالك الداخلي ".

ضحكت من كلماتها.

"انظري، سوف أنصحك بنصيحة عليك أن تلتزمي بها ما دمت حية".

انتظرت ما سوف تقوله في حماس.

"الرجال لا يريدون إلا أمرًا واحدًا فقط من النساء. الجنس، ولهذا إياك أن تصدقي أي رجل يخبرك أنه يحبك. استغلى الرجال كي تصلي لأهدافك، ومن الأفضل لو استطعت تنفيذها بنفسك ".

"أتمنى ألا تقصدي (غسان) بكلامك".

"أجل. أليس رجلًا كالآخرين".

قالتها مقاطعة وغمغمت:

"يبدو أنك في حاجة للمزيد من الدروس، أكثر مما اعتقدت ".

تجاهلت تعليق (راوية)، وأغلقت عينيَّ ثانية ، كي تستطيع استكمال وضع الكحل. وقلت:

"أنا لا أعرف؛ كيف أتعامل مع تلك الحرية؟"

"الحرية طريق طويل ممتد أمامنا، وأنا وأنت سوف نتعثر بلا شك في الكثير من العقبات، قبل أن نصل إلى الشاطئ الحقيقي لاستقلالنا ".

دخلت (أم زبيدة) الحجرة وهي تحمل كوبين من الليمون البارد فوق (صينية) من الفضة. وقالت:

"اعتقدت أنكما ربما كنتما بحاجة لبعض الانتعاش، قبل أن تخرجا لمقابلة الضيوف ".

ولتشيع البهجة في نفسي؛ عرضت (أم زبيدة) أن تقرأ أوراق الكوتشينة لي، لم يكن هناك ما قد أتمناه حينها أكثر من هذا. كانت خادمتنا تجيد قراءة

المستقبل في القهوة التركية، وأوراق الكوتشينة، وأوراق الشاي. أحكمت إغلاق الباب لأن أبي كان يمنع فعل هذا داخل البيت، ثم انضمت لنا (راوية) رغم أن عبوسها أخبرني؛ أنها تود لو استكملت تزييني .

"دعونا نفعلها بسرعة، قبل أن يأتي أحدهم ويسأل عنك ".

قالتها (أم زبيدة)، ثم جلست القرفصاء وبنفاد صبرٍ؛ رحت أرمق أوراق حظي، بينما شرعت (أم زبيدة) في ترتيب الورق، وهي تسأل يسوع المسيح وأمه أن يلهماها رؤية المستقبل الغامض، والذي أشارت إليه بلفظ (المستخبي) بعدها وضعت في يدي ورقتين. الأولي كانت تحمل صورة الولد وهو ما يمثل (فاروق) والثاني كانت تحمل صورة الملكة وهو ما كان يمثلني، ثم قالت (أم زبيدة):

"والآن. قربي ورقة الكوتشينة من شفتيك، واهمسي لها بسؤالك وأمنيتك ".

همست بصوتٍ بالغ الخفوت، كان من المستحيل أن تسمعه هي أو (راوية).

"هل فاروق سوف يطلقني؟ وهل سأتزوج بغسان؟"

وببطء راحت (أم زبيدة) ترتب البطاقات في ثلاثة صفوف كل منها يحوي تسع أوراق، ثم أخذت نفسًا عميقًا بعدها، وتكلمت:

"عزيزتي، سوف تعبرين المحيط وسوف تعيشين بعيدًا عن هنا ".

"مع من؟ "

"هل أواصل؟ "

رمقت أختي.

"نعم بالطبع. أكملي ".

أجابت (راوية) بضيق. أعادت (أم زبيدة) ترتيب البطاقات ثلاث مرات، وجبينها معقود في قلق. فأعدت السؤال:

"ما الذي تقوله الكوتشينة؟ "

لكن (أم زبيدة) عادت لتحدق في وجه (راوية) التي قالت لها:

"هيا قوليها بسرعة ".

عادت (أم زبيدة) لتنظر إليّ وقالت:

"الأوراق تقول: أن زواجك لن يدوم طويلًا ".

"هذا هو كل ما كنت أتمنى سماعه ".

وقفزت بعدها من فوق الفراش، وقلبت الأوراق قائلة:

"لقد منحتني أوراقك الأمل، يمكنك أن تذهبي الآن ".

وحتى وأنا أعلم أن الأوراق لا تخبرنا بالمستقبل، إلا أن علمي أن زواجي لن يستمر أشعرني بالسعادة .

"أنت لا تحبين فاروق؟ "

سألت (أم زبيدة) في عبوس، لكن (راوية) سألتها أن تغادر الحجرة قبل أن أجيب. فقالت وهي تغلق الباب وراءها:

"أسأل الله أن يمنح روحك الشابة الراحة، وأن تنالي كل ما تتمنيه ".

وبينما كنت أنتظر مع (راوية) استدعاء أبي لي لأذهب للصالون؛ رحت أنظر إلى نفسي في المرآة. إنها المرة الأولى التي أجرؤ فيها على وضع مساحيق التجميل. لم أفرط في استخدامه؛ لأنني أردت أن يكون مجرد تعبير عن تمردي. ورحت أتمايل بسبب حذائي المرتفع الكعب لنحو (5 بوصات). بينما جعلتني تسريحة الشعر أبدو وكأنني أكبر من (راوية). لم تعجبني الطريقة التي كنت أبدو عليها أو ما أشعر به. كنت أبدو كالمهرجة. أما تلك الفتاة ذات الآمال والتطلعات، تلك الفتاة غارقة في حب (غسان)، فلم أرها في المرآة.

دخلت أمي الحجرة، وقد بدا على وجهها الحزن والعجز. كنا كثيرًا ما نتحدث سويًا عن أحلامي في أن أصير صحفية وأن أجول كل أنحاء العالم، بل ووعدتها أن أصطحبها معي في رحلاتي، وفي ذلك الوقت كنت أعلم أنها تتمزق في داخلها، وهي ترى مستقبلي يضيع .

اقتربت مني وقالت:

"أسأل الله أن يحفظ كل هذا الجمال ".

"حقًا يا ماما؟ هل أعجبتك؟ "

مزجت تساؤلي ببعض السخرية .

"نعم، وكذلك راوية. لقد قمتم بعمل رائع، حتى أنني أفكر في أن ألغي موعدي لدى مصفف شعري. كم أنت جميلة يا ليلى ".

أخذتني أمي بين ذراعيها، لكن عناقها فشل في تخفيف معاناتي، كانت تعلم بهذا، ولدقيقة أطبق الصمت علينا. وفجأة اندفعت الكثير من النساء إلى الغرفة مصحوبة بالزغاريد. بددت زغاريدهم السكون، وأفسحت كل واحدة منهن المجال لأحبالها الصوتية لتعبر عن فرحتها. هنا حلت أمي عقدة لسانها والتحقت بتلك السيمفونية؛ لتخرق طبل أذننا بزغرودتها الأكثر قوة. امتلأت الغرفة بالنساء الذين راحوا يهنئونني بالأحضان والقبلات,

وعندما انتهت النساء وصرت بمفردي في الحجرة. نظرت في المرآة لأدرك أنني لم أتعرف على نفسي. كان وجهي ملطخًا بكامله بمختلف أشكال أحمر الشفاه، كما انهارت قصة الشعر التي اجتهدت أختي في تشكيلها فوق رأسي .

وقفت شاعرة بالخدر وأنا أتساءل: متى أستيقظ من هذا الكابوس؟

"كم مرة أخبرتك فيها ألا تستعملي المكياج؟ "

هدر صوت أبي. لم يكن هناك من إجابةٍ عندي سوى نظرة تعبق بالكراهية. تجاهل (بابا) تلك النظرة، وقال في حزم:

"اذهبي لتغسلي وجهك، ثم صففي شعرك ".

قالها ثم بصق، شعرت بالمهانة فجريت نحو الحمام، وأنا أنظر من فوق كتفي لأرى إن كان هناك من شهد ما قد حدث للتو. فرأيت (فاروق) واقفًا في الرواق ، وكانت (راوية) في أعقابه. بينما دخل أبي غرفته، وأغلق الباب خلفه في عنف .

"ألست أنت زوج (ليلى) المنتظر؟ "

كان صوت (راوية) يرتعش في غضب,

"ألا يمكنك أن تحمي زوجة المستقبل؟ "

"إنه والدها، وطالما تعيش (ليلى) معه، فإنه الوحيد المسؤول عن تربيتها ".

لم يكن ممكنًا أن أكره (فاروق) أكثر من ذلك في تلك اللحظة، كانت حقيقة أنه غير مستعد لشغل دوره كزوج لي. قد ملأتني بالنفور وعدم الاحترام. وفي ذلك الوقت؛ أدركت أن كفاحي من أجل الطلاق لن يكون سهلًا كما تخيلته .

غسلت وجهي وعدت لحجرتي ثانية؛ حيث وجدت أمي تبحث عني لتخبرني؛ أن أبي و(فاروق) قد وقعا على عقد قراني، لقد خططوا حياتي وانتهى الأمر، ولم يكن هناك من خيار أمامي غير القبول. كنت أشعر بالخدر يزحف من رأسي إلى أخمص قدمي. بينما كان (فاروق) متلهفًا ليقدم لي الشبكة ,

"دعينا نذهب للصالون لترتدي شبكتك ".

قالت (ماما) لي بصوتٍ متهدج. لكني أجبتها معترضة:

"أخبري فاروق أن يأتي بها إلى هنا ".

لم ينتظر (فاروق) أمي، واقتحم حجرتي مع (هيثم) بلا دعوة، كنت أقف في تلك اللحظة وجهًا لوجه مع حماي، الرجل الذي طالما سمعت عنه، الرجل الذي ستظل جرائمه ملتصقة للأبد بالاسم المدون في شهادة ميلادي (براءة) .

تطلعت إلى جسده العملاق، وأنا أفكر في كل الشباب الذي قتلهم. وأنا أتخيل كم الألم والرعب الذي شعر به هؤلاء الشباب قبل موتهم. جف حلقي وغاص قلبي في صدري، تمنيت لو ابتلعتني الأرض في أحشائها بعيدًا عن (فاروق) وأبيه .

لابد وأن تعبيرات الخوف على وجهي، كانت واضحة لـ(فاروق) وأبيه، فقد نظرا إليَّ بضيق. غادرت (ماما، وراوية) الغرفة بهدوء تاركة إياي مع (فاروق) وحماي. مد (فاروق) يده نحوي وأمرني أن أقترب منه. لكنني رحت أتراجع للخلف أكثروأكثر مع كل خطوة يخطوها (فاروق) نحوي .

وقف أبوه خلفه، وقد سد بجسده فتحة الباب، بينما كادت رأسه أن تلمس الإطار العلوي للباب. كانت بطنه منتفخة، كما لو كان امرأة حبلى على وشك الولادة. ظل (فاروق) يرمقني بثبات بعينيه السوداوين الغائرتين والتي بدتا باردتين بلا حياة، كان أنفه ضخمًا كأنف والده، وكان هذا يخيفني، وارتجفت من الخوف. بينما راح (هيثم) يهنئني دون أن يصافحني قبل أن يخرج .

اغتصب (فاروق) ابتسامة من فوق وجهه الغاضب، وبدأ في ممارسة سلطته: " أنت زوجتي الآن. وأتوقع أن تتعاملي معي وفقًا لهذا ".

" قلت بإصرار: "ليس قبل أن أغادرهذا البيت ".

أخرج من جيبه صندوقين صغيرين مبطنين بالمخمل الأزرق الداكن، كان بداخل كل واحدٍ منهما خاتم زواج. وأدرك (فاروق) من سلوكي معه: أنني لن أتبع التقاليد ولن أضع الخاتم في إصبعه. لهذا فقد التقط الخاتم الأكبر ووضعه في إصبعه بنفسه .

"أنت مدعوة للغداء في منزل عائلتي في الغد "

قالها، وهو يشير بإصبعه في وجهي ثم غادر الحجرة. لكنها عاد بعد دقائق معدودة في رفقة أبي الذي سار مباشرة نحوي حيث كنت أقف .

وضع أبي في يد (فاروق) ثلاث علبٍ صغيرة وأمسك بيدي، وطلب من (فاروق) أن يضع الخاتم في إصبعي. راح (فاروق) يدفع خاتم الزواج في إصبعي غير المتعاون ثم أتبعه بخاتم آخر من الماس. أخفيت ذراعي خلف ظهري بعدها، وأنا أقوم بمحاولة فاشلة لخلع الخواتم من إصبعي .

أمسك (فاروق) بالصندوق التالي، والتفت نحو أبي طلبًا للمساعدة دون أن يتكلم. سلمت له رقبتي، فأحاطها بسلسةٍ تنتهي بقلادة من الماس. بدت السلسلة والقلادة كطوق يستخدمها للتحكم في، وفي النهاية كبلوا ذراعي بإسورتين من الماس .

تركاني بعدها، ومازلت واقفة في الحجرة. واقعة في الحيرة بعد نوبة التحدي التي أظهرتها. لكنهم فارقوني ونظرة انتصار تلتمع في عيونهم، نظرة كانت تعبق بالرضا، نفس النظرة التي قد يراها المرء في عين مدرب الحيوانات بمجرد أن ينجح في ترويض قطه المتمرد.

لابد وأنني لم أبدو سعيدة حين دلفت الصالون. لأن المدعوون بدأوا في الهمس، واحد تلو الآخر وهم ينظرون نحوي بإشفاقٍ، وبعضهم يربت على ظهري. أخذتني (ماما) بين ذراعيها وقبلتني، ثم راحت تتحدث عن لطف (فاروق) وهي تحاول عبثًا أن تقنعني بأن أمنحه فرصة ما. كنت أعلم أن (ماما) كانت تدعم رغبتي في الاستقلال، وممارسة حقي في اختيار طريقي، ولهذا كان دعهما الخفي خير داعم لخططي المستقبلية. تحركت كالشبح نحو غرفة الصالون؛ جلست على حافة مقعد، وشددت طرف تنورتي لأسفل كي تغطي ركبتي. بينما جلس (فاروق) في مقعدٍ آخر قريب مني.

لم تكن (راوية) موجودة، هنا وقفت وأنا أتوقع أن يمنعني (فاروق) من الانصراف، لكنه لم يفعل. في نفس الوقت انشغل المدعوون بالطعام والشراب؛ بينما راحت الجدران تردد صدى الموسيقى والأصوات الصاخبة للحضور. ولهذا لم يلحظني أحد وأنا أغادر للبحث عن أختي. ذهبت أولًا إلى حجرة النوم، لكنها لم تكن هناك. كان أبي قد ترك باب غرفته مواربًا، وخلال الضوء المتسرب من الخارج؛ رأيته جالسًا على مقعده متربعًا. وقد أراح جبهته على كفيه . دفعت رأسي خلال فتحة الباب

"لقد رحلت "!

غمغم أبي، كنت أعرف أنه يعني (راوية) ,

"الي أين، وماذا فعلت بها؟"

كان مهزومًا تمامًا، وحمل صوته نبرة انكسار غريبة. طلب مني أن آتي بأمي، لكن دون أن يشعر المدعوون. كنت أدرك أنه رغم ما قاله أبي من قبل عن رغبته في أن تغادر (راوية) البيت؛ إلا أن رحيلها في هذه اللحظة سيكون فضيحة للأسرة .بحثت عن أمي في فزع، حتى وجدتها في الصالون، ترعى الضيوف. همست في أذنها : "أبي يريد أن يتحدث إليك ".

وعندما رأت النظرة القلقة على وجهي؛ رسمت على وجهها ابتسامة مرحة واستأذنت الضيوف. وفي طريقنا أخبرتها باختفاء (راوية). اضطربت أنفاسها في غير تصديق، وبدأت تولول: يا للفضيحة.. يا للفضيحة!"

راحت تكررها مرةً بعد مرة، بعدها اختفت في حجرة نومها؛ بينما انتظرت أنا على أحر من الجمر في غرفتي، وبعد قليل عادت إليّ، بدت وكأن الحياة تغيض من وجهها، وهي تمسح بمنديلها قطرات من العرق البارد تفصدت فوق جبينها .

"يا للمصيبة، يا للفضيحة، يا للعار!"

وراحت تدور في الغرفة في جنون.

في تلك الليلة؛ ظلت (عمتي عقيلة) مع الضيوف حتى انصرفوا، بينما مكثت في غرفتي أصلي وأدعو الله أن تعود (راوية) مرة أخرى. لقد وعدتني ألا تتركني، وكان هذا الوعد هو ما أشعرني حينها ببعض الأمان .

وبمجرد انصراف آخر ضيفٍ؛ سمعت أمي تتحدث في التليفون، وعندما سمعتها تطالب (جمال) بأن يعيد (راوية) للمنزل ثانية، شعرت بالراحة رغم خوفي من رد فعل أبي نحو (راوية) . وبعد حوالي نصف الساعة، أعاد جمال راوية مرة أخرى، ثم غادر على الفور، بينما تحركت (راوية) نحو حجرتنا، كان وجهها مشدودًا، وقد فقد الكثير من نضارته. بينما بدت (ماما) شاحبة هشة، وهي تلحق بـ(راوية) في غرفتنا، أغلقت الباب ثم قبضت على كتفي (راوية) بحزم، وقالت بانكسار: أنت مازلت عذراء؟ هذا صحيح؟ "

"لقد دعاني (بابا) بالعاهرة يا ماما ".

أجابت راويه بلا مبالاة. ثم أضافت: "لقد أخبرته؛ أنني قد عرفت كل شيء عن الجنس، وأنا داخل جدران هذا البيت، الذي أبقانا فيه كالسجناء، وجعل من (رضا وأحمد) حراسًا علينا؛ للحفاظ على شرفنا كما كان يظن ".

قالتها، وأطرقت نحو الأرض؛ بينما اتسعت عينا أمي في غير تصديق .

"لكن أبي لم يصدق ما سمعه، وأمرني أن أغادر البيت وألا أعود إلى هنا مرة أخرى ".

قالتها بهدوء وتصميم وثقة، وكأنها تخوض نضالًا. أشاحت أمي بوجهها بعيدًا عن عيني (راوية) المتضرعتين، وهتفت: كفي عن اختلاق القصص والشائعات الكاذبة عن إخوتك".

قالتها، وهي تمسكها من كتفيها وتهزها .

"سوف تتسببين في تدمير سمعة أسرتنا بهذا. ما كان عليك أبدًا أن ترحلي، فأبوك لم يقصد أبدًا أن يطردك من البيت ".

"إن شاء الله (اعمى) لو كنت أكذب ".

قالتها، وعيناها مغرورقه بالدموع. رغم هذا، فلم يصدق أي منهما تلميحات (راوية)، لا أبي ولا أمي، لقد آمن كلا والدينا أنهما قد قاما بواجبهما في حفظ بيتنا من كل إغراءات الرجال، ولهذا فقد تناسيا ما قالته (راوية) .

لزم ثلاثتنا الصمت في حجرتنا لبعض الوقت، وقد بدا وكأن واحدًا منا لا يدري ما يقوله. وخاصة أمي، لقد زوت تلك النظرة الباسمة التي منحتها لنا من قبل، وقد احتشدت التجاعيد في وجهها فبدت أكبر سنًّا. بدا وكأن أمي غير قادرة على تحمل كل ما حدث. الفضيحة، الاحتفال، عذرية راوية، وبابا نفسه فوق كل هذا. لقد هشم هذا العبء أي فرحة في روحها .

شعرت بالشفقة عليها مع إفساد تلك الليلة وعانقتها بقوة. هنا غمغمت (راوية) وهي تمزق حاجز الصمت في صوتٍ أجهده القنوط:

"ماما، أقسم أنني مازلت عذراء ".

هنا أشرق وجه أمي في فرحة؛ بينما أغرقنا وجهها بالقبلات وجففنا دموعها .

إلا أنني كنت أشك في قسم (راوية).

(20)

سهرت أنا و(راوية) لوقتٍ متأخر ليلة عقد قراننا، فقد كان في جعبتنا الكثير لقوله. علمت بشكل ما أن (راوية) قد كذبت على أمنا. وكنت بالكاد أستطيع السيطرة على ما يعتريني من قلق، وأردت سماع ما لديها من تفاصيل .

"لدي شيء أود أن أخبرك به يا ليلى، ولكن تذكري وعدك بألا تسيئي الظن بي".

"نعم، أتذكر" .

"هل تذكرين (أنور) زميل أبي في العمل؟"

"أجل" .

"لابد وأنك تذكرين -أيضًا- (فؤاد) ابنه الوسيم" .

لم أفهم ما علاقتهما بأي شيء.

تسللت (راوية) باتجاة الباب وألقت نظرة خاطفة؛ لتتأكد من عدم وجود من يسترق السمع لحديثنا.

"العام الماضي خلال الاحتفال بنهاية موسم الحج في مكة تبادلت أنا و(فؤاد) القبلات" .

تصارعت الأسئلة فى رأسى: "كيف وأين قابلتِ فؤاد؟ ومتى حدث ذلك؟"

"أتذكرين اليوم الأول من العيد الكبير من كل عام، وكيف يجتمع الآباء لذبح الأضحية بعد الصلاة على سطح المنزل.." ابتسمت (راوية) ابتسامة ذات مغزى، وأردفت: " لقد أخفيت عليك ذلك السر نظرًا لحداثة سنك خشيت أن تقلديني " .

هززت رأسي على نحوٍ رافض لتقليلها من شأن نضجي. ولكن ذاك كان طبع (راوية)، كانت تحميني وتعلم أنني لم أكن مستعدة لسلوكها الأرعن الجامح.

openkanadi.com

عبرت (راوية) الغرفة نحو الشرفة، ثم قالت: "أتذكرين حين كان أبي والصبية الكباريغادرون في الصباح الباكرمن أجل صلاة العيد، وتصعد باقي العائلة إلى السطح لمشاهدة الأضحية وهي تُنحر؟ "

"نعم أذكرذلك".

استدارت (راوية) مواجهة إياي ":ليلى، لن تظني أنني فتاة مستهترة كما يقول أبي، أليس كذلك؟"

حركت رأسي نافية مخاوفها، لا يمكنني قط رؤية (راوية) كفتاة مستهترة. إلا أنها كانت لا تزال تجد صعوبة في اعترافها لي، وأخذت تدور حول الموضوع بينما ينفد صبري أكثرفأكثر.

"كم عدد المرات التي سمعتِ فيها أبي يتهمني بأنني فتاة متسيبة؟ أنتِ تعلمين أنني لست كذلك، إلا أن إصراره على نعتي بالمتسيبة، جعلني أفكرولم لا؟ حتى أصبحت كذلك بالفعل".

"هل تريدين إخباري أنك فقدت عذريتك؟"

"كلا، ليس هذا ما أعنيه، أحاول فقط أن أوضح لكِ؛ لِمَ تركت (فؤاد) يقبلني".

تنهدت في ارتياح.

"حسنًا، فبينما كنتم جميعًا تتمتعون بمشاهدة نحر الأضحية، كنت أمكث أنا و(فؤاد) بمفردنا في الشقة لتبادل القبلات والعناق".

فغرت فاهي في ذهول: "هل أغتصبك؟"

"كلا، بالطبع لا".

"لقد ظننت أنك حين تقبلين فتى، يجبرك على ممارسة الجنس معه، ويُفقدك عذريتك فتنزفين".

"لم أمارس الجنس، ولم أنزف أية دماء".

"ولكن كيف بدأ اللقاء؟" كنت بالكاد ما أصدق ما أخبرتني به (راوية) لتوها، وشعرت بحاجتي إلى سماع ما حدث بينها وبين فؤاد مرة أخرى، ولكن من البداية.

أخذت (راوية) نفسًا عميقًا قبل أن تقول: "اعتدت على مشاهدة التليفزيون في الوقت الذي كانت تصعد فيه باقي أفراد العائلة إلى السطح لمشاهدة نحر الأضحية. وفى هذا اليوم دق جرس الباب؛ لأجد أمامي شابًّا وسيمًا لم أره من قبل، يسأل عن أبي. سألته من يكون، فأجاب أن اسمه (فؤاد) وأنه قد أتى ليأخذ نصيب العمال في الموقع من لحم الأضحية، كما هو معتاد بعد الذبح. وحين التقت عيني بعينيه تثلج لسانى وجدتني بالكاد ما أستطيع الكلام. تمتمت بكلمات غير مفهومة، فقال مجيبًا ارتباكي؛ أنه لو كان والده قد أخبره أن لدى السيد (كمال) ابنة جميلة مثلي؛ لاستجاب لطلبه بالقدوم إلى منزلنا في الحال دون نقاش. سحرتنى ابتسامته وتبادلت معه الحديث حتى اقنعته بانجذابى له."

لم أستطع تخيل قيام (راوية) بمثل هذا التصرف مع شاب غريب، إلا أن شجاعتها أبهرتني.

"أخبرت (فؤاد) أن باقي العائلة فوق السطح، وحين سألني أن أدله الطريق؛ أرشدته عبر سلم الخدم. سألني (فؤاد) عما إذا كنت بمفردي في المنزل، ولِمَ لم أنضم لهم لمشاهدة النحر. أخبرته أن العنف لا يروق لي، فسألني عما إذا كان الحب يروق لي. وهنا رميته بنظرةٍ راغبة مثيرة، فحدث ما حدث. وقد غمرني الشعور الذي اعتراني حينها برغبةٍ في التخلي عن كل ما تعلمته عن الصواب والخطأ. كم أحببت نظرة فؤاد لى المشحونة بالشغف. لقد غرقت في عينيه، وشعرت كما لو كنت تحت تأثير التنويم المغناطيسي. وجدت نفسي واقفة على مقربة منه مفتونة تمامًا به. حاول (فؤاد) جذبي من يدي، حتى استسلمت له.

جذبني إليه أكثر، ولف ذراعه حولي. ارتجف كلانا ولكنه كان شعورًا رائعًا، ثم بدأ (فؤاد) في فك أزرار قميصه و....

وعلى الرغم من استمتاعي بسماع مغامرتها مع (فؤاد)، إلا أنني هززت رأسي مشدوهة غير مصدقة.

هزتني (راوية) ونقرتني في رأسي قائلة: "مرحبًا أيتها الرومانسية، انتظري حتى تسمعي باقي القصة.أتذكرين فيلم (دعاء الكروان) لفاتن حمامة وأحمد مظهر؟"

أومأت رأسي بنعم.

"هل تذكرين المشهد الذي قاومت فيه (فاتن حمامة) (أحمد مظهر) بينما حاول تقبيلها؟"

همست "أجل".

"حسنًا. هذا ما حدث بيننا يومها".

صحت قائلة: "هل أجبرك فؤاد على ذلك؟"

أجابت في إحباط: "كيف لـ(فؤاد) أن يجبرني وانا التى اردت ان يقبلني؟ لم أرغب في مقاومته".

تنهدت قائلة: "آمل أن يكون ذلك هو كل ما حدث بينكما. ماذا سيفعل (جمال) لو علم بالأمر؟ ليتك صادقة معي يا (راوية)، وأن تكوني لازلتِ عذراء. إني قلقة عليك".

واجهت مشكلة في فهم سلوك (راوية) الطائش، إلا أنني أردت تصديقها، لقد امتلكت شقيقتي الكثير من الشجاعة في مغامرتها.

"لا تخافي، لقد أخبرتني زميلة الدراسة (أليانور): أن الفتيات لا ينزفن من القبلة الأولى. لقد تعلمت ذلك من والدها إنه طبيب نساء".

شككت في ادعاء (راوية).

obeikandl.com

"لتخبريني في قولٍ واحد: هل أنت عذراء، أم لا؟" سألتها مباشرة، كما فعلت أمي في وقتٍ باكر من المساء.

"حين ضمني (فؤاد) بين ذراعيه، شعرت بشيء ينتصب ويلمس جسدي".

اعتاد المصريون على إطلاق لفظ (شيء) على أي ما لا يرغبون في تسميته بمسماه الحقيقي. كان ذلك جزء من الثقافة، وافترضت (راوية) فهمي لما تشير إليه، وبالفعل كنت أعلم مقصدها.

"كنا في كامل ملابسنا حينها، ثم فقدت كامل قدرتي على المقاومة، ولا أذكر ما حدث بعد ذلك".

كانت (راوية) تتحدث بلامبالاة واضحة. ولم تعجبني الابتسامة التي لم تفارق وجهها؛ وهى تسرد تفاصيل مغامرتها المخزية، ولكني لم أدرك كيف أفكر.

"أين كنتما بينما حدث كل هذا؟ أم تخشيا أن يدخل أحدهم ويراكما؟"

ردت بلا تردد أو خجل: "أوه. نسيت أن أخبرك: أنني أخذته إلى غرفتنا وأوصدت الباب".

"راوية! " أخذت نفسًا عميقًا؛ لأهون على نفسي أثر تخيلها بمفردها معه في غرفتنا.

"لا تقلقي يا ليلى، حين أراد ممارسة الجنس؛ رفضت خلع ملابسي الداخلية. نشبت بيننا حرب، لكنني فزت بها في النهاية." ارتسم على وجه (راوية) شيء من الضيق، وهي تنهي قصتها بضحكةٍ مريرة.

سألتها، ولازلت في حالة من الصدمة: "لم فعلت ذلك يا راوية؟"

"فعلت ذلك لأعاقب أبي. " واتجهت بنظرها محدقة إلى صورتها المعلقة على الحائط، وكأنها تبحث عن التصديق على ما تقول من تلك الفتاة البريئة التي كانت عليها يومًا ما.

أصاب اعتراف شقيقتي رأسي بالدوار طيلة الليل، فبينما غطت هي في سباتٍ عميق؛ سهرت أنا أفكر فيم أخبرتني به، وما إذا كانت حافظت بالفعل على سلامة عذريتها. كانت تلك المرة الأولى التي أراها فيها بصورةٍ مختلفة، لقد بدت لي ناضجة وذات خبرة. لقد أقدمت شقيقتي على فعل أشياء يحرم ديننا وثقافتنا القيام بها قبل الزواج" .

كانت (راوية) دائمًا ما تعرب عن كرهها للرجال، وطالما أخبرتني أن الشيء الوحيد الذي يرغبه الرجل من المرأة هو الجنس. لم استسلمت شقيقتي لـ(فؤاد) إذًا؟ هل كذبت (راوية) علي؟ ضجت رأسي بكل هذه الأسئلة وغيرها وسرقت النوم من عيني. وقد حاولت إيقاظ (راوية)، من فرط ما انتابني من أرق، إلا أنها كانت في عالمٍ آخر، ولم تستجب لي.

بقيت ساهرة إلى أن استيقظت (راوية) أخيرًا في الصباح: "ألا تشعرين بالقلق مما سيظنه بك (جمال) إذا علم بالأمر؟"

تثاءبت (راوية)، وظل وجهها خال من التعبيرات .

ارتعدت قائلة:

"أراهنك أن (جمال) لو علم بما حدث؛ ستكون تلك نهاية حياتك ".

كيف لا يمكن لـ(راوية) رؤية خطورة ما أقدمت عليه؟

تمطت (راوية) في فراشها، ثم نهضت وقالت هامسة في أذني: "لا تقلقي عليّ. لقد فعلت ذلك ثلاث مرات على مدار ثلاثة أعوام، في نفس اليوم لنفس المناسبة" .

فغرت فاهي ذهولًا ودهشة: " وماذا عن هذا العام، إنك الآن ملكًا لرجل آخر؟"

"سيصبح (جمال) هو سعيد الحظ الآن" .

تفحصت وجهها، فلم أجد أي شعور بالخجل يبدو عليه. أردت أن أصدق بأن لدى شقيقتي أخلاق ومبادئ، ولكنني أصبحت غير قادرة على التفكير.

"كيف يمكنك يا (راوية) أن تسلمي جسدك لشخصٍ لست متزوجة له بعد؟"

قاومت دموعها وهي تقول: "هل تذكرين حين وقعت في الحب مع جارنا؟ كنا صغارًا تملؤنا البراءة، وكان يكفيني أنا و(سامي) الوقوف في الشرفة؛ حالمين مثل (روميو وجولييت). هل نسيت ما فعله أحمد؟ هل نسيت كيف جرني ناعتًا إياي بالفتاة المنحلة؟" انكسر صوتها قبل أن تردف قائلة: " حسنًا. ها أنا ذا، ولازلت بالفتاة المنحلة في نظرهم." دلفت إلى الشرفة وقالت: "توقفي عن وعظي بشأن عذريتي، نظرًا لأن عذريتي ملكي، وأنا وحدي من له حق التحكم فيها، وتحديد كيفية التخلص منها، وليس هم".

كلماتها أربكتني، فأنا لم أفكر قط من قبل فيمن (يملك) عذريتي. وعلى الرغم من أن ما قالته (راوية) أعجبني، إلا أنني لم أكن حتى مستعدة لتصور فكرة التخلي عن عذريتي بأسلوب (راوية).

عادت (راوية) من الشرفة بخيلاء وزهو، متفحصة بشرتها في المرآة، وهي تقول وقد ابتسمت الآن: "ليلى، إن اليوم هو أول أيام حريتك! هل ترغبين في الخروج معي ومع زوجي الشرعي الليلة؟ لقد وعدني (جمال) باصطحابي لمشاهدة فيلم عربي. وأنا واثقة أنه لن يمانع قدومك معنا".

دفعني اعتراف (راوية) في الليلة السابقة إلى نسيان أمر حياتي الجديدة. وقد ساعدني وعد ليلة من الحرية الذي بدأ يلوح أمامي في الأفق؛ علة نسيان مغامرات شقيقتي الفاضحة.

"لنتصل بـ(غسان) أيضًا!"

"ليس بهذه السرعة، لنخرج مرة مع (جمال) بمفردنا بدون أية مغامرات لنختبر مدى تعاون (جمال). ثم لنرى في المرة المقبلة؛ ما إذا كان (جمال) سيرغب في تركنا في منزل (إليانور)، لقد تحدثت بالفعل إلى (إليانور) وسوف تقوم بتغطيتنا".

لقد سمحت والدة (إليانور) بزيارة صديقها لها في المنزل، كما سمحت لها بالخروج معه دون وجود وصي عليها.

قالت (راوية) مطمئنة إياي: "إن إليانور. إنسانة لطيفة للغاية وكذلك والدتها".

شعرت بارتياح: "هل تمارس إليانور، الجنس مع صديقها؟"

"كلا، لقد أخبرتني إليانور؛ أن أمها تثق بها، وأنها لن تخذلها في ذلك".

"ربما يمكنني مقابلة (غسان) في منزل إليانور".

"كلا، كلا يا ليلى، لا نريد لأحد معرفة ما نقوم به، ولا حتى والدة إليانور. تذكري أننا مسلمات".

"هل تعنين أن علينا القيام بكل شيء في السر؛ لأننا مسلمين؟"

"كلا! ولكن لأنه من المفترض ألا تتعامل الفتيات المسلمات مع الرجال".

قلت وأنا أغيظ (راوية): "ولكنني لست فتاة، فأنا عقد قراني".

"وهذا وضع أسوأ".

ازدادت كل تلك القواعد تعقيدًا، وعلى الرغم من تقبلي لها على مضض، إلا أنني قررت أن أترك كل شيء داخل رأسي يهدأ.

ثم طرأ شيء على بالي: "لن تمارسي الجنس مع (جمال) بينما أنا في صحبتك، أليس كذلك؟"

"بالطبع. لا!" ثم دارت (راوية) بعينيها، وقالت بابتسامة لاهية: "ولكن إذا مارست أنا و(جمال) الجنس في السيارة؛ تظاهري بأنك لا ترينا".

"أوه، كلا أرجوكِ. لا تفعلي ذلك بينما أنا في رفقتك، لتعديني بذلك يا راوية؟"

"حسنًا. أعدك أن نقدم لك أنا و(جمال) حبوب منومة في البداية".

صرخت.

"أنا أمزح يا ليلى".

لم أستطع تصديق تبجح شقيقتي في إطلاق النكات الجنسية. وتمنيت ألا تتسبب شجاعة (راوية) تلك في هلاكها.

obeikandl.com

(21)

باكر في صباح اليوم التالي؛ بينما كنت لا أزال في فراشي أنا و(راوية)، سمعنا صوت (فاروق) يتردد في أنحاء المنزل.

اقتحمت (كريمة) غرفتنا، وقالت وهي تفتح مصراع النافذة: "إن فاروق في غرفة نوم والدكما" .

وسمعت صوت أبي يناديني من غرفته، فوضعت (روبي) ولبيت النداء.

"الق التحية على زوجك يا ليلى، واستعدي للذهاب لتناول الغذاء مع أسرة (فاروق) اليوم" .

"لا يمكنني الذهاب اليوم يا أبي، لقد طلبت مني (راوية) الذهاب معها لمشاهدة أحد الأفلام بصحبة (جمال) وقد حجز جمال التذاكر بالفعل." كانت تلك المرة الأولى التي أكذب فيها؛ إلا أنني كنت فخورة بنفسي لأنني بدوت مصرة على ما أريد، ومالكة لزمام حياتي. ربما للمرة الأولى.

لم يعارض أبي، وطلب من (فاروق) أن يتناول معنا الغذاء بدلًا من ذلك. وأظن أن والدي لم يطق فكرة خروجي مع رجل بمفردي، حتى ولو كان (فاروق) نفسه، ووجد أن خروجي بصحبة (جمال وراوية) أكثر أمانًا .

ولم يكل أو يمل (فاروق) عبر الأسابيع القليلة التي تلت من محاولة الخروج معي بمفردنا، ولكني شعرت أن ذلك سيكون خيانة لـ(غسان)، فتملصت من دعواته قدر المستطاع. وحين لم أجد معارضة من قبل (فاروق) على رفضي المتكرر للخروج معه، جعلت الأمر روتينًا؛ يأتي (فاروق) إلى منزلنا لتناول الغذاء أو العشاء مع أبي، ويتحدث معه أبي في شؤون العمل حتى يتعب. يغادر (فاروق)، ثم يأوي والدي إلى الفراش، ولا أنضم لمجلسهما مطلقًا.

ارتاح (فاروق) لكون موعد زفافنا قد تم تحديده، وأنني سأزف إلى بيته في غضون عامين؛ حين أبلغ السابعة عشر، وجعله ذلك مطمئنًا.

أما بالنسبة لي ولـ(راوية)، فقد فتحت لنا أبواب السماء، ولم نطق صبرًا على التحليق عبرها. عشنا في أحلامنا؛ مدفوعين ببراءتنا وروح المغامرة التي تغمرنا، متناسين تمامًا حقيقة أن كل منا ملك يمين رجل .

ربما لم يختلف (فاروق، وجمال) عن أي رجلٍ آخر، إلا أنهما ينتميان لنفس ثقافة أبي وأخوتنا، لقد أصبحنا ملكية لـ(جمال، وفاروق)، ولكن هذه المرة تحت مسمى مختلف وهو (الزواج).

عملت (راوية) جاهدة على كسب ثقة (جمال) الكاملة، حتى أتمكن من تنفيذ خطتنا ورؤية (غسان)، إلا أن (جمال) لم يكن متعاونًا. لم يرضه كل ما قدمته له شقيقتي، ورفض تركنا في منزل (إليانور) بمفردنا .

لذا كان علينا اتباع سبيلٍ آخر. وافقت على الخروج مع (فاروق) في صحبة (راوية) كوصية عليّ. قبل (فاروق) ذلك العرض، وحين ضغطت عليه أكثر؛ وافق على مزيد من الشروط التي مكنتني من الترتيب لأول لقاءٍ غرامي بيني وبين (غسان)، دون أن يدري.

قمت أنا وشقيقتي في البداية بالاتصال ب(غسان).. ورتبنا مع (غسان) اللقاء داخل ترام محدد في ساعة محددة. وعندما حانت الساعة، أقنعنا (فاروق) أن الترام أكثر راحة لنا. وافق (فاروق) على ترك سيارته في الشارع واستقلال الترام بدلًا منها.

وبينما كنت أجول بعيني باحثة عن شكل (غسان) المألوف؛ التقت أعيننا لنتبادل النظرات الحانية والبسمات بين حين وآخر. الأمر الذي كان كافيًا لكل منا ولو مؤقتًا.

obeikandl.com

تطورت لقاءاتنا في ثوبها، بعد بضعة أشهر، فجمعنا الكافيه البرازيلي القابع بوسط البلد. ثم بدأت في رؤية (غسان) في صالات السينما، كنت أتصل به، وأخبره باسم السينما ورقم المقاعد التي حجزناها.

وكان (غسان) يحجز المقعد المجاور لنا مباشرة، ثم يتسلل إلى جواري حين تنطفئ الأنوار. وفي بعض الأحيان، كان يحجز المقعد الذي إلي جواري، وإلى جوار(فاروق) حتى يضمن جلوسه إلى جانبي، وكان يحك ذراعه في ذراعي.

في دار السينما: لم أستطع الاستجابة لرغباتي تجاهه كاملة، واكتفيت بالشعور بحبه عبر جسدي كله في أحلامي فقط. وكم راقت لي شعيرات يده، وهي تلمس بشرتي مشعلة بداخلي حالة من الرغبة المثيرة، والمؤلمة في الوقت ذاته.

لم يلحظ (فاروق) الأمر قط، كما أني لم أفكر في عواقب تصرفاتي على الإطلاق. الجلوس بين الرجل الذي يملكني شرعًا، وبين الرجل الذي يملك قلبي، كان أمرًا مرعبًا ومجازفة كبيرة، إلا أنني أقدمت عليها بلا ضمير يؤنبني أو نفس ترهقني خجلًا، تمامًا مثلما فعلت (راوية) مع (فؤاد) .

كان (فاروق) دائمًا ما يندمج مع الفيلم، ولم يحاول أن يمسك يدي على الإطلاق، فعلى الرغم من زواجنا، كان يحترم ثقة أبي به. أعماني القسط القليل الذي حصلت عليه من الحرية عن الأخلاق والفضيلة، علاوة على عدم رغبتي في التخلي عن المشاعر التي كانت تتملكني، وأنا جالسة إلى جوار(غسان).

كنت أغلق عينيّ، وأغرق في مقعدي؛ عازلة نفسي عما يحيط بي. تاركة إياها لمخيلتي حيث كان (غسان) يأخذني بين ذراعيه ويقبلني. وبينما لم يتلامس سوى ذراعينا؛ لم أشعر بذنب ارتكاب أية خطيئة، بل كنت أحترق شوقًا ومتعة.

مرَّ عام، قبل أن يقرر (فاروق) ممارسة صلاحياته مع زوجته. وفي عشية أحد الأيام؛ اتصل (فاروق) بأبي وطلب منه أن يسمح له باصطحابي لتناول

الغذاء مع أسرته بدون (راوية). لم يفاجئني مطلبه، كنت أعلم أنه كان عليّ مواجهة والد (فاروق) على أرضه آجلًا أم عاجلًا. علاوة على أنني رغبت في الحفاظ على ثقة (فاروق) بي؛ بعد أن فرعت جعبتي من حجج عدم زيارتي لأسرته.

مضيت صباح يوم الجمعة ذاك في قلق وتوتر، لم أعلم كيف سأواجه أسرة (فاروق). وبعد استحمامي؛ عدت إلى غرفة نومنا لأنظر ما إذا كانت (راوية) قامت بتحضير تنورتي البنية الصوفية، وقميصي ذي المربعات البيج والبيضاء. أما بالنسبة لحذائي الجلدي البني اللامع، فقد كان على الأرض إلى جوار الفراش. صففت (راوية) شعري وعقصته لأعلى، وحددت عينيَّ بكحل العين، واختارت اللون الأحمر الناعم لتلوين شفاهي.

دق جرس الباب وما إن فُتح، حتى سمعت صوت أبي وأمي يرحبان بـ(فاروق). فارتعد جسدي.

أخذت (راوية) يدي بين يديها؛ "لتهدأي يا ليلى، إنك لست مقبلة على حرب، إنها مجرد زيارة قصيرة." ثم ابتسمت

ولكني لم أهدأ.

وما أن رآني (فاروق)، حتى قطع حديثه الودي مع والداي معتذرًا، ومد يده إليّ في إعجابٍ ورغبة تفضحها عيناه ونظراتهما.

قال (فاروق) وعلى وجهه ابتسامة محب: "أهلًا بالعروسة".

لم أرد عليه؛ ولذا بدا وجهي خاليًا من المشاعر.

كان يرتدي قميصه الأزرق الفاتح ذا الأكمام القصيرة، وبنطالًا من الجبردين. انتشر عبير (كولونيا أولد سبايس) خاصة في البهو، واتسعت ابتسامته من الأذن إلى الأذن؛ كاشفه عن أسنانه الصفراء المُنظفة لتوها.

أصابني الخدر من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، وبحثت في وجه أمي الخالي من التعبير عن شيء ينقذني. إلا أنها أخذتني بين ذراعيها، وهمست في أذني: "ابتسمي." بقيت في حضنها، حتى أخذني أبي من يدي إلى غرفة الطعام.

قال لي في صوتٍ أعرفه جيدًا: "تقبلي قدرك، فأنا أعلم ما هو في صالحك، ولا تسمحي لـ(فاروق) أن يعاملك كزوجة، فأنت لم تنتقلي لبيت الزوحية بعد . "

"إن ذلك ليس قدري يا أبي، بل إنه فعلك" .

سرت ببطء باتجاه الردهة، وعيناي مترقرقة بدموعٍ شوشت رؤيتي، مد (فاروق) يده ليمسك بيدي، وبينما مددت يدي له؛ رمقت أمي بنظرة لومٍ قبل أن يغلق (فاروق) الباب خلفنا.

ساد الصمت في طريقنا إلى الطابق السفلي، ولم يُسمع سوى صوت كابلات المصعد الذي يحملنا. وقفت بعيدة عنه، في أبعد نقطة ممكنة يسمح بها المكان الصغير.

قال (فاروق) متسائلًا بمجرد خروجنا: "هل أخبرك أحدهم؛ كم أنت جميلة؟"

أردت أن أخبره: نعم. يخبرني بذلك (غسان) في كل مرة ألقاه فيها، لكنني أبقيت فمي مغلقًا.

فتح لي (فاروق) باب السيارة، وجلست إلى جانبه واضعة يدي على حجري، استقل مقعده وأدار الراديو "ما الذي تودين سماعه؟" قالها في ابتهاج جعلني أتساءل: هل يعتقد حقًّا أن هناك تجاوب عاطفي بيننا؟

أجبت محدقة عبر النافذة التي على يميني "أي شيء" .

أدار (فاروق) الراديو وقام بلمس ذقني، فأبعدت يده بعصبية، وأنا لازلت أنظر باتجاه نافذتي.

فقام بوضع يده فوق يدي المستقرة على حجري، وضغط عليها برفق. سحبت يدي وقمت بعقد ذراعي فوق صدري. شغل محرك السيارة وبدأ في القيادة، ثم قال بصوتٍ ناعم: "أعدك أن أكون صبورًا معك، وأن أبذل قصارى جهدي حتى أفوز بقلبك".

لماذا لا تصمت وتمنحني فرصة للاستمتاع بحرية أول رحلة لي بدون رقيب أو وصي؟ أود أن أقفز من السيارة وأفر هاربة. كم أحسد من يسيرون في الشارع بحرية، حتى هؤلاء المتسولين الذين يقفون في إشارات المرور.

قال (فاروق): "إنك لازلت صغيرة على فهم ما أتحدث عنه، ولكن الوقت كفيل بتغيير ذلك".

سألته: "لم اخترت الارتباط بفتاة صغيرة، لا تفهم أي شيء عن الحب؟"

أدار (فاروق) الراديو مرة أخرى، فخرج من الأثير صوتًا معلنًا عن شعائر صلاة الجمعة، والذي أجبرنا على الصمت ما تبقى من الطريق حتى وصلنا إلى منزله.

قطن والديّ (فاروق) في شقة سكنية بحي (كليوباترا) تطل على البحر، وهناك كانوا ينعمون بمناخ أكثر رطوبة وحرارة عن هؤلاء الذين يعيشون في قلب المدينة مثلنا.

لم يتم الاعتناء بالمبنى، الذي كان يومًا فاخرًا على نحو كاف. تركت رطوبة البحر الأبيض المتوسط الصدأ على إطار المدخل الحديدي للمبنى، وعلى مفصلات المصاريع الخشبية القديمة. ولم يكن حارس العقار الذي قام بتحيتنا أفضل حالًا من المبنى الذي يعمل على حراسته. بدا وجهه (مجعداً) كقطعة من الجلد القديم، ولم يكن قادرًا على النهوض لتحيتنا. وضع (فاروق) يده على كتف الرجل العجوز بلطفٍ عافيًا إياه من النهوض.

وعلى الرغم من شمس الظهيرة الحارقة والساطعة في الخارج، بدا المبنى مظلمًا باردًا من الداخل. أصابتني رائحة العفن التي حملها هواء الباب المفتوح بالاشمئزاز .

لاحظ حارس العقار؛ النظرة التي ارتسمت على وجهي: "إن المستأجرين لا يدفعون الإيجارات في موعدها، وفي بعض الأحيان لا يدفعوها مطلقًا، إننا لا نحب طردهم، ولكننا توقفنا عن الاهتمام بالمبنى" .

لم أجبه بشيء، فقد انتابتني حالة من التوتر والقلق بشأن لقاء والد) فاروق) في منزله.

وجدت صعوبة في تحسس طريقي بسبب ظلمة المبنى .

قال (فاروق) وهو يمسك بيدي: "كان عليَّ إحضار مصباح كهربي من أجلك" .

وكانت استجابتي أخذ نفس من قلة الصبروالإحباط.

"سوف تعتاد عيناك على الظلام قبل بلوغنا الدور الرابع." رن (فاروق) جرس الباب حين وصلنا، ووقفت أنا على بعد بضعة خطواتٍ من باب الشقة. فتحت لنا الباب سيدة صغيرة مبتسمة، وفي الداخل، استقبلتنا أبواب الشرفة المفتوحة على مصراعيها بنسيم البحر القوي الذي لم تنجح معه السيدة الصغيرة في إبقاء شعرها في مكانه.

كان البحر قريبًا لدرجة أنني شعرت بتطاير قطرات صغيرة من أمواجه على وجهي. لابد وأن شعري بدا كعرف فرس متطاير وهو يركض، أما تنورتي فقد حلقت في جميع الاتجاهات مقاومة كل مجهوداتي لمنعها من الكشف عن ساقي.

قال (فاروق) واضعًا ذراعه حول كتفها: "هذة منى شقيقتي الصغرى" .

ابتسمت؛ بينما كانت (منى) تساعدني في إبقاء ثوبي في مكانه.

أغلقت الباب بصعوبة قائلة: "لو أغلقنا النافذة، لأضحت الحرارة غير محتملة".

حافظت على لمحة السعادة التي تبدو على وجهي و(منى) تحييني؛ إلا أنني حافظت على مسافةٍ معها وهي تحاول تحيتي بعناق. وبينما شرعت في إرشادي إلى غرفة الصالون؛ لاحظت وجود عرجٍ ملحوظ في مشيتها. وحين استدارت؛ لاحظت تلك النظرة المحدقة التي لا تفارق وجهها، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أدرك؛ أن خلف ابتسامتها الدائمة إعاقة ذهنية من نوعٍ ما تعانيها.

وقبل أن أتخذ مقعدًا؛ وجدت والدة (فاروق) تدنو فاتحة ذراعيها، فسلمت جسدي إلى عناقها العاصر لجسدي. وجدتها متوسطة البنية ذات بشرة بيضاء. وارتدت على رأسها وشاحًا غير محكم الربط؛ كاشفًا عن شعرها الرمادي. وكانت مع كل هبة نسيم قوية؛ تحاول جاهدة إبقاء وشاحها فوق رأسها.

دارت بسمة والدة (فاروق) الهادئة لمحة الحزن المطلة من عينيها. بدا لي كل شيء متعلق بتلك السيدة العجوز؛ داعيًا إلى الشفقة. احتضنتها بدفء. أطبقت على وجهي بين يديها، ودفعتني للانحناء قليلًا؛ لتطبع قبلة على جبيني. تسلل الشعور بالراحة إلى نفسي، واتخذت مقعدًا.

وعاجلًا؛ ظهر أشقاء (فاروق). بقيت على مقعدي وهم يقدمون أنفسهم إليّ. وفيم عدا طول شقيقه (قناوي) الملحوظ وأسلوبه الجريء، لم يترك أي منهم لدي انطباع يذكر. تميز (قناوي) بنظرته الثاقبة الحادة الأشبه بنظرة الصقر الذي يطارد الفريسة، مثل انف والده وفاروق.

قال مبتسمًا: "مرحبًا بك في عائلتنا." ثم وضع يده على كتف شقيقه (فاروق): " إن أخي محظوظ".

"شكرًا لك".

وها قد ظهر والدهم (هيثم)، وكان ينضح بقوةٍ لا يمكن نكرانها، لم أشعر بها من قبل. شعرت بالخوف من مواجهتي للمرة الثانية لـ(هيثم) الذي أخبرتني عنه (عمتي عقيلة): الرجل الذي قتل، الرجل الذي يخشاه أبناؤه."

اختفى الجميع في ثوانٍ؛ تاركين إياي بمفردي مع (هيثم ووالدة فاروق). شعرت بالأمان لوجودها معي بالغرفة، ولكنى اردعت لدى تفكيري بمدى الرعب الذي لابد أن يتملكها، كونها زوجة قاتل. شعرت بالأسف من أجلها.

بدا حماي وكأنه قد فاق لتوه من قيلولة، فقد بدا شعره الذي لفحه الشيب غير ممشط. كان يرتدي جلبابًا أبيض اللون انسدل على بطنه البارز، مما جعله يبدو أضخم من المرة الأولى التي رأيته فيها بضعفين. رسم (هيثم) على وجهه ابتسامة مصطنعة، وطلب مني بصوتٍ أجش اتباعه لغرفة الطعام.

لاحظت وأنا في الرواق؛ عدم وجود أي شخص في غرفة الطعام، ماذا يحدث؟ أين باقي أفراد الأسرة. وبسبب خوفي؛ مشيت خلفهم محاولة الحفاظ على هدوئي وطرد مخاوفي.

وفي غرفة الطعام، وجدت شابًّا صغيرًا يهرع ذهابًا وإيابًا حاملًا أطباق فيليه اللحم والأرز، وسلطانية الفاصوليا الخضراء بصلصة الطماطم على الطاولة. أصابني وجود حماي بالغرفة بشعورٍ غريب من عدم الارتياح. شعرت بتوترٍ وارتباك، إلا أنني بذلت قصارى جهدي للحفاظ على رباطة جأشي؛ بينما أخلق مسافة بيننا . جلسنا في اتجاهين متقابلين من الطاولة، وبدأ (هيثم) في تناوله للطعام كالأسد الجائع، فكان يدفع قطع اللحم في فمه الواحدة تلو الأخرى بلا هوادة. بدا وكأنه في عالمه الخاص، حتى لاحظ نظري إليه في اشمئزاز. كوم (هيثم) ثلاث قطع من اللحم في شوكته، ومد يدي باتجاه طبقي؛ محررًا قطع اللحم من شوكته بإصبعه. ومع سقوطها واحدة تلو الأخرى في طبقي؛ فقدت كل ما تبقى من شهيتي للطعام.

سألني وقد بدا عليه الاهتمام: "لم لا تأكلين يا عزيزتي؟"

تمتمت آملة ألا يحدثني ثانية: "إني أنتظر انضمام الباقين إلينا" .

"كلا، ابدأي في طعامك، فليس هناك حاجة إلى الانتظار"

إلا أنني انتظرت حتى ظهر باقي أفراد العائلة، واتخذوا مقاعدهم في هدوء، وكان (فاروق) إلى يميني بينما جلس (قناوي) إلى يساري.

همس (قناوي) في أذني: "لا تخافي من أبي؛ إنه يبدو دائمًا على هذا النحو، ولكنه غير مؤذ" .

خيم على الطاولة صمت رهيب. إلا أن والد (فاروق) استمر في تناول طعامه غير واعيًا تمامًا للتوتر الذي ساد الغرفة.

وفجأة أصابت (قناوي) نوبة تشنج، فقفز (فاروق) لإبعاده عن الطاولة، ولكن قبل أن يتمكنا من الخروج من غرفة الطعام، انهار (قناوي) على الأرض. فهرع الشقيقان الآخران لمساعدة (فاروق) على حمل شقيقهم الملتوي بقوة من على الأرض، حتى ابتعدوا جميعًا عن مرمى بصرنا .

استمر (هيثم) في تناول طعامه، وكأن شيئًا لم يحدث. ثم قال مفسرًا المشهد: "إنه مصاب بالصرع، ولكن لا يوجد ما يدعو إلى القلق" .

تساءلت في نفسي؛ ما إذا كانت إعاقات (منى، وقناوي) ناجمة عن الرعب الذي عرضه لهم والدهما، وتمنيت أن تنتهي زيارتي تلك قريبًا عقب ذلك الموقف. إلا أن والد (فاروق) نهض واقترب مني، وأحكم قبضته على معصمي، وقادني إلى الباب الأمامي للشقة؛ طالبًا من (فاروق) أن يتبعنا .

قفز قلبي داخل صدري. "إلى أين نذهب؟"

وصعدنا مجموعتين متواصلتين من درجات السلم، وقام حماي بفتح شقة ما ودخل إليها، وكان لا يزال محكمًا قبضته التي كانت تزداد قسوة على يدي. ثم قال بفظاظة:

obeikandi.com

"تلك هي شقتك، وقد وعد والدك بفرشها جيدًا، إنك لن تمضي الكثير من الوقت هنا، فسوف تكون شقتنا في الأسفل هي مركز التجمع لتناول الطعام وتمضية اليوم".

شعرت أن الموت أهون من تصديق؛ أنه قد وضع بالفعل خططًا لأسلوب حياتي.

"سوف تستخدم تلك الشقة فقط لغرض إنجاب أحفاد لنا".

أصابني التفكير في إنجاب أحفاد لهذا الرجل بالغثيان.

بدأت في الشعور بالألم بسبب يدي المقيدة التي أصابها الخدر. حدقت نحوها، ولكني لم أجرؤ على الشكوى. نظرت إلى (فاروق) بعين شخصٍ يغرق ويبحث عن أي شيء للتعلق به، وفي حاجة ماسة للمساعدة. وما وجدت على وجه (فاروق) إلا ابتسامه تتلذذ بكلمات أبيه. تحديدًا ذلك الجزء الخاص بحملي بأطفال منه.

وكم أصابني الفزع حين تخيلت حياتي داخل تلك الشقة الكئيبة: لأنجاب أحفاد لذلك الرجل المريع.

وفي طريقنا إلى المنزل، سألني (فاروق) عما إذا كان في مقدوره المرور عليّ في اليوم التالي.

أجبت في إصرار: "بشرط إذا تركتني أقوم بزيارة صديقتي (إليانور) بدون علم أبي".

وافق (فاروق) دون السؤال عن السبب، ودون معرفة من تكون (إليانور). فشعرت براحة.

وحين وصلت إلى المنزل؛ عانقت (راوية) وقبلتها مرارًا.

"إذًا؛ هل وافق على إطلاق سراحك؟"

obeikandl.com

رقصت (تشاتشا) وأنا أجيب: "نعم فغدًا هو يومي، هلا ترتبين موعدًا لي مع (غسان) كما وعدتني؟"

"بالطبع، انتظري فقط حتى يخلد أبانا إلى النوم".

ألقينا بأنفسنا على الفراش؛ ضاحكين ومحدقين في سقف الغرفة، حتى تنامى إلى مسامعنا صوت غطيط أبي المميز عبر الجدار. كانت أمي لاتزال مستيقظة، فطلبنا منها أن تحضر الهاتف إلى غرفتنا. دائمًا ما كانت تظهر أمي رغبة في مساعدتنا في الاتصال برفيقات المدرسة، لم تكن تتخيل ما نخطط لفعله بالهاتف الذي أحضرته إلى الغرفة وغادرت. أغلقت (راوية) الباب وهاتفت (غسان)، وفي غضون دقائق معدودة حصلت على تأكيد من (غسان) على أول موعد غرامي حقيقي لنا. غطت (راوية) تلك الليلة في نومٍ عميق، أما أنا فبقيت مستيقظة تؤرقني مشاعري، ولم يعرف النوم طريقه إلى عينيّ. كان الحماس يتملكني بسبب موعدي الأول مع حبيبي، فتلك هي المرة الأولى التي سأقابل فيها حبيبي بمفردي من وراء ظهر زوجي الشرعي. وعلى الرغم من أن مشاعري المتقدة لم تخل من مشاعر الخوف كذلك، إلا أنني حين أغلقت عينيّ وتخيلت (غسان) وبشرته البرونزية وأهدابه الكثيفة، وحين شعرت بأنفاسه على وجهي، لمست عنقي وابتسمت.

الجزء الثالث: الآمال

obeikandl.com

obeikandl.com

(22)

كان (فاروق) يعمل في دوامين، واحد من التاسعة وحتى الثانية، والآخر من السادسة وحتى الثامنة، وكحال جميع المصريين العاملين، كان يأخذ قيلولة بعد تناول الغذاء. رتبت (راوية) لموعدي الغرامي مع (غسان) خلال نوبة عمل (فاروق) في فترة ما بعد الظهيرة، وطلبت من (فاروق) أن يقول لأبي إذا ما سأله عن مكاننا؛ أننا سنذهب إلى منزل أسرته. تعاون (فاروق) معنا بشكلٍ كامل؛ آملًا الفوز بقلبي، كما أنه وثق في تربية أبينا لنا على الأمانة والصدق.

فقد كان مؤمنًا، كما قال لأمي، أن الفتيات المصونات اللاتي تربين تربية منغلقة، عملة صعبة هذه الأيام، وأنه يعتبر نفسه محظوظًا لعثوره عليّ. أما أبي من الجهة الأخرى، فكان مطمئنًا لوجودنا بمنزل (فاروق).

مر علينا (فاروق) في الخامسة والنصف مساءً، وتوجه بنا إلى منزل (إليانور). وكان ينظر إليّ بعشقٍ وهيام بينما يقود سيارته، أما أنا فاكتفيت بالابتسام له، ولم يسعني التحكم في هزرجلي بتوترٍ وعصبية من فرط قلقي.

سألني: "هل هناك خطب ما؟"

حاولت التحكم في أعصابي وتقلص عضلاتي، ولكن بدون جدوى. نكزتني (راوية) في كتفي من الخلف حتى أتوقف، ولكن ذلك لم ينفع أيضًا. وحين وصلنا؛ لم أتبع نصيحة أمي بالتصرف كسيدة صغيرة راقية، وأن أنتظر في مقعدي بالسيارة حتى يفتح (فاروق) لي الباب، ويساعدني في الخروج منها.

هرعت من السيارة، وخلفي (راوية) وقلت له: "أراك بعد ساعتين" .

صاح (فاروق): "استمتعا بوقتكما!"

لوحت له وأنا مبتسمة.

تركنا المصعد، وتجاوزنا درجات السلم طائرين، وحين فتحت لنا (إليانور) الباب أخبرتنا؛ أن أمها ذهبت للتسوق. أخرجت (راوية) من حقيبتها أدوات التجميل من حقيبة يدها، ولونت شفاهي باللون الوردي. وقامت بتحديد عيني بقلم من الكحل، عقصت شعري ورشته بسبراي (إليانور) للشعر، أما قلبي فتسارعت ضرباته من فرط الإثارة.

طبعت (راوية) قبلة على جبهتي: "اهدأي يا ليلى." ثم توجهت بحديثها إلى (إليانور) قائلة: "ربما يجدربي الذهاب مع (ليلى) للاطمئنان أنها بمأمن".

"لا تكوني سخيفة يا راوية، ينبغي أن تتعلم ليلى الاعتماد على نفسها" .

ثم اتجهت (إليانور) إلى غرفة والدتها، وخرجت وفي يدها زجاجة زرقاء اللون من العطر، وتناوبت هي و(راوية) في تعطيري .

قدمت لي (راوية) نصيحتها الأخوية في بضعة كلمات صغيرة: "استمتعي بوقتك معه كيفما تشائين، ولكن لا تجعليه يفقدك عذريتك. وتذكري أن عليك العودة إلى هنا قبل الثامنة" .

رمقت (راوية) بنظرة ضيق وهززت رأسي، أردت أن أقول لها أن (غسان) يحبني، ولا يسعى لعلاقة جنسية معي، ولكنه لم يكن الوقت المناسب لهذا الجدال .

أخذت درجات السلم إلى أسفل مسرعة، درجتين في قفزة واحدة، وحين خرجت من باب العقار؛ التفت إلى الشرفة فخرجت منها (راوية) وأرسلت لي قبلة في الهواء.

انتظرني (غسان) لدى الباب ومد يده لي؛ تجمدت لثانيتين ناظرة إلى يميني ويساري، قبل أن أركض نحوه. استسلمت ليده، وأخذت استمتع بدفء ملمسها .

عبرنا الطريق للوصول إلى السيارة (الفيات) الزرقاء القابعة في الجهة الأخرى من الطريق، ولايزال محركها دائر. نظر إليّ (غسان) وتركته يقرأ ما يجول في خاطري وما يحمله قلبي له. فتح لي باب السيارة، وساعدني على الدخول، ثم هرع للجانب الآخر ليجلس على مقعدة. ها أنا ذا أستمتع بكل نظرة، وكل حركة معه وأشهر أنها ملكًا لي.

قاد (غسان) في صمت بهيج، كان أشبة بالمغناطيس، وضغطنا على أيدي بعضنا البعض في حب، ارتعدت أصابعي بين يديه من فرط دفء لمسته. لم أكن أعلم؛ أين يخطط (غسان) لاصطحابي، ولكني لم أهتم.

قاد سيارته إلى شاطيء (سان ستيفانو) حيث التقينا للمرة الأولى، لم أفكر في مكان أكثر رومانسية من ذلك للقائنا الغرامي الأول.

استأجر (غسان) إحدى الكبائن على الشاطئ واصطحبني إلى داخلها، وكان ذلك أكثر مكان آمن للقائنا. كان الناس يستأجرون تلك الكبائن بالأيام، والأسابيع، بغرض تغيير ملابسهم في الأساس والاستحمام إذا ما قاموا بالسباحة. كانت الكابينة بلا نوافذ، ولم تكن ذات مساحة أكبر من غرفة المؤن في منزلنا. ولم تكن مجهزة سوى بمقعد وكرسي وحمام ودش، ولكني شعرت مع (غسان) أنها قصر.

جلست إلى جواره على المقعد الخشبي، لم يكسر صمتنا سوى تلاطم الأمواج، أما الحب الذي ملأ حواسي حملني إلى ماهو أبعد من السماء السابعة. نظر إليّ (غسان) بحب وشغف، كانت عيناه مشرقة ساحرة، ووجودي إلى جواره؛ غمرني بحالة من الهدوء والسلام النفسي. حرك ظهر يده اليمنى برفق على وجنتيّ.

استسلمت تمامًا للمساته لجسدي بدءًا من أطراف أصابعي، وحتى ذلك الجزء الذي لمسه واستيقظ نابضًا بالحياة للمرة الثانية فقط.

انتفض جسدي بالنشوة، فأغمضت عينيّ، وتوقفت عن المقاومة واستسلمت لحضوره الطاغي. وضع (غسان) رأسي لترتاح على كتفه. بقينا في الكابينة لمدة ساعة، لمس فيها (غسان) جزء في جسدي. وبينما تبادلنا العناق والقبلات، منعت براءتي وبكارتي (غسان) من الإقدام على أي فعل معي أبعد من ذلك.

حين دفعت (غسان) عني بلطف؛ اعتذرلي وقال أنه لم يحضرني إلى هنا من أجل ممارسة الجنس، وأن في مقدورنا الانصراف إذا شئت. ولكني وثقت به، وبقيت معه فيها.

قال (غسان) بينما استلقينا جنبًا إلى جنب: "ليلى، ما الذي سنفعله بشأن زواجك؟"

اتسعت عيناي، وأنا أقول: "ماذا تعني؟"

"من الخطير للغاية؛ لقاءاتنا على هذا النحو. إنك مخطوبة لشخص آخر .
"

تسببت كلمات (غسان) في شعوري بالقلق والحيرة، اعتصرت يدى وارتجف جسدى، لم يكن في استطاعتى مواجهة الموقف بمفردي. وعلى الرغم من رغبتي في أن يفكر (غسان) نيابة عني، إلا أنني كنت أعلم في قرارة نفسي؛ أن الوقت قد حان لأنضج وأن أتولى مسؤولية مستقبلي.

قلت له: "لا أدري، لا أدري" .

أمسك (غسان) بكلتا يدي، وأخذ يمسح عليها بنعومة، حتى توقف جسدى : "اهدأي." ثم ضغط على يدي مانحًا إياي رغبة في الهدوء. "لنتحدث عن المستقبل" .

أومأت له بالإيحاب مبتسمة.

"ماذا ستفعلين من أجل استكمال دراستك؟"

obeikandi.com

أجبت وعيناي إلى الأرض: "لن أتمكن من استكمال دراستي" .

أمسك غسان بذقني. "ليس عليك أن تخجلي من نفسك يا ليلى، سوف أساعدك" .

"كيف؟"

"يمكنك الدراسة من المنزل، أليس كذلك؟"

"يمكنني بالطبع. ولكن كيف سأحصل على المواد الدراسية؟ وكيف سأؤدي الامتحانات؟"

"سيكون هذا صعب، ولكنه ممكن. متى يتحدد موعد زفافك؟"

"سوف يستغرق أبي عامين لإعداد أثاث منزلي وجهازي".

"حسنًا. أمامك عامين، هل يمكنك القيام بذلك خلالهما؟"

"نعم." قلتها بحماس ورغبة في إسعاده .

قال غامزًا: "سيكون والداي أكثر سعادة إذا ما قدمت لهم حبيبتي كفتاة متعلمة" .

لم يهتم أحد قبل (غسان) بأمر تعليمي. جعلني أشعر بأن الرجال ليسوا متشابهين، وبأنه يختلف عن أبي وأشقائي، وكم أحببته لذلك أكثر" .

حين تركت (غسان) تلك الليلة، أخذ على عاتقه التزامًا بشراء كافة المواد الدراسية لي، ومساعدتي في أي درس يصعب علي فهمه.

قام (غسان) بتوصيلي إلى منزل (إليانور) قبل قدوم (فاروق) لأخذي من هناك. أمطرتني (راوية وإليانور) بوابل من الأسئلة. لم أجب عليهما، وأخذت أستمتع بالمذاق العذب الذي غمر(غسان) شفتيّ به.

حين أوينا إلى فراشنا تلك الليلة؛ أخبرت (راوية) عن خططي لاستكمال تعليمي سرًا بمساعدة (غسان)، فقالت في حدة: "لم يكن ذلك ما خططنا له ياليلى، سوف تجبرك الدراسة على المكوث في المنزل لفترات طويلة" .

obeikandl.com

لم أتوقع رد فعلها.

فعلينا أن نركز على مستقبلنا خارج هذه المدينة. ثم، ما هذا الخضوع الأعمى لرجل بالكاد تعرفينه؟"

لم أفهم سبب رغبة (راوية) في حرماني من الحب الذي أتوق أليه، وأن تنزع عني تلك البهجة التي بدأت تسري في عروقي بالفعل. لن أدعها تفسد سعادتي.

"إني لا أملي عليك ما ينبغي عليك فعله في حياتك، وأتوقع منك أن تعامليني بالمثل؟"

نظرت إليّ (راوية) في صدمة، وهزت رأسها في أسف. "سوف نتحدث في ذلك في وقتٍ لاحق، حين ينتهي أثر اللقاء الغرامي الساخن عليك" .

لم أهتم تلك الليلة بما تظن. وسريعًا، أمضيت ليلة تلو الآخرة في الدراسة سرًّا، مخفية كتبي أسفل فراشي نهارًا. حاولت تحميس (راوية) للانضمام إلي، بينما استمرت هي في الضغط عليّ للتخلي عن فكرتي المجنونة. وعلى الرغم من تعارض رغبتي في استكمال تعليمي مع الأهداف التي حلمت بها (راوية) من أجلنا، إلا أنها لم تخذلني قط. عندما احتجتها لتغطيتي من أجل موعد غرامي مع (غسان) أو من أجل دراستي.

فربما كانت تتذمر وتتأفف؛ حين أطلب منها أن تختبرني أو تسألني، إلا أنها لم تنكر قط مساعدتي لها، ولم تشك من ضوء الكشاف الذي كنت أشعله تحت الغطاء لأتمكن من الدراسة بينما تنام.

بعين نصف مفتوحة، كانت (راوية) تتمتم عندما تقلق في منتصف الليل:"هل لازلت مستيقظة؟"

فأهمس لها "نعم" .

فكانت تربت بلطف على ساقي وتكمل نومها.

obeikandl.com

كان حبي لـ(غسان) يزداد في قلبي مع مرور الوقت، كنا نلتقي مرة كل أسبوع تقريبًا بفضل خططنا وأكاذيبنا. وحين أظهر (فاروق) علامات الشك؛ توقفنا عن التلاقي لبضعه أسابيع، ثم استأنفنا لقاءاتنا بعدها كالمعتاد .

لم تمر علي أيام أصعب وأقسى من تلك التي مضى خلالها (غسان) إجازته الصيفية مع عائلته في لبنان. كم تقت شوقًا إلى (غسان)، ولم أجد سوى الخطابات التي كان يرسلها لي على عنوان منزل (إليانور)، ملاذًا لي. كنت أقرأها مرات ومرات، وحين تشتد عليّ آلام البعد، كنت أردد كلماتها العذبة الحانية في قلبي .

لم أولي (فاروق) اهتمامًا خلال فترة غياب (غسان). كانت حججي جاهزة للتهرب منه فيما عدا يوم الجمعة الذي أجبرني فيه أبي على الخروج معه. لم أكن أتخيل أن رجل في عمر وخبرة (فاروق) لم يكن قادرًا على رؤية عدم إخلاصي له المرتسم على ملامحي والذي يفضحه سلوكي.

حقا كنت فتاة مخطوبة، ولي أسرة جديدة بديلة لأسرتي. إلا أن حبي كان (لغسان)، الذي وجدت فيه عالمي ومستقبلي.

أما بالنسبة لعلاقتي براوية، فكان (غسان) هو الصدع الوحيد فيها. كم ناشدتني (راوية) للتفكير بمنطق والتركيز على أحلام الاستقلال لا الحب، ولكني لم أكن قادرة على اتباعها في كل شيء. كان الجانب العنيد في شخصيتي جديدًا تمامًا على (راوية). فقط أصبح هوسي الأول الحصول على الشهادة الثانوية حتى يفخر بي (غسان) وهو يقدمني لأسرته.

كانت (راوية) تسخر مني بقولها؛ بأن الذهاب مع (غسان) إلى لبنان مجرد درب من الخيال، إلا أنها كانت الأمنية التي لن أسمح حتى لشقيقتي العزيزة بسلبي إياها. لم أدرك كيف سأحقق هدفي بالحصول على طلاقي من (فاروق)، إلا أني كنت أعيش هذا الحلم على أنه واقع في ذهني.

(23)

قُبيل احتفالي ببلوغ السابعة عشر، كنت أستعد لخوض الاختبار الذي سيمنحني الشهادة الثانوية، ولكن وحتى يتسنى لي ذلك، كان عليّ التوجه لأقرب مدرسة ممكنة. أخذت أراجع أنا و(راوية) كيف، وماذا، ومتى سأخبر أبي بالأمر حتى يسمح لي بالخروج من المنزل؟ ولكن مواجهة أبي بقرار اتخذته دون إشراكه فيه، ومحاولة الحصول على موافقته عليه، كان أشبه بالكابوس المروع.

سألت (راوية): "ماذا لو حبسني أبي في حجرة المؤن؟ هل عليّ إخبار أمي أولًا؟"

فأجابت: "لن تساعدك أمنا في شيء، خوضي المغامرة وأخبري أبانا بنفسك، أو عليك الانتظار حتى نترك أزواجنا، وتعيدي التقديم ثانية".

"ولكن حصولك وحصولي على الطلاق؛ سوف يستغرق وقت طويل، سأكون قد نسيت كل ما تعلمته خلال عامين".

تنهدت (راوية) قائلة: "ليلى إني لا أملك حلًّا سحريًّا".

"ماذا لو رحلت وحسب، ولا تخبري أبي إلى أين سأذهب ولن أعود ثانية؟" سألتها، وقد بلغت من اليأس مبلغه.

"وأين ستذهبين أيتها الذكية؟"

أجبت مترددة: "إلى خالتي (حميدة)." وهي شقيقة أمي التي يكرهها أبي.

"هل نسيتي أننا لازلنا تحت وصاية أبينا؟ وهل نسيتي رأيه في خالتنا، سوف يجرك بابا من شعرك إلى خارج منزل خالتي (حميدة)، ولن ينجدك أحد منه".

قررت أن أواجه الأمر وأن أخبر أبي.

وفي الليلة التي سبقت يوم الاختبار، استيقظت قبل أن تلوح آشعة الشمس في الأفق، وبينما تنام (راوية)، وارتديت قميصًا قطنيًّا أبيضًا طويل الأكمام وجونلة بنية اللون. تغطي ركبتي آملة أن يساعد مظهري المحتشم في انتزاع الموافقة من أبي. ثم قفزت ثانية إلى جوار(راوية) في الفراش.

وحتى أهدئ من روعي؛ أخذت أردد سورة الفاتحة سبع مرات. لقد أخبرتنا (فريدة) أن الرقم سبعة رقمًا سحريًّا، نظرًا لأن الله قد خلق الكون في سبعة أيام. أخذت أردد الصورة. على الرغم من عدم قدرة ذهني على التركيز فيما أقول .

همست محاولة إيقاظ (راوية): "راوية استيقظي. أنا خائفة" .

"ليلى، أنت عقد قرانك الآن، ويمكنك القيام بما تريدين." قالتها هامسة، ثم عادت إلى نومها ثانية.

أخذت نفسًا عميقًا؛ استعدادًا للذهاب إلى أبي للحصول على إذنه للذهاب بمفردي. لم يكن لدي أدنى شك من أنه سيقدر العامين اللذين أمضيتهما في الدراسة، وما بذلته من جهد خلالهما طلبًا للعلم. فقد درس والدي هو الآخر من المنزل سرًّا، وواجه العديد من الصعوبات؛ إلا أنه استمر في تمسكه بحلمه وتصميمه على هدفه، ولابد وأن يرى نفسه في شخصي.

متسلحة بأقلامي ومسطرتي والفرجار في يدي؛ طرقت برفق على باب غرفة أبي. ولكنه لم يجب. دفعت الباب وأنا أسير على أطراف أصابعي، ووقفت أمام فراش أبي، وقد بدا أنه يغط في نومٍ عميق. دائمًا ما كانت تخبرنا أمي أن أبانا ينام بعينٍ مفتوحة، وأخرى مغلقة حتى يظل متحكمًا في مقاليد الأمور. ولكني أرى الآن أن كلتا عينيه مغلقتين.

لا أتذكر كم مضى من الوقت علي، وأنا واقفة إلى جوار فراش أبي، قبل أن يستيقظ محدقًا بي. تجمد لساني ولم أنبس ببنت شفة .

"ما الذي تفعلينه هنا في هذه الساعة المبكرة؟"

قلت وأنا مترددة في مواجهته بمفردي: "إني أبحث عن ماما".

"إنها ليست هنا".

أردت الخروج من الغرفة، وأن أنسى أمر الاختبار تمامًا، ولكن قدمي تسمرت في مكانها، كما لو كان أحدهم قد صمغها بالأرض. ذكرتني زقزقة الطيور خارج النافذة بمذاق الحرية، فتحرك لساني متحدثًا أخيرًا.

"أبي. هل تحبني؟" سألته، وكلي أمل أن يرقق سؤالي هذا قلبه تجاهي.

سأل متحيرًا: "ماذا تريدين؟"

قلت مازحة: "عليك الإجابة على سؤالي أولًا".

"سوف تفوتي عليّ صلاة الفجر هكذا." قال ذلك، على الرغم من أن صوت الآذان، لم يكن صدر بعد من أي مسجد.

لم يستخدم أبي معنا كلمة (حب) قط. لقد أخبرتنا أمي أنه يؤمن أن تعبير الرجال عن حبهم بالقول أو الفعل؛ يفقدهم سيطرتهم على مقاليد الأمور.

نهض من على الفراش، وأخذ منشفته وتوجه إلى باب الغرفة. سوف تنتهي فرصتي قريبًا.

"بابا. هل يمكن أن تسمح لي أن أؤدي اختبار الشهادة الثانوية هذا الصباح؟" تيبست شفتاي، واستطعت بالكاد تصديق ما تفوهت به لتوي.

تجمد أبي في مكانه، وسألني دون أن يواجهني: "ماذا تعنين؟"

قلت في نفسٍ واحد: "لقد كنت أدرس لعامين، وأردت مفاجأتك".

استدار أبي لمواجهتي، والغضب يكسو ملامحه: "هل يعلم زوجك بذلك؟"

قلت بحزم: "كلا".

التوت شفته العليا، ووقعت شفته السفلى ضحية لأسنانه الطاحنة. "هل تعلم أمك بذلك؟"

تراجعت خطوتين إلى الوراء. "كلا. أمي لا تعلم كذلك".

"إذًا. فقد اتخذت قرارك بمفردك، وأعتقد أن اللعينة الأخرى هي من ساعدك على تنفيذ خطتك السرية".

قلت في غضب" "أنا من ذاكر وليس (راوية)، وسواء كانت ساعدتني أم لا، لم يكن ذلك ليثنيني عن قراري لاستكمال تعليمي" .

حدق في أبي في صمت. مرت عليّ الثواني التي تلت رهيبة، وأنا أرتعد من الخوف، كنت أعلم في قرارة نفسي؛ أنه لا يمكن تفسير صمته على أنه إجابة في صالحي.

"اذهبي إلى غرفتك الآن. وسأوافيك بقراري عقب صلاة الفجر." قالها، وهو يجز على شفتيه.

أومأت برأسي، مصدقة بصعوبة أنه قد سمح لي بالهروب من جام غضبه، حتى ولو لدقيقة واحدة. تصاعدت حدة شعوري بالقلق والتوتر؛ بينما أنتظر استدعاءه لي . لم تكن (راوية) قد استيقظت بعد؛ لذا لم يكن هناك من أشاركه مشاعر الخوف التي تملكتني. لم أستطع التحكم في أعصابي. على الرغم من أن ما طلبته لم يتعد كونه حقًّا مشروعًا لأي إنسان في التعليم، فكان كل ما يسيطر على مخيلتي حينها؛ هو العقاب الذي ينتظرني من أبي، إذا لم يرق له طلبي البسيط.

وبلا مقدمات؛ دفع أبي باب غرفة نومي بقبضته بلا هوادة، ودخل مندفعًا إلى الغرفة وجرني خارجها إلى غرفة المؤن الصغيرة عبر الردهة، وزمجر قائلًا: "سوف تبقين هنا حتى أعود من العمل" .

"أبي، كلا!"

ثم سمعت صوت القفل. تركني هناك بلا غطاء، أو طعام ولا حتى مياه. كانت الغرفة شديدة الضيق والظلمة، وشعرت كما لو كنت قد ألقيت في مقبرة، انهارت على أرضها باكية.

سمعت صوت (راوية)، بعد فترة تقول من خلف الباب: "الله يلعن اليوم الذي ولدنا فيه" .

"أجل. كم أرغب في الموت."

وقالت كما قالت آلاف المرات سابقًا: " لم يمنح الرجال حق التحكم في النساء على هذا النحو المهين؟"

لم يسعني سوى البكاء. وحين تذكرت (راوية) كم أخشى الظلام؛ أنارت غرفة المؤن مستعينة بمفتاحٍ كهربي لها من الخارج "ليلى، أنا هنا، لم أنت صامتة هل لازلت تبكين" .

"كلا." ولكن صوتي المنتحب الواهن كشف أمري.

"ليلى لقد ذهب أبانا وترك المفتاح مع أمنا، سوف أخرجك من هنا" .

سمعت خطوات راوية تبتعد، ثم سمعت نفس خطواتها مسرعة إلى جانب خطوات أمي الأكثر ثقلًا. حين انفتح الباب؛ ألقيت بنفسي بين ذراعي أمي.

"لن أتركك هنا." ثم قبلتني أمي على وجنتي.

صاحت (راوية): "يارب خذنا! لقد سئمنا من هذه الحياة البغيضة. لم لا يسمح أبي لـ(ليلى) بخوض الاختبار؟ ليس لوالدنا الحق أن يحرم شقيقتي من استكمال تعليمها. إننا لم نعد خاضعين لسيطرته الآن. في مقدور (ليلى) مغادرة المنزل، والذهاب إلى منزل زوجها إذا أرادت" .

استمرت (راوية) في تهديداتها. على الرغم من أن كلانا، كان يعلم أنه لا ملاذ أو مخرج لنا من هذه الدائرة، فقد حكم الخوف قبضته علينا. وكم أدهشني سماع (راوية) تدافع عن حقي في التعليم، على الرغم من أن ذلك لم يكن

جديدًا عليها، كانت (راوية) على الدوام داعمة لي ولم تخذلني قط . كنت في أمس الحاجة إلى من يمنحني بصيصًا من الأمل. وجاء الأمل بعد نصف ساعة حين رن جرس الهاتف رنة واحدة، ثم توقف. وكانت تلك إشارة متفق عليها بيني وبين (غسان). أخذت الهاتف أنا و(راوية) في الخفاء، وقمنا بالاتصال به.

قال (غسان) بنبرة هادئة ومتفهمة: "ليلى. عليك أن تكيفي نفسك. لا تقدمي على فعل شيء، ربما تندمين عليه فيم بعد. إنه والدك ولابد أن تصغي إليه. وإلا سيلومك جميع من حولك بلا رحمة. أما بالنسبة للاختبار، فليس في مقدور أحد ولا حتى والدك منعك من الحصول على دبلومة الثانوية التي تريديها، ولكن عليك فقط الانتظار حتى يحين الوقت المناسب لذلك." وتوقف للحظة قبل أن يردف قائلًا: "حين نتزوج أنا وأنت ستختلف الأمور" .

كنت أبكي، وأنا أستمع لكلماتة الحانية المحبة.

حرصت (راوية) على إعادتي إلى غرفة المؤن، قبل عودة أبي إلى المنزل من عمله. فلم نكن قادرين على مواجهة غضبٍ جديد باستفزازه بفعل آخر.

حين عاد أبي في المساء؛ أخرجني من مخزن المؤن وأخذني إلى غرفته، وقال متجنبًا نظرتي الباردة له: " إذا كنت أتيت إلي، قبل اتخاذك لقرار الدراسة بمفردك، لم أكن لأمانع" .

رفضت أن أخدع بما يقول، فقد منحني حديثي مع (غسان) قدرًا كبيرًا من الجرأة، واشتعلت بداخلي جمرة من الغضب؛ دفعتني لأن أقول له: "لقد قتلتني مرتين، ولن أسامحك أبدًا" .

تركت غرفة أبي، وقد تملك مني الإحباط والاكتئاب، ولكن كان كلي عزم وإصراركذلك على تحقيق حلمي باستكمال تعليمي، مهما بدا طريق بلوغ ذلك الحلم طويل.

(24)

أصبح الشجار بين أبى وأمى متكرر وأكثر جدية. وكانت أمي تأتي لنا بعدكل مشاجرةوتتحدث معنا، فتطورت علاقتنا فلم تعد أمنا فحسب، بل صديقتنا كذلك، حتى حظت بثقتي الكاملة. وفي ذات الأيام؛ شعرت بالثقة الكافية لأحكي لأمي عن قصة حبي، بكل تفصيلة فيها.

نظرت إليّ أمي نظرة تحمل العطف الممزوج بالقلق، ثم قالت: "هل يهتم (غسان) لأمرك حقًّا يا ليلى؟ هل ينوي حقًّا الزواج منك؟"

لم يدهشني رد فعلها، فقد دعمتني خلال محنتي بقدر إمكاناتها المحدودة.

أجبتها بكل ثقة: "أجل يا أمي" .

"هل يمكنني التحدث إليه؟"

"بالطبع! سوف أتصل بـ(غسان) حالًا" .

أحضرت أمي الهاتف إلى الغرفة، ونظرًا لتوتري البالغ؛ تركت (راوية) تجري هي الاتصال. اتسعت عينا أمي من عدد (التكات) التي قامت بها (راوية) لكل رقم تطلبه من أجل الاتصال بـ(غسان). إلا أنها رغم ذلك لم تستطع التركيز ومعرفة رقم (غسان)، فأصرت على لعب دور المحقق وسألت: "ألا يسكن (غسان) في جليم؟"

قلت مازحة معها: "كلا يا أمي. لقد طلبنا الرقم الخطأ" .

ابتسمت أمي وأمسكت بالسماعة، قبل أن تتمكن (راوية) من التحدث إلى (غسان)، فضحكت أنا و(راوية)، فقد أرادت أمي مفاجأة (غسان) بحديثها معه، وحاولت أن تمنعنا من تحذيره، ولكن الخط كان مشغولًا .

أخذت أمي تحك ركبتها في شكل دائري، فقلت لها: "اهدأي يا أمي" .

"هل أنت واثقة من نوايا غسان؟

" بالطبع." ونظرت إلى (راوية) لدعمي.

"سوف نعلم مدى جدية (غسان) يا أمي، وسوف تعلميها أنت -أيضًا- يا ليلى".

قلت وقد أصابني الحنق من تشكيك (راوية):

"إن غسان جاد في علاقته بي".

دخلت (كريمة) وفي يدها (صينية) عليها قدح شاي، والفنجان المفضل لأمي- ذلك ذو الحافة الذهبية- وأربع مكعبات من السكر في وعاء صغير مشابه للفنجان. خرجت الخادمة ثانية بعد أن صبت كوب الشاي لها، طلبت (راوية) رقم (غسان) ثانية، وأعطت السماعة لـ(ماما).

أمسكت أمي بفنجان الشاي في يد، والسماعة في اليد الأخرى. ونظرت بعين نصف مغمضة كعادتها عندما تركز في شيء. أخذت رشفة من الشاي، ثم وضعت الفنجان ثانية على الصينية.

استندت أنا و(راوية) إلى الفراش في شغف وتوتر؛ منتظرين سماع الكلمة الأولى التي ستقولها أمي لـ(غسان)، أشارت أمي إلى باب الغرفة بإصبعها في إشارة منها لغلقه.

فأكدت (راوية): "الباب مغلق بالفعل".

تهلل وجه أمي، وابتسمت في إشارة إلى أن هناك من أجاب الاتصال، وقالت: "مرحبًا، هل (غسان) يتحدث معي؟"

بدا وكأن لا أحد يتحدث على الطرف الآخر.

"أنا والدة ليلى".

ساد صمت. ثم ارتفع حاجبي أمي في دهشة.

حاولت اعتصار أذني لسماع ما يقوله (غسان) على السماعة، ولكن لم أتمكن من سماع شيء.

ابتسمت أمي، ثم قالت: "إني على ثقة من أن ليلى تحبك أيضًا " .

شعرت برضا وسعادة لمسار الحديث بينهما .

أخذت أمي رشفة أخرى من الشاي: "أجل، أعلم يا بني من المستحيل التحدث مع والد (ليلى) في هذا الشأن تمامًا، لذا أرى أن عليك الانتظار لما بعد إتمام مراسم الزفاف".

مزيد من الصمت الطويل.

لم تتمكن (راوية) من إحجام نفسها عن التعليق. "هل يحاول (غسان) إيجاد أعذار أم ماذا؟"

أثقل القلق على قلبي بظلاله، وخشيت أنها ربما تكون محقة .

"أجل. أثق بك يا بني." دفعتني كلمات أمي إلى التحليق. "أنا مطمئنة أكثر الآن، فكم تبدو شخصًا لطيفًا ومخلصًا. أود أن ألتقي بك، لنرتب موعدًا في أقرب فرصة ممكنة".

أزال تعاون أمي حملًا أنهك عاتقي وأثقل قلبي، شعرت بارتياح. أنهت أمي المكالمة.

ألقيت نفسي بين ذراعيها بعد أن حملت من يدها فنجان الشاي، ووضعته على الصينية. "شكرًا لك يا أمي، شكرًا لك، شكرًا لك".

"حبيبتي ليلى، إن والدك لن يقبل بذلك الأمر مطلقًا، لم لا تنتظري حتى إتمام زواجك ثم تطلبي الانفصال؟"

"ولكن كيف لي أن أتأكد من موافقة (فاروق) على الانفصال عني؟"

قالت مترددة: "لابد وأن تحاولي حينها، ولن أبخل عليك بالمساعدة حبيبتي".

لم يكن أمامي خيار سوى الاستماع إلى نصيحة أمي، فقد كانت موافقتها على الأمر مريحة لقلبي. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، قبلت جميع دعوات

(فاروق) للمناسبات الاجتماعية، خاصة تلك التي كانت تمنحني فرصة للخروج من المنزل. وبدأت أنا و(غسان) للتخطيط لمستقبلنا كما لو لم أكن مخطوبة رسميًّا لرجل غيره. لم يكن أمامي سوى بضعة أشهر قليلة قبل موعد الزفاف، ثم الحصول على الطلاق بعدها.

وكنت أنا و(راوية) بعد خطوبتنا بفترة وجيزة نتلقى دعوات من خالتي (حميدة) لحضور حفلات (السواريه) السخية التي تنظمها كل خميس احتفالًا بنهاية الأسبوع. وعلى الرغم من أن الخالة (حميدة) كانت خالتنا الوحيدة التي لاتزال على قيد الحياة بين أخوات أمي، إلا أن أبي كان يمنعها من الاختلاط بها.

كان لخالتي (حميدة) حياة مختلفة عن حياتنا. كانت الزوجة الثانية لزوجها الراحل، وحين تزوجت منه، ووفقًا لعمتي (عقيلة)، كان هناك توافق بين كلا الزوجتين.

عاشت الخالة (حميدة) عقب وفاة زوجها مع ابنتيها (حليمة وثريا)، وأسرتيهما في مجمع سكني فاخر يتكون من فيلتين فاخرتين. وعلى الرغم من إصابة خالتي (حميدة) بداء السكري عقب وفاة زوجها، إلا أن ذلك لم يمنعها من ممارسة اجتماعياتها .

لم يكن والداي من المدعوين لحفلاتها مطلقًا، ولم يكونا ليحضرا على أية حال بسبب أسلوب حياة خالتنا (حميدة) المتحرر، وسهراتها غير التقليدية .

حضرت حفلتي الأولى أنا و(راوية) هناك بصحبة (فاروق)، ولم أشهد حينها بهو استقبال في فخامة بهو منزلها في أي مسكن خاص، فقد زينته الشمعدانات الكريستالية الضخمة، والتي كانت أضخم من تلك الموجودة بمنزلنا. وعلى الجانبين؛ وقف الخدم متأنقين بزي رسمي كامل لتحية الضيوف. ثم دلفنا إلى غرفة الضيوف، والتي بلغت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أي غرفة صالون

عادية. جلست الخالة (حميدة) على الأريكة الكبيرة وإلى جوارها ابنتيها (حليمة، وثريا) تتحدث إليهما.

نهضت خالتي لتحية (فاروق، وراوية) وتحيتي، أما (جمال) فكان قد أتى في وقتٍ باكر .

قالت لنا قبل أن تتوجه لتحية مجموعة أخرى من الضيوف: "مرحبًا بكم أحبائي. البيت بيتكم".

وقفنا بمفردنا في منتصف الصالة، ويحيطنا عشرات من الأشخاص. ولمحت عبر الغرفة (جمال)، ابن أخت الخالة (حميدة)، وهو زائر دائم التردد عليها. وكان (جمال) لايزال متجنبًا التعامل مع (فاروق)، وحافظ على بعده عنه طيلة الحفل .

تقبلت الأسرة سلوك (جمال) المنطوي عن (فاروق) هذا، وأكدوا على ظني في أن السبب وراء ذلك هو الجريمة التي ارتكبها حماي والد (فاروق). وطلبت من (راوية) أن تسأل (جمال) إذا كان يعلم أي شيء عن التهم الموجهة إليه.

"إننا لسنا في حاجة لذلك ياليلى، سوف تحصلين على الطلاق من (فاروق) على أية حال".

حضر الحفل العديد من الشخصيات البارزة في مجال السياسة والفن، فقد كانت خالتي (حميدة) تحرص على التواصل مع مثل هؤلاء المشاهير، والذي تعرفت على بعض منهم.

وكان هناك مطرب يدعى (أحمد) دائم التردد على سهرات الخالة (حميدة). وقيل أن (أحمد) هو مطرب تم إخصاءه قبل مرحلة البلوغ للحفاظ على طبقة صوته. وحين غنى (أحمد) بدا صوته مشابه كثيرًا للمطربة (أم كلثوم).

فبعد مأدبة العشاء المتأخرة: التف الحضور حول (أحمد) ليستمعوا إليه، وهو يقلد صوت (أم كلثوم) وهي تشدو بأغانيها عن الحب والغرام؛ بينما يرتشفون كؤوس ويسكى (جونى والكر) بالثلج.

كان أسلوب حياة الخالة (حميدة) جديد علي أنا و(راوية) ومبهر، وقبل أن يمر وقت طويل، بدأت أنا وشقيقتي في تعزيز الروابط الاجتماعية مع أقربائنا من جانب أمي من خلال زيارات أسبوعية هناك. وتعرفنا لأول مرة على بنات خالتنا خاصة (ثريا) التي كانت في الثلاثينيات من عمرها. وكان لـ(ثريا) ابن وابنة، أما (حليمة) شقيقتها التي تكبرها بخمسة عشر عامًا، فقد كان لديها ابن وابنتان. وكانت إحدى ابنتي (حليمة) وتدعى (شويكار)، أصغر من (ثريا) ببضع سنوات قليلة، وكانتا تمضيان وقت طويل برفقة بعضهما البعض .

تزوجت كلا من (شويكار وثريا) كذلك زواج صالونات تقليدي، ولم يربط بينهما وبين أزواجهن أي عاطفة حب، ومن ثم لم يخلصن لأزواجهن تمامًا. وقد أدهشني في واقع الأمر؛ أن هناك سيدات مثلي و(راوية) قد أرغمن على الزواج بهذه الطريقة. فقد رضخت بنات خالتي لأقدارهن، تمامًا مثلما فعلت أمي، ومثلما تحرضني بلا هوادة على فعله.

أصبحت أنا و(راوية) مقربتين من (ثريا، وشويكار) لدرجة أننا جعلنا نتشارك معهن أسرارنا وحياتنا الخاصة. ولعبت كلاهما دور المرافقات وتحججن بهن، واتخذنا منهن أعذارًا للخروج عند الحاجة، كما لعبن هن كذلك نفس الدور .

قدمتني (ثريا، وشويكار) لأصدقائهن كما قدمتهن لـ(غسان)، كل ذلك في غفلة تامة من جانب (فاروق). كان غالبًا ما يصحبنا إلى منزل الخالة (حميدة) ويتركنا وهو مرتاح البال؛ لأنه وللمصادفة -أيضًا- كان قريب لزوجها الراحل .

كان لدى (شويكار) شقيق شديد الأناقة والرقي يدعى (سامح)، يدرس بكلية (فيكتوريا كوليدج) بالإسكندرية، وقد أظهر اهتمامًا بـ(راوية). وعلى الرغم من موقف (راوية) في الحب وعدم ثقتها في الرجال كمحبين؛ إلا أنني كنت أرى أنها تميل إليه، خاصة وأنه قد أغراها بنمط حياةٍ مبهر، وقدم لها المتعة والمرح في أمسيات وسهرات مختلفة في المدينة.

ولم يمر وقت طويل، حتى بدأ كل من (راوية، وسامح) في التملص من المجموعة إلى أحد أركان المبنى السكني الضخم؛ بينما كان يجلس (جمال) في الصالون يستمع إلى الموسيقى.

همست راوية لي: "ليلى، قومي بتغطيتي سأكون أنا وسامح في الحديقة".

وكنت أتفقد ساعتي في كل لحظة؛ خوفًا من أن يلحظ أحدهم غيابهما حتى تظهر (راوية) مجددًا بعد مرور نصف الساعة أو حتى الساعة. كانت تمشي الهويني حتى الصالون، ووجهها متوهج وشعرها غير مرتب متخذة مقعدها ثانية إلى جوار(جمال). لم يخطر في بال (جمال) على الإطلاق أن (راوية) تخونه. كنت أدرك حجم مجازفتنا؛ إلا أنني لم يسعني إيقافها عما تفعل .

(25)

قبل مراسم الزفاف بشهرين؛ تقلصت زيارات (جمال) لـ(راوية) إلى مرة كل ثلاثة أيام، ثم مرة كل أسبوع، وتمادت لما هو أقل من ذلك. لم تتحدث (راوية) كثيرًا عنه، وكانت تقدم الكثير من الأعذار عندما كنت أسألها عن سبب عدم خروجها معه. وقد أدهشني عدم اكتراثها للأمر برمته .

ذات ليلة: بينما كنت أنا و(راوية) مستلقيتان في غرفة نومنا؛ سمعت صوت أمي يصيح بغضبٍ بالغ: "أيها الوغد! أيها النذل! لقد دمرت حياة ابنتي" .

أدهشني استخدام أمي لمثل هذه الألفاظ، فمهما بلغ غضب أمي لم تتجاوز استخدامها للفظ: "أنت كلب." في توبيخ أخي .

سألت (راوية) وأنا في حيرة مما يحدث ومن الذي تدعوه بالنذل، وعن أي حياة تحطمت تتحدث؟"

جلست (راوية) أمام المرآة تصفف شعرها في هدوء وقالت: "سوف أحصل على الطلاق" .

كنت أعلم بعدم حب راوية لجمال، ولكن سماعي بأمر الانفصال أربكني وصدمني. ما مدى تأثير ذلك على خططنا؟ وعلى الرغم من شعوري بعدم الأمان؛ حاولت إبقاء مشاعري بالقلق تحت السيطرة والتركيز على الموقف الذي كنت أواجهه أنا و(راوية) .

لم نستطع سماع صوت (جمال)، ولكن أمي استمرت في الصياح ":أيها الحقير! لم تنجب أختي رجلًا حين أنجبتك! اخرج من هذا المنزل! اخرج من هنا في الحال" .

تحول قلقلي إلى حالة من الذعر.

قالت (راوية) بثباتٍ شديد؛ بينما تصفف شعرها وتضع مساحيق التجميل: "يعلم (جمال) بأمري وأمر (سامح)، لابد وأن أحد الخدم قد أخبره، لقد أكدت له أنه لم يحدث شيء بيني وبين (سامح) لكن (جمال) لم يصدقني." رفعت يدها وحركت كتفها بلا مبالاه: "لم أكن أريد الزواج من (جمال) على أيه حال، لكنه كان وسيلتي للخروج من هنا" .

"لقد حسبتك تحبينه" !

"كلا يا ليلى، لقد تظاهرت بحبي له، ولكن ما أحببت حقًّا هي الحرية التي اكتسبتها بعد عقد القران لي" .

"ولكنك ستخسرين تلك الحرية بطلاقك منه، أليس كذلك؟"

أجابت (راوية) بثقة: "كلا، فأنا الآن مطلقة، وسيصبح لي الحق في القيام بما أريد" .

كان أسلوب (راوية) على درجة من الثقة؛ جعلتني أحجم عن طرح سؤال التاني الذي أردت طرحه حقًّا. كان سلوكها جريء ومتمرد. ووجدت صعوبة في فهم ما أرادته (راوية) حقًّا من الحرية التي تسعى خلفها، وقد أصابني رؤية شقيقتي تجازف بسمعتها دون أدنى ندم بالفزع.

"راوية....هل ...هل مارست الحب مع سامح؟"

أجابت: "وما جدوى ذلك السؤال الآن؟ وما هو الشيء المميز في العذرية؟ منذ اليوم الذي ولدت فيه أنا وأنت لم نسمع أي شيء إيجابي عن كوننا فتيات، بل صدعوا رؤوسنا بتحذيراتٍ عن أهمية العذرية لشرف عائلتنا" .

أصاب رأسي الدوار واختلطت مشاعر الحيرة والألم بشأن مستقبل شقيقتي في هذا المجتمع، ووصمة العار التي تلاحق النساء المطلقات فيه. خاصة ممن فقدن عذريتهن منهن قبل الزواج.

قالت، وهي تختال بقوامها أمام المرآة: "لا تقلقي بشأني يا ليلى، فأنا لازلت مرغوبة. أعلم أن فقدي لعذريتي تجعل فرصي في الزواج ضئيلة؛ إلا أنني أعرف كيف سأستخدم سحري لأجعل كل رجلٍ يدفع ثمن كل من دخلوا في حياتي. "
كانت كلمات (راوية) واثقة، حتى انخفض صوتها وارتعدت شفتاها .

أخذت (راوية) بين ذراعي؛ بينما انهارت في البكاء: "أخبريني بما حدث" .

"لم يقدر (جمال) صراحتي، حاولت أن أخبره أنه لم يمسني رجل قبله، لكنه لم يصدقني " .

نظرت إليّ باحثة عن تصديق على كلامها،

فأومأت لها،

ثم قالت، دون أي مؤشر للشعور بالندم: "لقد أخبرت جمال عن سامح" .

كانت شقيقتي تخفي أمرًا ما. ذبلت الابتسامة على وجهها وتجهمت، وهي تحملق لانعكاسها في المرآة وعضت على شفتها السفلى، بدت ضبابية في انعكاسها .

"أخبريني يا راوية، من أفقدك عذريتك؟"

"لا أدري، ربما سامح. وتوقفي عن استجوابي" .

تظاهرت بتصديقي لـ(راوية). وعلى الرغم من محاولتها لإظهار عدم اكتراثها للأمر، إلا أنني شعرت بألمها، فتوقفت عن طرح الأسئلة.

أما بالنسبة لأميK فقد كانت قصة (راوية) لها مختلفة؛ حيث أخبرتها أنها مارست الجنس مع (جمال) لأن قرانهما معقود، وكان هذا يربط بينهم كزوجٍ وزوجة، حتى لو لم تتم مراسم الزفاف. ولم يعلم أبي حقيقة الأمر بشكلٍ تام، لكنه افترض أن (راوية) مارست الجنس مع (جمال). ظلت القصة الكاملة خفية على أبي وأمي، واحتفظ (جمال) بسبب الطلاق الحقيقي لنفسه.

في مصر؛ طلاق المرأة من الرجل أمر مشين، ولكن إذا كان الطلاق بين أبناء عائلة واحدة فإنها قصة أخرى، يتحول الأمر إلى نقطة سوداء في سمعة البنت وسمعة أسرتها بالكامل.

بعد انفصال (راوية) على هذا النحو المشين؛ تصاعدت حدة الحرب الباردة بين أبي وأسرة أمي، وبلغت إلى مبلغ العداء الصريح. وألقى والدي باللوم على الخالة (حميدة) واتهمها هي وبناتها في إفساد (راوية).

وبدأت (راوية) هي الأخرى في شن حربها الخاصة التي تطالب فيها بالتحكم بشكلٍ كامل في حياتها دون وصاية من أحد. كانت على دراية بحقوقها القانونية كامرأةٍ مطلقة. ليست في حاجة لموافقة أحد على الخروج من المنزل أو السفر.

شعرت (راوية) أنها منبوذة في المنزل، ولم يتبق لها صديق سواي. كان (رضا) ينعتها بكل الصفات القذرة، وكان (أحمد) يردد ما يقول. حتى (سمير، وهادي) عاملوها بلا احترام. وطلبت مني (هالة) كذلك أن أبتعد عن (راوية) ولكني لم أصغ لها .

كانت العائلة كلها تنظر إلى (راوية)، كما لو كانت متهورة وتحتاج إلى الشدة والقسوة حتى تتوب. أما أمي فقد توقف أبي عن الحديث معها تمامًا، وأمضى الكثير من وقته كئيبًا في غرفته.

وقبل موعد زفافي بأسبوعين؛ استيقظت لأكتشف أن شقيقتي لم تنم في فراشنا تلك الليلة، فقد وجدت متحسسة بيدي أن البقعة التي تنام عليها باردة. نهضت في فزعٍ باحثة عنها في كافة أرجاء المنزل، فيما عدا غرفة والدي، ولم أجد لها أثرًا.

انتظرت في فراشي حتى تستيقظ أمي، وأنا أشعر بنفسي كما لو كنت عارية بدون شقيقتي. أردت أن أصدق أن (راوية) ستظهر عند باب غرفتنا في أية

لحظة. وبينما تمر الدقائق أخذت أهتز في مكاني ذهابًا وإيابًا كبندول الساعة؛ مفكرة في حال حياتي إذا ما كانت (راوية) قد قررت الرحيل .

دلفت أمي إلى الغرفة.

"أمي. أين راوية؟"

"لماذا؟"

"بحثت عنها في كل مكان، ليست في الشقة" .

أجابت بصوتٍ متشكك، قبل أن تغادر الغرفة مسرعة: "أليس لديك فكرة، عن المكان الذي يمكن أن تكون فيه شقيقتك؟"

"أقسم لك يا أمي، لا أعلم شيئًا." وبدأت أشعر بألمٍ في معدتي لمجرد التفكير بأن (راوية) ربما قد تكون رحلت وأنا نائمة، حتى لا تحملني مسؤولية رحيلها. لقد اهتمت لأمري حتى آخر لحظة لها في منزلنا .

جعلني التفكير في رد فعل أبي؛ أرتعد من الخوف. كنت أعلم في قرارة نفسي أن (راوية) لم تبتعد كثيرًا وأنها تنتظرني. وأن ذلك سيجعل من هروبي أمرًا ممكنًا .

وبنهاية اليوم؛ علمنا أنها اتخذت من بيت الخالة (حميدة) ملاذًا لها. طلبت أمي من خالتي أن تأمر شقيقتي بالعودة إلى المنزل، إلا أن (راوية) هددت بالهروب من كلا المنزلين بلا عودة، فلم تجبرها خالتي على شيء.

حين علم أبي بالخبر؛ فتحت أبواب الجحيم على مصراعيها، وألقى باللوم على أمي في كل شيء. وتوعد لها بحياةٍ من الشقاء، وأنه سيطلقها لو زارت خالتي (حميدة) ثانية .

توقفت أمي عن النوم في نفس الغرفة التي ينام بها أبي. كانت تتسلل للنوم إلى جواري في منتصف الليل، ثم تنهض بهدوء في الصباح قبل أن أستيقظ. كنت أتظاهر بالنوم حين تأتي، ولم أسألها مرة عن سبب هذا الانفصال .

تدهورت صحة أمي، فعلى الرغم من أنها كانت لا تزال في الأربعينات من عمرها؛ إلا أن نظرها قد تدهور وتضائل جسدها بسبب فقدان الوزن السريع.

كنت أعلم أن أمي تفتقد شقيقتي وعلاقتها الحميمة مع أبي. فعلى الرغم من اضطهاده لها؛ إلا أنها أرادت أن تصدق أنها تحبه حقًّا. ومعرفتي بذلك كله جعل تخطيطي أنا الأخرى للهروب؛ يصيبني بالغثيان والدوار.

وحين سألتها: ماذا ستفعلين لو ذهبت أنا الأخرى للعيش مع الخالة (حميدة) أجابت: "سوف أفوض أمري إلى الله؛ ليمنحني القوة والصبر".

وكما توقعت؛ كانت أمي تعلم أنني سأحذو حذو (راوية). وبينما حاولت أن أطمئنها وأن أخبرها عن مدى حبي لها وكم كانت أمًّا رائعة. لم تتمكن أمي من محو شعورها بالفشل. يبدو وأنها دائمًا ما كانت تصدق أبي حين يلومها على كل شيء.

يومًا ما؛ أقنعت (فاروق) أن يصطحبني لرؤية شقيقتي. أرسلت أمي لها معي مصروفًا من النقود والكثير من النصائح التي لم أهتم بتوصيلها. تكيفت (راوية) سريعًا مع حياتها الجديدة، ولم تأبه بالمشاكل التي تدور في منزلنا. أصبحت في النهاية قادرة على الخروج في أي وقت ومع أي شخص ترغبه. كما أنها تدخن الآن وجربت معاقرة الخمر. ارتدت فساتين قصيرة بلا أكمام، ووضعت مساحيق التجميل، وبدت أكبر سنًّا. كنت أحسد (راوية) على الحياة الحرة التي تعيشها، ووددت لو ألحق بها سريعًا.

أخبرتني شقيقتي: "انتظري حتى تتم مراسم زفافك، انظري إليّ، فالجميع يظنني فتاة مستهترة، ولا أريدهم أن ينظرون إليك بنفس النظرة".

تعد رغبات (راوية) في المجتمعات الحديثة؛ رغباتٍ طبيعية وصحية تمامًا لفتاةٍ في عمرها، ولكن ليس في دولةٍ مثل مصر، وقطعًا ليس بالنسبة لعائلة كعائلتنا. وبالرغم من كل الصفات القذرة التي ألصقها الناس بشقيقتي؛ إلا

أنها ظلت الفتاة الصغيرة التي تسعى وراء حريتها، ولم تكن بالفتاة المستهترة التي يظنها أبي.

قبل موعد زفافي بأيام؛ وقفت أنا وشقيقتي في شرفة غرفة طعام الخالة (حميدة) حتى تتمكن شقيقتي من التدخين، سألتها عما إذا كان لديها صديق، فابتسمت ابتسامة عريضة .

"بالطبع. واسمه مروان، نخطط أنا ومروان للزواج وسوف يصحبني معه إلى لبنان" .

أخبرتني بذلك كله كما لو كان أمرًا عاديًّا، ولكني كنت أرى أنها تحاول جاهدة لإخفاء شعورها بالحماس والإثارة .

"راوية! لبنان هي المكان الذي أخطط أنا وغسان للعيش فيه" .

هزت (راوية) رأسها، كعادتها الدائمة في محاولة إحباطي عن أحلامي بالسعادة مع (غسان): "ألا تعلمين يا ليلى، أنه بعد حصولك على الطلاق. لابد وأن تنتظري ثلاثة أشهر، قبل أن تتمكني من الزواج مجددًا؟"

قلت في إحباط: "ثلاثة أشهر، إنها فترة طويلة، لم عليّ الانتظار كل هذا الوقت؟"

"لا تسأليني عن السبب، فهذا هو القانون الذي شرعوه من القرآن" .

قلت في براءة: "ليس علينا إخبار الشيخ بموعد طلاقي." فليس لرجل الدين حاجة بمعرفة؛ متى حصلن على الطلاق.

قالت (راوية) بعصبية: "ليس الأمر بهذه السهولة، سوف يعلم الشيخ بموعد طلاقك من أوراق الطلاق الرسمية. فإذا كانت المرأة حامل، ففترة الثلاثة أشهر كافية لتحديد أمر الأبوة. هل فهمتي الآن؟" قالتها، وهي ترفع صوتها في إحباط .

"أجل. أعلم ذلك، ولكني لا أخطط للإنجاب، ويمكنني القسم على ذلك " .

obeikandl.com

"لا يهم هذا، فذلك هو القانون؛ ألا تعلمين أن كافة القوانين الاجتماعية والأسرية الخاصة بالمرأة سنت من القرآن؟ وليس لدينا خيار سوى الانصياع لها." ثم استدارت (راوية) متمتمة: "لا أدري. كيف يمكن أن أتركك يا ليلى، إنك لا تدرين أي شيء عن الأمور القانونية".

"وهل ستتركيني." لم أفهم، فكنت أرى أنني سريعًا ما سألحق بـ(راوية) عند منزل الخالة (حميدة)، ثم يمكن لكلانا حينها السفر إلى لبنان مع زوجينا .

"كلا. ليس بعد! ولكن إذا سافرت قبل حصولك على حريتك؛ سوف أعود لأساعدك في أوراقك وجواز سفرك. ثم يمكنك حينها الانضمام لي بعدها".

كانت كلمات (راوية) واعدة ومريحة ومنحتني الثقة في إنني سأكون معها في القريب العاجل بلبنان، ومع (غسان) أيضًا. في الواقع، كان (غسان) قد أنهى دراسته الجامعية بالفعل وسافر إلى مسقط رأسه. سوف ينجح الأمر برمته، سأحصل على الطلاق، وأتزوج من (غسان). كانت تلك هي الأحلام التي راودتني لأسابيعٍ تلت.

(26)

أختار أبي أول خميس من شهر سبتمبر؛ لإتمام مراسم زفافي وأصر على أن يكون الاحتفال في بيتنا. وقام بتحديد المدعوين ليقتصروا على أفراد عائلته وعائلة (فاروق)؛ لأن موقف (راوية) كان يشعره بالخزي، ولم يرغب على إجابة أية أسئلةٍ بشأنها. وكان ذلك يعني حضور ثلاثين فردًا من عائلة أبي، وعشرين من عائلة (فاروق)، ولا أحد من طرف (ماما) على الإطلاق.

بدأت الإعدادات للزفاف قبلها بعدة أسابيع؛ حيث تم نقل أثاث منزلي وتجهيزاتي إلى شقتي المستقبلية مع (فاروق). وتم وضع خطة الحفل وطريقة تنظيمه.

بدأت مشاعر الخوف والرهبة تتمكلني أكثر فأكثر مع اقتراب موعد الزفاف، فبدأت في التفكير في خطة للهروب. ومع رحيل (راوية)، وذبول أمي بسبب ما ألمّ بها من مرضٍ وحزن؛ اتجهت إلى فردٍ آخر في أسرتنا وهو (سمير) شقيقي الأصغر الذي بلغ الثالثة عشر من العمر الآن. وعلى الرغم من شعوره بالخوف والجبن بسبب اضطهاد (أحمد، ورضا) له، إلا أن (سمير) يمكن أن يكون ماهرًا للغاية. وكان أملي أن أعتمد عليه. ازداد شعوري بالخوف مع اقتراب موعد الزفاف، وآملت أن يجد (سمير) طريقة ليساعدني على الهرب. كنت أعلم أنه سيحاول إذا ما سألته ذلك، نظرًا لأنني كنت ملاذه الآمن دومًا؛ حيث تثار المشاكل بينه وبين (أحمد، ورضا).

في الليلة التي سبقت ليلة زفافي؛ اختفيت في غرفة أخي (سمير) ووضعت أنا وهو بمشاركة أفضل أصدقائه (طارق) خطة للهروب. وكان والد (طارق) يمتلك خمس سيارات تاكسي، وكان أملي الوحيد هو نجاح هذه الخطة وإلا أصبحت أنا وهو في ورطة كبيرة.

openkanal.com

في صباح يوم الخميس؛ بدأت في الاستعداد لمراسم الزفاف، وبينما طلت (كريمة) أظافري باللون الأحمر، دخل أبي الغرفة باحثًا عن أمي. خرجت (كريمة) في الحال من الغرفة، وقبل أن أتمكن من إخفاء يدي خلف ظهري؛ رأى أبي لون أظافري فدلف عبر الغرفة مثل الثور الهائج، وجذب ذراعي وسحق أصابع سبابتي على سطح (الكومود) الرخامي حتى تدفق الدم منه.

ثم صاح قبل أن يغادر الغرفة: "كم مرة أخبرتك ألا تطلي أظافرك؟ "

ألجمني الخوف، وأخذ إصبعي ينبض بالألم، جلبت منشفة من الدولاب بيدي غير المصابة ووضعتها على إصبعي فنقعها الدم، أزحت المنشفة لفحص الجرح، فوجدت أن ظفري قد انكسر؛ تأوهت في ألمٍ ثم دفنت إصبعي في المنشفة مرةً أخرى.

دخلت أمي وأمسكت إصبعي المصاب برفق: "حسبنا الله فيك يا كمال." لم تكن تتمنى لوالدي أي أذى، ولكنها غالبًا ما كانت تخبرني أن عقاب الله في الآخرة سيكون عظيمًا.

"لا تقلقي يا أمي، إنه جرح بسيط ".

داوت أمي ظفري المكسور بضمادة طبية ثم غادرت. وضعت ثوب زفافي الفستان الأبيض بنفسي وغطيت دموعي بالفستان الأبيض. لم يساعدني أحد في وضع ملابس زفافي، ولم يبتهج أحد لدى رؤيتي بها.

لم أفهم مطلقًا معنى الشعور بالوحدة حتى ارتديت ثوب زفافي. شعرت أن جانب مني خاوٍ وحزين. بينما يزخر الجانب الآخر بأحلامٍ عن المستقبل تختلف عن تلك التي رتبها لي أبي .

لو كان لي فقط جناحين يمكناني من التحليق إلى (لبنان) للوصول إلى (غسان)، حتى نتمم مراسم زواجنا الذي عاهدنا بعضنا عليه. ابتسمت ووعدت نفسي أن أنهي تلك التمثيلية في أسرع وقت ممكن.

ظللت سحابة قاتمة عليَّ هذا اليوم الذي من المفترض أن يكون يوم للبهجة والاحتفال. لم يتمكن أحد من تجنب نوبات غضب أبي، حتى (هالة) الهادئة المنطوية حصلت على نصيبها بصفعةٍ على وجهها؛ تركت أثر أصابعه على وجهها عندما رآها تضع أحمر شفاه وردي اللون .

وبسبب غضبه العارم، لم يتمكن أبي من دفع نفسه إلى مواجهة أقاربه، فقضى معظم الوقت في غرفته.

وعلى الرغم من المحادثات العادية التي تجاذبها الحضور، إلا أن ما اكتنف الحجرة كان مناخ كئيب. صدح صوت الموسيقى، ولكن لم يرقص عليها أحد. وبدا أفراد العائلة ممن حضروا منهمكين في أحاديثهم الجانبية، ولم يولني أي منهم اهتمام. ولم يكن هناك أصدقاء لي في زفافي.

حين دلفت إلى الصالون؛ لم يعلق أحد على فستاني، ولم يخبرني أحدهم أن مظهري جميلًا، ولكن ذلك لم يزعجني. لم أجلس معهم طويلًا وعدت إلى غرفتي. فالمراسم الرسمية للزواج قد تمت منذ عامين على أية حال.

بحثت العمة (عقيلة) عن أمي وذهبت إلى غرفة أبي. وسمعته يقول لها؛ أنه أرسل أمي إلى منزل شقيقتها. وحينها لم يكن هناك ما يثير دهشتي.

غالبًا ما تستمر الأفراح في مصر إلى وقتٍ متأخر من الليل، وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، ولكن ليس فرحي. غياب أبي وأمي و(راوية) عن المكان؛ ألقى بظلاله الكئيبة على التجمع، وحفز المدعوين إلى الانصراف باكرًا. فانتهى الحفل بعد ساعتين فقط.

غمرتني سعادة بالغة عند انتهاء ذلك الكابوس، وهربت بمجرد انتهاءه إلى ملاذي الخاص واستلقيت على فراشي في الظلام، وأنا في حاجة ماسة إلى التفكير في حياتي. فلقد ضاعت فترة مراهقتي، قبل حتى أن أعيشها، مثلما فعلت كل فتيات جيلي.

مررت بيدي على فستان زفافي الأبيض، وتذكرت قول العمة (عقيلة): "إن الفتاة ترتدي ثوب الزفاف الأبيض مرة واحدة فقط، وإذا تزوجت ثانية لا ترتديه".

اغرورقت عيناي بالدموع عند التفكير في (غسان)، ولكني عزيت نفسي وعاهدتها على القتال من أجل تحقيق حلمي وآمالي لحياتي معه.

طلب مني أبي أن أخلع فستان زفافي، قبل الانتقال إلى بيت الزوجية، ولكني رفضت آملة أن تراني أمي وأنا أرتديه، فلابد وأنها تنتظرني هناك، فكيف عساها تذهب إلى مكانٍ آخر؟

عندما حان الوقت للذهاب مع زوجي؛ رفعت حاشية ثوب فستاني وهرعت باتجاه الصالة متوقفة عند باب غرفة والداي، فلابد أن تكون هناك تحية وداع، إلا أن والدي كان قد أوصد الباب.

أقسمت ألا تطأ قدمي ذلك المنزل ثانية، ودلفت إلى غرفتي للمرة الأخيرة ونظرت إلى الشرفة نظرة وداعٍ إلى الحي حتى أبقيها في ذاكرتي عنه. دفعتني الذكريات الحلوة والمرة التي مرت عليّ بين جدران هذا المكان إلى الرغبة في الصراخ. شعرت بغصةٍ في حلقي، وعدت تجاه الفراش الذي كنت أتقاسمه أنا و(راوية) وربت على وسادتها، رفعتها إلى وجهي وملأت روحي بعبيرها. تنهدت في عذابٍ لتركي كل ذلك خلفي. ثم تذكرت المجلات التي كنت أخفيها خلف الدولاب.

ولدهشتي وجدت عمتي (عقيلة) تقف على الباب حاملة حقيبة ورقية في يدها، ويرتسم على وجهها ابتسامة حانية: "كنت على علم دومًا بأمر مجلاتك السرية".

عانقت العمة (عقيلة) عناقًا سريعًا، ثم فتحت درج الطاولة الجانبية، وجذبت (أوتوجرافي) المدرسي ودسسته مع المجلات في الحقيبة الورقية، قبل أن أمنح العمة (عقيلة) عناقًا طويلًا وأغادر الغرفة .

تمتمت: "يجب أن تأتي لزيارتنا قريبًا".

أجبتها في حيرة: "سأحاول".

انتظرني (فاروق) حتى يصطحبني إلى منزلنا الجديد، ولكني لم أستطع المغادرة. بدا المنزل خاويًا بدون أمي و(راوية) اللتين افتقدتهما كثيرًا. لقد أرادت أمي رؤيتي في ثوب الزفاف، ولم أرغب في المغادرة قبل أن تراني.

حين رأتني عمتي (عقيلة) مترددة سألتني: "هل هناك خطب ما عزيزتي؟"

تهدج صوتي: "كم أفتقد ماما".

"سآخذك لرؤيتها ولكن لا تخبري أحدًا." أخذتني عمتي (عقيلة) من يدي إلى المدخل، ثم فتحت الباب عبر سلم الخدم وقالت: "لقد كانت أمك تختبئ طيلة الحفل في السطح. اذهبي يا عزيزتي، وودعي أمك وسوف أنتظرك هنا، وسأحذرك إذا ما بحث عنك والدك، أو رضا، أو أحمد".

شكرتها بعناقٍ طويل، وحملت ذيل فستاني الأبيض هارعةً عبر السلم إلى السطح.

وقفت أمي في الظلام محدقة إلى السماء. سبق ورأيت أمي ذات مرة في الشرفة تتحدث إلى الله في تضرع، ولكنها لم تبدو مستغرقة في صلاتها قط مثل اليوم. لم تشعر باقترابي منها .

همست لها: "أمي".

استدارت أمي، وجفلت، ثم بدأت في البكاء. ضممتها بين ذراعي، لكنها أبعدتني في لطفٍ قائلة: "كم تاقت عيناي لرؤية واحدةٍ منكن في ثوب زفافها الأبيض ".

كم كرهت أبي لوضعه أمي في هذا الموقف الحزين. وعلى الرغم من شعوري بالحزن والأسى على حالها، إلا أني تمنيت أن تمتلك من الشجاعة ما يجعلها تدافع ليس عن نفسها فحسب، ولكن عن (راوية) وعني.

قمت بالدوران حولها عدة مرات ببطء حتى أشبع رغبتها. ثم توقفت وجففت دموعها بقبلاتي: "لم أتمكن من الرحيل قبل توديعك يا أمي ".

قالت أمي، وهي غارقة في دموعها: "أعلم أن الله سيستجيب لدعواتي." وتلاقت روحي وروح أمي في عناقٍ طويل.

وددت أن أخبرها؛ أن تتوقف عن الاعتقاد بأن الله استمع إلى صلواتها، ولكن لا يمكنني التشكيك في إيمانها. فهو ملاذ وراحة لها على أية حال .

"إذا كانت علاقتك مع الله طيبة على هذا النحو؛ لِمَ لم تسأليه أن يرزقك زوجًا طيبًا متفتحًا قبل الزواج؟ "

"والدك رجل طيب ولا يختلف عن أي رب أسرة، فجميع الرجال يتبعون تعاليم الإسلام وليس للنساء خيار في هذا، وعليك كذلك الانصياع لتعاليم ديننا عزيزتي ".

"ولكن الرسول (محمد) عامل زوجاته بلطفٍ واحترام يا أمي. كان يقدر الرسول آراءهن وقد استشارهن حتى في أمور الحرب".

"والدك ليس رسول يا عزيزتي".

فقلت لها متهكمة: "حسنًا. طالما أن أبي مثل كل الآباء؛ كوني أنت مثل جميع الأمهات، واذهبي له واطلبي غفرانه".

"سوف أفعل يا عزيزتي، فليس لدي مكان آخر للذهاب إليه. سوف تذهبين إلى بيتك الجديد مع (فاروق)، لا سبيل للهروب من القدر أو مخالفة الثقافة والعادات. لا أحد يستطيع ذلك".

"أنا أستطيع يا أمي وسأفعل ".

مشيت وأنا أجر أذيال الخوف، أراقب ابتسامتها تغرق في دموعها وتتبدد. ألقيت لها بقبلةٍ وغادرت وأنا عاقدة العزم على أن أعيش حياةً تختلف عن حياتها، وأن أرسم قدري بنفسي.

واقتضت العادة أن تنتهي مراسم الزفاف بجولةٍ إلى وسط المدينة عند مسجد (المرسي أبو العباس) من أجل التبرك به. وكجزءٍ من الخطة التي وضعتها أنا وسمير، أن يأتي (سمير) معي أنا و(فاروق) في هذا المشهد الأخير من الاحتفال.

وكان اتفاقنا في الليلة السابقة؛ أن يذهب (سمير) إلى صديقه (طارق)، الذي كون صداقة مع سائق أبيه صغير السن، وكان يدعى (سليم). ولم يمانع (سليم) السائق البالغ من العمر عشرون عامًا أن يستخدم سيارة الأجرة خاصته في مساعدتي على الهرب. وقد رتب (سمير، وطارق) الأمر على أن ينتظرني السائق قرب بناية (فاروق) داخل سيارته الأجرة .

وبينما قاد (قناوي) شقيق (فاروق) السيارة مقلًّا إيانا من بيت والدى وحتى المسجد، جلس (فاروق) إلى جواره في المقعد الأمامي، وجلس (سمير) إلى جواري في المقعد الخلفي .

اختلجت مشاعر الخوف والقلق بداخلي، وجف حلقي. تصبب عرق بارد متخذًا طريقه إلى أسفل ظهري، وأسفل ذراعي- قطرات عرق طويلة ورفيعة- وأصابت البرودة أطراف جسدي. ارتعدت من الخوف. هل ستنجح خطتنا؟ هل بوسعي الاعتماد على (سمير، وطارق) حقًّا؟

سرت رجفة في قدمي وأوصالي، وتناوبت نظراتي الحادة منتقلة بين أضواء الشارع و(سمير) أخي، الذي أخذ يدي بين يده حتى يطمئنني. كم أرعبني مجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث لـ(سمير) عقب هروبي والعار الذي سيلحق

بعائلتي، إلا أن رغبتي في اللحاق بـ(راوية، وغسان) منحتني القوة الكافية للالتزام بالخطة وليكن ما يكون.

أخذنا في الدوران خلف المسجد سبع مراتٍ، كما اقتضت العادة قبل التوجه إلى المنزل الجديد. لم أقرأ أي آياتٍ من القرآن ولم أدع الله بأي شيء، نظرًا لأنني أعلم أن صلواتي لن تؤثر على عملية هروبي في شيء. لقد أنكرت القدر الذي كتبه الله لي .

وبينما اقتربنا من مدخل بناية (فاروق)، همس (سمير) في أذني: "انظري إلى الخلف، أترين سيارة الأجرة التي خلفنا تلك؟ حين يطفئ (قناوي) محرك السيارة، افتحي الباب وتحركي بسرعة تجاهها وادلفي داخله. وسوف أتعامل أنا مع (فاروق) ومن ينتظرونك هنا".

لم أشك ولو للحظة واحدة في شجاعة (سمير) ورغبته في تنفيذ الخطة إلى النهاية. وكنت أتوق إلى الهرب لدرجة لا تجعلني أفكر في تبعات الموقف. حين رأيت أسرة (فاروق) تنتظرنا؛ انتابني القلق مما سيظنه حمواي بي، ولكن لم يكن هناك متسعًا من الوقت لأهتم بذلك. كنت على مسافةٍ قريبة من تحقيق حلمي، ورفضت الاستسلام لمخاوفي. لم تحظ الكثير من الفتيات ممن عشن موقفي بفرصةٍ كتلك التي سنحت لي، ولم يحظين بعمة من نساء عائلاتهن كما حظيت أنا. شعرت بحضور أمي، و(راوية) والعمة (عقيلة) وسمعت أصواتهن يحثونني على التقدم وعدم النظر خلفي مطلقًا.

توقفت السيارة، ونزل (سمير) منها مانحًا السيارة الأجرة إشارة للاقتراب. فعلت كما طلب مني أخي الذي دفعني بسرعة في المقعد الخلفي للسيارة الأجرة. خرجت نصف طرحتي و(سمير) يدفعني ويوصد الباب بسرعة ويعطي السائق إشارة للانطلاق. لم يمتلك أي شخص، سواء (فاروق) أو أي من المنتظرين وقت لاتخاذ أي ردة فعل .

تعالى صوت إطارات السيارة وهي تنطلق بي بسرعة. جلست على حافة مقعدي وأنا أنظر يمينًا ويسارًا وأرتعد. تسارعت ضربات قلبي متناسبة مع هول ما اقترفت لتوي. وبعد أن أخذت نفسًا عميقًا حركت لساني على شفتيّ الجافة ليرطبهما وغصت في مقعدي.

"سامحيني يا أمي".

قال (سليم) ضاحكًا: " أقسم على أن ما حدث للتوّ أفضل من أي مشهد سينمائي رأيته." ولكني لم أجد هروبي مضحكًا .

وعبر النافذة الخلفية للسيارة؛ شاهدت (سمير) يتبادل اللكمات مع (فاروق) ويحيطهم عدد من الناس.

"توقف!" أردت أن أعود لأنقذ أخي.

قال (سليم) ضاحكًا: "لن يحدث شيء لسمير، لديه ما يكفي من العون".

وبينما ابتعدنا مسرعين سرت في جسدي رجفة من الارتياح الممتزج بالخوف. لقد ارتكبت جريمة، ولكني لم أكن أعرف ما عقابها. آه لو كانت (راوية) هنا إلى جانبي! كنت في حاجةٍ إلى من يطمئنني بأن كل شيء سيكون على ما يرام. اتجهنا إلى فيلا الخالة (حميدة) ولكن الطريق بدا طويلًا للغاية .

نظر إليّ (سليم) عبر المرآة، وسألني عدة مرات عما إذا كل شيء سيكون على ما يرام. كنت اكتفي بإيماءه وأنا أحملق عبر النافذة. ماذا لو كان أبي ينتظرني عند خالتي حميدة؟ صحت قائلة: "توقف! توقف الآن من فضلك"!

توقف (سليم) على جانب الطريق: "ما الخطب؟"

أعطيته رقم هاتف الخالة (حميدة) وطلبت منه أن يتصل لينظر ما إذا كانت هناك مشاكل بانتظاري.

أوقف (سليم) السيارة في شارعٍ جانبي وأوصدها، ثم اختفى لبضعة دقائق، ولم أتمكن من التحكم في جسدي وارتعاده حتى عاد مبتسمًا .

"المكان آمن وهم في انتظارك".

اعتصرت يدي بتوترٍ وشكرت الله.

"لا تخافي أيتها العروس الجميلة." قالها بينما استدار ليرمقني بنظرةٍ تساؤل.

تجاهلت (سليم) والتزمت الصمت حتى وصلنا إلى منزل خالتي (حميدة)، كانت (راوية) بانتظاري عند الباب الأمامي ومعها خالتي و(ثريا) .

رحبت بي (راوية) وعلى محياها ابتسامة انتصار. ألقيت بنفسي بين ذراعيها أبكي. "وعدنا (سمير) بأنك ستأتين لنا. لم أتمكن من تصديق ذلك! إننا أخيرًا أحرار!" ثم غمزت لي. " أوربما نكون تقريبًا أحرار".

رفعت ثوبي الأبيض وأنا أهرع إلى الداخل، يمتزج ضحكي وبكائي وأنا أحاول التحكم في يدي المرتعدة من فرط التوتر .

رددت: "لا أصدق أنني أخيرًا حرة"!

قادتني (راوية) إلى الغرفة التي تقيم فيها، خلعت ثوبي الأبيض ووضعته جانبًا. ناولتني واحدًا من فساتينها عارية الذراعين باللون الأصفر والأزرق، لم يكن يغطي ركبتي وأحببته كثيرًا ".

خاضت أمي حديثًا مطولًا مع خالتي (حميدة)، محاولة إقناعها أن تعيدني إلى المنزل، ولكنها رفضت.

أخبرتنا خالتي قائلة: "إن (سمير) بمأمن في المنزل، وأنت و(راوية) في حمايتي حتى لو اقتضى ذلك قطع علاقتي بأمكما ".

عانقت خالتي (حميدة) بشدة: "أخيرًا هناك من يقف في صفنا".

"عليك أن تفهمي أنك تسببت في موقفٍ غاية في الصعوبة، فإننا لا نعرف كيف سيكون رد فعل والدك أو أخيك الأكبر".

"لقد أقسم والدك على طلاق أمك منه؛ إذا ما جاءت إلى هذا المنزل".

obeikandl.com

قالت (راوية): "لا تقلقي يا خالة، سوف نلتقي بـ(ماما) في مكان خارج الفيلا، لا يمكن لأبينا منعنا من رؤيتها في مكانٍ آخر".

سألتني خالتي (حميدة) عما إذا كنت واثقة من رغبتي فيم أفعل .

"أجل! فأنا لا أرغب في أن أكون زوجة فاروق".

فسألتني ثانية: "وما السبب؟"

كنت قد علمت من أمي؛ أن خالتي تؤمن بالحب قبل الزواج، وهو ما منحني الشجاعة للتحدث معها.

"أود أن أتزوج من الرجل الذي أختاره، وقد اخترت رجلًا لي بالفعل. إنني أحب شاب لبناني يدعى غسان".

"وهل يرغب (غسان) في الزواج منك؟"

"بالطبع، إنه يرغب في مقابلة أبي".

"هل يمكنك الترتيب مع (غسان) ليأتي إلى هنا".

سألتها في فرح: "متى؟"

"أي وقت".

خفق قلبي كما لم يخفق من قبل. عشت في عالمي الجديد وتلذذت بمذاق الحرية دون قلق؛ متناسية حقيقة وضعي كامرأةٍ متزوجة هاربة. ولكنني كنت أخشى رد فعل (فاروق، وأبي، ورضا). إنني بأمان مع خالتي ولكني لا أدري إلى متى سيستمر ذلك الحال. كل ما كنت واثقة منه هو حبي لـ(غسان)، فهو مستقبلي وسعادتي وملاذي. وقد قطعت على نفسي عهدًا ألا يفرق بيني وبينه أحدًا .

obeikandl.com

الجزء الرابع: ملاذ آمن

obeikandl.com

obeikandl.com

(27)

أخيرًا أصبحت أنا و(راوية) معًا مجددًا في منزل الخالة (حميدة)، فعلى الرغم من أننا افترقنا لمدة أسبوعين فقط إلا أن تلك الأيام مضت عليّ دهرًا. انتابتني أخيرًا مشاعر الحماس والإثارة لكوني صغيرة في السن ولا أخضع الآن لطلبات أبي أو زوجي، وودت الاستمتاع بذلك الشعور. أما (راوية) على الجانب الآخر فلم تتخلى عن نظرتها الواقعية للأمور .

"تذكري يا ليلى، أننا لم ننجز أي شيء بعد".

لم أتحمل الاستماع إلى حديث (راوية) الذي لا يعني شيئًا بالنسبة لي، وبدلًا من ذلك ركزت على استكشاف منزلي الجديد. فقد سمحت لنا الخالة (حميدة) بالإقامة في واحدةٍ من غرف الضيوف بفيلتها. كان الفراش في الغرفة فسيح بما يكفي لي ولـ(راوية). وبدا الغطاء وردي اللون المطرز أشبه بسجادة من الزهور، لم أجرؤ حتى على لمسها، فانحنيت وقبلتها. ووجدت على الجانب الأيمن من الفراش المزين الذي اعتلته مرآة مستديرة وإلى جوارهم مقعد صغير منجد بقماش (كانافا) كتاني على شكل زهرات وردية اللون في الخلفية. وغطى أرضية (الباركيه) سجاد فارسي بخاري، سجادتين على جانبي الفراش. وكان هناك دولاب أبيض بمقصورتين في مواجهة الفراش. وباب يؤدي إلى الحديقة يطل على سلم مغطى بالياسمين الذي نشر عبيره بسخاءٍ في غرفتنا. أزحت الستائر لأواجه الحديقة المشذبة، وأخذت نفسًا عميقًا فاتحةً ذراعاي مستمتعة بعبير الحرية .

"هل نحن حرتان حقًّا يا راوية، أم أنني أحلم؟ "

"ليلى. اجلسي هنا واستمعي إليّ." مشيرة إلى مكانٍ بجوارها على مقعد مرآة الزينة الصغير: "لم ينته الأمر بعد، تذكري أنني وأنت في مشكلةٍ كبيرة، فقط يرفض فاروق تطليقك ".

نفذت عبارة (راوية) كالخنجر إلى قلبي مباشرة، ممزقة لحظة السعادة التي كنت أعيشها وأعادتني إلى الواقع القبيح الذي كنت أركز عليه وأنا أهرب، إنني لم أفكر فيم قد يحدث بعد ذلك.

أردفت (راوية): "ولكن إذا كان (فاروق) رجلًا شريفًا، ويملك قدرًا من احترام الذات سيطلقك." إلا أن صوتها كان يحمل نبرة شك؛ لأنني وهي كنا نعلم تمام العلم أن (فاروق) لم يكن ليفعل شيء دون استشارة أبي .

سألتها: "هل يمكن أن يكون بالغباء الذي يدفعه إلى الإصغاء لأبينا بعد هروبي".

أجابت (راوية) كما لو كانت تحدث نفسها: "علينا أن ننتظر؛ لنرى ما سيحدث خلال الأيام القليلة القادمة ".

تملكني فزع بالغ من التفكير في ردة فعل أبي. لم أفكر مطلقًا في تأثير تصرفي على سمعة عائلتنا. وما فعلته كان خطيرًا بما يكفي لدفعه أو أخي لقتلي.

قلت وأنا أرتعد من الخوف: "ربما يجدر بي العودة".

"كلا! لا تهاري، إذا أردت أن أساعدك لا تظهري لي ذلك الجانب الضعيف ثانية." ثم أشارت بإصبعها نحو وجهي: "وإلا أرسلتك إلى (بابا) وتركته ليقطعك إربًا هو ورضا وأحمد"!

"حسنا." توقفت وأخذت نفسًا عميقًا. فلولا دعمها وتشجيعها لكنت مازلت بين براثن أبي. سألتها أخيرًا: "أخبريني ما الذي كنت تفعليه بحريتك خلال الفترة الماضية؟"

obeikandl.com

ابتسمت (راوية) وطلبت مني أن أعدها ألا أسخر منها، ثم استلقت على الفراش فاتحةً ذراعيها، وقالت: "إني غارقة في الحب يا ليلى".

لم أصدق ما سمعت، فالحب عند (راوية) أمر متقلب وغير مستقر مثل مزاجها بالضبط.

"هل هو ذلك الشخص الذي حكيت لي عنه من قبل؟ هل هو مروان؟" سألتها، وكلي فضول لمعرفة ما إذا كانت قد وقعت في حب شخصٍ غيره، أم لا. "أين التقيت به؟"

أجابت بهدوء: "التقيت به في منتصف البلدة في (سانتا لوسيا). ذهبت هناك بصحبة ثريا وشويكار".

أبهرني ذهابها إلى (سانتا لوتشيا)، كنت قد سمعت عن هذا المطعم من والداي. إنه وجهة النخبة والصفوة أهالي الإسكندرية. تردد عليه الكثير من الشخصيات الشهيرة مثل الملك (فاروق)، والرئيس الراحل (جمال عبدالناصر) وعدد من مشاهير الفن من الممثلين والمطربين ".

"راوية. هل ستصحبيني إلى هناك؟"

"بالطبع يا ليلى، فمن الآن فصاعدًا ستكونين برفقتي في أي مكانٍ أذهب إليه".

استمعت إلى (راوية) بشغف، وازداد حماسي وشهيتي للحياة التي تحياها، إلا أنني رغم ذلك لم أتمكن من التخلص من مخاوفي.

قرأت (راوية) القلق المرتسم على ملامحي. "لا تتركي الخوف يتملك منك هكذا، سيكون كل شيء على ما يرام. أنت بأمان هنا. إن أبي لا يحب الخالة (حميدة)، ولا يزورها. إلى جانب أنه عليك أن تفهمي أن الرجال لا يملكون شيئًا لا نملكه نحن. فيما عدا هذا العضو طبعًا." وأشارت إلى عضوها الخاص. "عليك أن تتعلمي الثقة بنفسك".

obeikandl.com

أومأت على الرغم من تشككي فيم تقول.

"أنا وأنت نمتلك عقولًا تمامًا كالرجال، غير أننا أكثر ذكاءً منهم، يمتلك الرجال فقط عضلات أكثر ولذا لن يمنحك (فاروق) الطلاق دون قتال. عليك أن تبقي قوية وأن تتمسكي بما كسبت من المعركة حتى الآن." ربتت على كتفي قبل أن تردف قائلة: "عديني. ألا تستسلمي مطلقًا ".

رسمت ابتسامة على وجهي متظاهرة باقتناعي بما تقوله (راوية)، على الرغم من أن الخوف من ردة فعل أبي كان لا يزال ينهشني .

"أعدك يا راوية".

أخبرتني (راوية) بالخطة التي وضعتها منذ أن تركت منزل أبينا، سوف تتزوج من (مروان) ثم تسافر إلى لبنان .

في واقع الأمر، سوف تسافر (راوية) في القريب العاجل، ورتبت هي و(مروان) لأن ألحق بهما في بيروت. وأخبرتني أن حبيبها (مروان) ميسور الحال، وأنه يحبها كثيرًا وأنه سيضمن لها مستوى معيشي يسعدها. وشددت على مظهره الوسيم، ولم تهتم بسنه الكبير، فتمتمت قائلة: "إنه ناضج".

سألتها في قلق: "لا يبدو أن مروان مثل أبينا، أليس كذلك؟ "

"كلا، كلا على الإطلاق، إن (مروان) يبدو أصغر من أبي بكثير، وألطف. سوف تحبينه ".

كانت شقيقتي على وشك إخباري بالمزيد، حتى سمعنا ضوضاءً قادمة من خارج الغرفة .

فتحت جزءًا صغيرًا من الباب واستمعت لما يدور، ثم قالت هامسة: "ليلى إنه (مون شابوه) لقد أرسله أبي إلى هنا."، (مون شابوه) أو قبعتي، كان الاسم الذي كنت أطلقه أنا و(راوية) على (رضا) في حضوره. لم يكن (رضا) ملمًّا

بالفرنسية، على الرغم من أنه منذ فترةٍ طويلة أمسك بنا ونحن ندعوه بـ(مون فورير).

ذهبت إلى الباب إلى جانبها وارتعد جسدي خوفًا، وأنا أسمع (رضا) يطلب من الخالة (حميدة) الدخول إلى غرفتنا. دفعت أنا و(راوية) الباب لنغلقه ثانية، وبكيت حين صاح (رضا) في وجه خالتنا.

"إذا جاء (رضا) هنا ليستعرض عضلاته، فربما عليه أن يستعرضها على أحمد." قالتها (راوية) في غضبٍ مسرعة باتجاه الباب: "لماذا نختبئ منه؟ سوف أخرج لمواجهته"!

لم أكن واثقة مما كانت تعنيه (راوية) بشأن (أحمد)، ولم أهتم بسؤالها فقد كنت غارقة في مشاعر الخوف من غزوة (رضا) وتهديداته.

"أوه، كلا يا (راوية) لا تفعلي ذلك أرجوك، فأنت مطلقة ولكني لست كذلك، فربما يأخذني (رضا) عنوة إلى المنزل، أليس له الحق في ذلك؟"

"كلا. ليس لديه الحق في ذلك، (فاروق) وحده هو من لديه هذا الحق، إنه وحده من له سلطة عليك".

"أتعنين أن بمقدور (فاروق) القدوم إلى هنا وأخذي؟"

"يمكن أن يحصل (فاروق) على حكم محكمة، وأن يعيدك إلى المنزل مقيدة في الأصفاد، أنت قانونًا زوجة ناشز، ولكني لن أسمح بحدوث ذلك ".

ارتسمت ابتسامة أمل على وجهي بعد طمأنة (راوية) لي.

حين هدأت الضوضاء بالخارج؛ طرقت خالتي الباب برفق ودلفت إلى الغرفة: "ليلى عزيزتي، موقفك خطر، ولا أدري كيف يسعني التعامل معه." ثم ارتسم القلق على وجهها وهي تقول: " لقد منح والدك التصريح لـ(رضا) أن يقتلك إذا لم تذهبي معه".

"هل تعنين أن يقتلني؟"

أومأت.

شعرت بغثيان في معدتي، وحاولت الصراخ، ولكن صوتي لم يخرج من حلقي.

لا يمكن لأحد مساعدتي ولا حتى (راوية)، كان عليّ اتخاذ قرار. وأيًّا كان الطريق الذي سأسلكه فإن مستقبلي في مهب الريح. شجعتني (راوية) على الالتزام بالخطة، ولكني مثل أمي، أفهم حدودي. وعلى عكس (راوية)، لم أكن حرة وهجرت زوجي وأصبحت في نظر القانون ناشزبلا حقوق.

شعرت أنني مقيدة بذلك العقد الذي برمه أبي ووقعه نيابة عني. فكيف للقانون أن يمنح الرجال في عائلتي بموجب هذا العقد تقييد حريتي. وكل ما تملكني حينها هو غضب يصل إلى حد الغليان من ذلك الحق، والتفضيل الذي فضله الله للرجال على النساء.

كيف تقبلت النساء طيلة تلك الفترة المنصرمة أن تعيش تحت وصاية الرجال على هذا النحو؟ إن المرأة في التاريخ المصري القديم، وعلى عكس المرأة في التاريخ اليوناني، الروماني، وبلاد ما بين النهرين تمتعت بالمساواة مع الرجل في نظر القانون. كانت المرأة عند قدماء المصريين قادرة على امتلاك أرضها الخاصة، وقادرة على إدارة ممتلكاتها، بل وكانت قادرة على تمثيل نفسها في المحكمة. كن يجلسن على مقاعد المحلفين ويدلين بشهاداتهن في المحاكمات، وكن يخضعن لنفس العقوبات التي تفرض على الرجال. كن قادرات على الحصول على الطلاق، وأن يرفعن قضايا لضمان حقوقهن، ولم يمنعهن أي من ذلك من الزواج مرة أخرى. كيف فقدت المرأة حريتها في مصرنا الحديثة على هذا النحو؟ يخبرني ديني أن الإسلام جاء لتحرير المرأة، فلِمَ لم يعملوا على تفعيل تلك الحرية التي زعمها الدين؟

لقد حان الوقت لتستعيد النساء حريتهن واستقلالهن ثانية، وسوف أكون أنا أول من يقود الزمام. شعرت بالقوة والقدرة على القتال، عزمت على الاستمرار في معركتي للحصول على طلاقي، ومهما تكبدت من خسائر؛ لن تكون في حجم وفجاعة خسارة حريتي .

انعزلت الخالة (حميدة) في غرفتها. فقد ساهم هروب (راوية)، وزفافي غير المكتمل، وتهديدات (رضا) في التسبب في ضعف حالتها الصحية. وقد أخافني التفكير في أنه لن يكون في مقدوري الاعتماد على خالتي وقت الحاجة إلى دعمها .

وبينما تمددت إلى جوار (راوية) شعرت بشوقي إلى حضور أمي المريح والمطمئن. "أود الاتصال بأمي." قلتها، ويعتريني الخجل من عدم قدرتي على أن أكون أكثر نضجًا في التفكير في جبهةٍ تحميني.

"لا يمكنك الاتصال بها، انظري يا ليلى، لقد فُتحت علينا أبواب الجحيم، وأنت السبب في ذلك." ألقت (راوية) باللوم عليّ. على نحو خارت معه قواي على القتال والمقاومة. "لا يمكن لأمنا القدوم إلى هنا، هل ترغبين في أن تكوني السبب في طلاقها؟"

تسبب حديثها في شعوري بمزيدٍ من الاستياء. "كلا، ولكن يمكن أن أقابلها في مكانٍ آخر".

"يمكننا التحدث في ذلك غدًا، لننم الآن".

طال عليّ الليل، وأنا أفكر في غضب أبي وتهديدات (رضا). وتساءلت: فيم إذا كانت تصرفاتي تسببت في ضررٍ أكثر مما توقعت .

هل علي الاتصال بغسان في لبنان؟ كلا. أود أن يراني تلك الفتاة القوية القادرة على حل مشكلاتها بمفردها.

في صباح اليوم التالي؛ دلفت خالتي (حميدة) إلى الغرفة معلنة وصول (فاروق) وانتظاره في غرفة الصالون: "يرغب (فاروق) في أخذك إلى المنزل، ويرفض طلاقك".

سألتها بصوتٍ متهدج: "ألم تخبريه بأن (ليلى) لا تحبك؟"

قالت: "لم يأت (فاروق) هنا بدافع الحب عزيزتي، لقد جرحت كرامته وشرفه، لا يمكن لرجلٍ أن يتجاوز ذلك بلا معركة." أظهر صوت خالتي (حميدة) تعاطفًا مع (فاروق).

اغرورقت عيناي بالدموع، ونظرت إلى خالتي (حميدة) في توسل، ولكنها اكتفت بالتنهد والخروج من الغرفة.

بدأت في تقبل فكرة الإذعان لقدري، على النحو الذي كانت تعنيه أمي حين تحدثت عن قدرها، حتى أنني شعرت بالذنب لما فعلته بأسرتي وتحديدًا سمعة أبي. أخذت أدور في الحجرة، ثم استدرت باتجاه (راوية) التي كانت تراقبني في صمت.

"سوف ..." ثم تعثر صوتي.

"كلا. لن تفعلي أي شيء يا ليلى." قاطعتني (راوية) في حزم. "عليك أن تتعلمي؛ كيف أن تجعلي قلبك أكثر صلابة، أن تتجاهلي مشاعرك، حتى تحققي أهدافك. لا تشعرين بالأسى والأسف من أجل أي شخص. علم (فاروق) أنك لا ترغبينه، ولكنه اختار أن يستمر في الزواج".

لم يكن في مقدوري تقبل نصيحة (راوية) بسهولة.

انضمت إلينا خالتي (حميدة) بعدها بدقائق قليلة وقالت: "أكد (فاروق) قبل أن يغادر؛ أنه لن يطلقك مطلقًا، وأنه لن يجعلك تنعمين بأي حريةٍ طيلة حياتك بعقد الزواج الذي معه".

لم أفهم ما تعنيه خالتي، ولكني أصغيت لها في صمت.

obeikandl.com

"كما هدد (فاروق) بأنه سيغير خريطة وجهك. بحيث لا يتحمل أي رجل النظر إليك".

شرحت لي (راوية) أن تهديده لي يعني أنه سيشوه وجهي بحامض. انهرت باكية. فهناك الكثير من الحوادث التي تشير لرجال قاموا بتشويه أوجه زوجاتهن، وشقيقاتهن لعدم طاعتهن لهم.

في السابعة عشر من عمري، لم أشعر بأن لدي الخبرة الكافية في الحياة لمواجهة كل تلك المشكلات بمفردي. ولم تسلحني حياتي السابقة الهادئة بما أحتاجه لاتخاذ قرارات بمفردي. لم أكن على دراية بالتداعيات القانونية لتصرفي. لماذا لم أملك روح الفتاة المتمردة التي تنعم بها شقيقتي، بدلًا من كوني تلك الابنة المطيعة سهلة الانقياد؟ والآن وبعد أن كسرت العديد من القواعد، وتسببت في الكثير من الفوضى؛ أقف بلا دراية لسبيلٍ يزيح عن كاهلي ذلك الحمل المضني .

obeikandl.com

(28)

استيقظت في صباح اليوم التالي وأنا في حالة تشوش، أغلقت عينيّ وفتحتها عدة مرات. لم تكن هناك مصاريع خشبية تفصل بيني وبين العالم الخارجي، كما كان الحال في غرفة نومي السابقة. ثبت عيني على السماء الزرقاء المطلة عبر الستائر الشفافة أرجوانية اللون، مستنشقة عبير الياسمين، وأنا ابتسم بفعل أغصانه المتراقصة بلطفٍ مع عبير الصباح .

لم أسمع صوت تلاوة القرآن يتردد في أرجاء المنزل، واعتلى بدلًا منه صوت زقزقة العصافير في جوقة. اغتسل وجهي بدفء آشعة شمس الصباح، فتركت فراشي واتجهت نحو الشرفة للمرة الأولى دون خوف .

دعتني خالتي للانضمام معها على طاولة شاي الصباح، وقدمت لي طبقًا من بسكويت العدس والدقيق. كانت خالتي (حميدة) ترسل لنا علبة من هذا النوع من البسكويت كل صيف، والذي كانت تحصل عليه من الأقصر، في صعيد مصر. كهدية من أهل زوجها. وها هي الآن تقدم لي نفس البسكويت مع فنجان من اللبن. أعادني ذلك إلى مذاق طفولتي، مما ساعدني على نسيان ما أواجه من مشاكل .

شعرت بسعادة قضاء ذلك الوقت الهادئ مع خالتي، وآملت ألا تفسده بفتح موضوع الزواج .

"هل نمت جيدًا؟ "

"أجل." شعرت بالاسترخاء بشأن الماضي وفكرت في المستقبل. "لقد قررت الحصول على شهادة الثانوية العامة، وأحتاج إلى مساعدتك يا خالتي".

مدت خالتي (حميدة) ذراعها محتضنة إياي في دفء. "لن أبخل عليك بالمساعدة حبيبتي".

منحتني تلك اللحظة وغيرها من اللحظات التي سأعيشها في هذا المنزل شعورًا بالأمان. لم يكن هناك أي رجل يعيش في فيلا خالتي فيما عدا البستاني والسائق، والطاهي. يعم على المنزل مناخًا هادئًا مسالمًا، وقد شعرت بالراحة لكوني بعيدة عن أبي، ورضا، وأحمد .

وفت خالتي (حميدة) بوعدها، واستعانت باثنين من المعلمين لمساعدتي على الدراسة من المنزل، وقد أدركت تحت إشرافهما؛ كم فاتني الكثير بالدراسة بمفردي في المنزل .

علاوة على ذلك، كونت أنا وابنة خالتي (ثريا) صداقة حميمة، كانت (ثريا) تسكن بالطابق العلوي من الفيلا، وكانت متزوجة من طبيب أمراض نساء ولديها طفلين، فتاة تدعى (منال) تبلغ من العمر ثمانية أعوام، وولد يدعى (رشوان) يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. لم تتحدث (ثريا) مطلقًا عن غياب زوجها، وكانت (راوية) قد أخبرتني أنه مسافر للخارج، ولكنها سريعًا ما كشفت لي انفصالها عن زوجها، وأنهما في طريقهما للطلاق .

ومع مرور الوقت وتوطد علاقتي بـ(ثريا)، دعتني لمشاركتها الجزء العلوي من الفيلا، وأصبحت ابنة خالتي سريعًا شقيقةً أخرى لي .

أخبرتني أمي ذات مرة؛ أنه حين ولدت (ثريا) لم تتمكن خالتي (حميدة) من إرضاعها، وطلبت من أمي أن ترضعها من ثديها بدلًا منها. ووفقًا لشريعتنا حين ترضع سيدة ابنًا غير ابنها، فإنه يصبح في مقام الابن، وهو ما يعني أنه لا يمكن لـ(ثريا) الزواج من أحد من أشقائي.

أصبحت خطط (راوية) بشأن الزواج من (مروان) قيد التنفيذ وانشغلت في الإعداد لسفرها إلى لبنان، ولم يعد لديها الكثير من الوقت لتنفقه على

obeikandi.com

مشكلاتي. وقد عوضني قرب (ثريا) وحب خالتي ورعايتها عن افتقاد دعم وصداقة شقيقتي.

سهرنا لوقتٍ متأخر في الليلة السابقة لسفر (راوية) إلى لبنان. وحاولت أن أتمعن في وجهها الجميل لأجعل تقاسيمه محفورة في عقلي الباطن. كان فمها يتحرك ولكني لم أكن أسمع ما تقول، ولم أكن أسمع صوت ضحكاتها. كنت سعيدة من أجلها، ولكني حسدتها على الحرية التي تنعم بها دون الكثير من العناء. ضايقتني حيويتها وحماسها، فقد وددت لو أن تشعر (راوية) بحزني وكآبتي، ولكن يبدو أنها كانت مستغرقة في عالمها الجديد كلية. كنت أراقبها وهي تحزم حقائبها؛ بينما اختلجت بداخلي الكثير من المشاعر التي لم أشاركها إياها .

وبينما كنت أتأهب أنا و(راوية) أخيرًا للخلود إلى النوم؛ دلفت (ثريا) إلى الغرفة ومعها سلسلة ذهبية بها قفل صغير في يد، وفي اليد الأخرى كاميرا (كوداك). أخرجت مصحفًا صغيرًا من القفل، ولفت السلسة الذهبية حول عنق (راوية)، ثم قالت: "أريدك أن ترتدي هذه السلسلة، فسوف يحفظك القرآن الكريم ".

"شكرًا لك. سوف أحتفظ بهديتك الثمينة ما حييت".

لم أكن واثقة مما كانت تعنيه (راوية) بعبارتها تلك، أو ما إذا كانت سترتدي السلسلة التي تحمل القرآن بالفعل. لقد أخبرتني (راوية) أن المرأة المسلمة ستعاني طيلة حياتها بسبب القيود التي فرضها عليها القرآن. بل وإن (راوية) رفضت قراءة القرآن أو آداء الصلوات المفروضة.

استدارت (راوية) نحو كاميرتها،"هيا يا فتيات، لنلتقط صورة معًا لتقف كالشقيقات".

عملت المشاعر التي نحملها أنا و(راوية) عمل المعناطيس، وجذبتنا إلى بعضنا البعض في عناقٍ حميم. طبعت شقيقتي قبلة على وجنتي، والتقطت

الكاميرا تلك اللحظة في ذاكرتها. طلبت من (ثريا) أن أفعل مثلما فعلت (راوية)، وقبلتها أن الأخرى وانطلق فلاش الكاميرا، ولم أدر حينها ما إذا كانت الدمعة التي بللت شفتاي دمعتي أم دمعة (راوية) .

جذبت (ثريا) يدي، وارتسمت على وجهها ابتسامة متفهمة. "ليلى إنني هنا دائمًا من أجلك؛ علاوة على أن (راوية) لن ترحل إلى الأبد، فسوف تأتي لزيارتنا".

"أجل. أعدك بذلك، فبمجرد حصولك على الطلاق؛ ستجديني في الإسكندرية في أقل من أربع وعشرين ساعة".

صدقتها، ولم يكن لدي خيار سوى محاربة الرجال اللذين يحملون مفاتيح الأصفاد التي تكبلني وأن أجبرهم على تحريري منها .

تركتنا (ثريا) لتأوي إلى فراشها، وبقيت ساهرة أنا و(راوية)؛ لأمضي أطول وقتٍ معها قبل رحيلها .

فرغت (راوية) من حزم أغراضها، ومنحت حقيبتها المفتوحة على الفراش نظرة طويلة متأملة، ثم قالت: "إذا احتجت أي قطعة من ملابسي؛ رجاء احتفظي بها".

ثم دست يدها في صف الملابس المرصوص بعناية، وأخرجت قميص نومها أحمر اللون المفضل، وألقته نحو وجهي. "حين تفتقدينني ارتدي هذا ".

أغلقت حقيبتها ووضعتها على الأرض، ثم قفزت إلى الفراش. وسريعًا ما غرقت (راوية) في النوم بين ذراعي، وأنا أحمل قميصها (النايلون) في يدي .

في الثامنة صباحًا: أحضرت لنا الخادمة (أحلام) فنجانين من الشاي، وبعض الحليب، وأربع بيضات، وقطعًا من جبن الفيتا، ووضعت (الصينية) على الطاولة وغادرت. لم يكن لأي منا أنا و(راوية) شهية، ولكنها ناولتني فنجانًا من الشاي وأخذت فنجانها .

وقبل أن يلمس شفتها قالت: "من الأفضل أن أستعد، فطائرتي خلال أربع ساعات".

كانت الحماسة بادية عليها، وكم شعرت بالسعادة من أجلها والغبطة كذلك. حين خرجت بعد استحمامها؛ أخذت تصفر بلحن أغنية عبد الحليم حافظ (سواح)، وبمجرد أن دلفت إلى الغرفة؛ انتزعت منشفتها وأخذت ترقص أمام المرآة. "ستكونين سعيدة مثلي تمامًا ياليلى، قريبًا".

همست. "آمل ذاك".

"لا تخافي الرجال، لا يمكنهم إجبارك على شيء لا تريديه. هل اعتقدت من قبل أننا سنكون أحرارًا بالفعل؟"

قلت بصوت منكسر. "أنت حرة. أما أنا فلا".

"سوف تصبحين كذلك. عليك فقط الإيمان بنفسك، إنها حياتك ويمكنك أن تعيشيها وفقًا لما يمليه عليك قلبك".

أردت تصديق ما تقوله (راوية) فحديثها يبعث بداخلي دفقاتٍ من الحماسة والأمل، ولكن حين أنفرد بنفسي؛ كان الشك ينتابني والشعور بعدم الأمان والخوف. مما قد يحدث حين لا تكون شقيقتي إلى جواري لتذكرني بتلك الوعود.

تعالى صوت رنين الهاتف من خارج غرفتنا.

"لابد وأن هذا مروان." لفت (راوية) المنشفة حول جسدها وهرعت إلى الهاتف، ولحقت بها ووقفت إلى جوارها، وهي تقول: "مرحبًا حبيبي".

ابتسمت، ولكن تملكني الغضب من (مروان) لاقتحامه لحظاتنا الأخيرة.

"أجل أنا جاهزة، سأراك قريبًا، شكرًا لك حبيبي".

أغلقت (راوية) الهاتف وعادت إلى الغرفة.

جلست في هدوء على حافة الفراش؛ بينما كانت ترتدي ملابسها. كانت بالفعل في عالمٍ آخر مختلف عن العالم الذي شهدناه في طفولتنا. وعلى الرغم من أني لن أكون بمفردي وستؤنس (ثريا) وحدتي؛ إلا أن ألم فراق (راوية) بات غير محتمل. بكيت في هدوء.

قرع البواب جرس الباب معلنًا عن وصول السيارة الأجرة التي ستقل (راوية) طلبت منه (راوية) حمل حقائبها، ثم عادت إلى الغرفة لتلقي نظرةً أخيرة إلى نفسها. استدارت أمام المرآة لتعدل من سترتها ذات العنق الطويل، وتنورتها بلون البيج. وكانت (راوية) بالفعل قد وضعت أحمر شفاه، ولكنها أخرجت قلم شفاه من حقيبتها ومررت به عليهما ثانية. وقفت في الممر معجبة بها؛ بينما يقطر قلبي .

سألتني بابتهاج: "كيف أبدو؟"

أجبتها، ودموعي تغلبني: "جميلة".

هرعت (راوية) باتجاه الباب، ثم توقفت واستدارت لتعانقني. وكانت (ثريا) واقفة، فعانقتها هي الأخرى.

"لا تنسي خالتك." ذكرتها (ثريا).

هرعت (راوية) في عجالة إلى غرفة خالتي (حميدة) لعناقٍ سريع، ثم خرجت سريعًا باتجاه الباب. "قبلاتي إلى أبنائك يا ثريا".

أغلقت أنا و(ثريا) الباب خلفها .

مكثت ليومين في غرفة النوم التي كنت أشاركها أنا و(راوية). أرتدي قميص نومها النايلون أحمر اللون دون أن أبرحها، ولكني في النهاية خرجت وانضممت إلى (ثريا). لقد حان الوقت على الاعتياد على العيش بمفردي .

(29)

لم أرغب في شيء سوى أن أكون مع (غسان) ثانية، إلا أن (فاروق) استمر في رفض منحي الطلاق الذي لن أتمكن بدونه من السفر إلى (غسان). حيث لا يمكنني مغادرة البلاد دون وثيقة طلاق، أو إذن موقع من زوجي أو أبي .

في الوقت ذاته؛ شهدت ابنة خالتي وهي تقع في الحب. فقد افتتنت (ثريا) برجلٍ يدعى (راشد)، في الواقع، لقد سلب حبه عقلها لدرجة جعلتها تضحي بكل شيء من أجله .

كان زوج (ثريا) يبني حياته المهنية كطبيب في أوروبا، ولم تعد (ثريا) في حاجةٍ لدعمه المادي بسبب ميراثها الكبير الذي تركه لها والدها. كان لديها شعور بأن زوجها لن يعود مطلقًا. كان زوجها يخونها بينما كانوا لا يزالون معًا؛ لذا لم يفرق مع (ثريا) كثيرًا أمر حصولها على الطلاق.

في مجتمعنا؛ لم يكن مسموحًا للمرأة بالخروج من منزلها بمفردها؛ لذا كانت (ثريا) في حاجة إلى صحبتي. كانت تصحبني معها في أي مكانٍ تتوجه إليه حتى في لقاءاتها مع (راشد) في الشقة التي ابتاعتها له بجزءٍ من ميراثها .

وفي كل مرة؛ كانت (ثريا، وراشد) يدلفان إلى غرفة النوم معًا، كنت أنتظر أنا في غرفة المعيشة؛ أحملق في الجدران حتى يفرغان من ممارسة الحب .

حين التقيت بـ(راشد) للمرة الأولى؛ وجدته رجلًا مفتول العضلات ذي عينين بنيتين وصوت رخيم مؤثر، وفكرت في نفسي أن (ثريا) قد وجدت الرجل الذي يستحق التضحية من أجله .

كان شقيق (راشد) يعمل في شركة التليفونات، وكان يسمح لـ(راشد) بالتنصت على مكالمات (ثريا)، وقد جذب صوت (ثريا) الأنثوي المميز انتباه

obeikandi.com

(راشد) وفضوله، فأخذ يتجسس على (ثريا) لأسابيع، قبل أن يأخذ خطوته الأولى تجاه علاقتهما .

وحين أكتشف راشد أن ثريا تتمتع بالثراء اقترب منها، واعتمد على مظهره الجذاب للفوز بقلبها. أضفت شخصية ثريا الرقيقة واللطيفة جمالًا إلى مظهرها متوسط الجمال، كما أن ثروتها أضفت عليها ما يكفي من السحر لجذب أي رجل تريد. وقد وجدت في راشد كل ما رغبته في الرجال.

وكم أزعجني؛ رؤية (ثريا) تبدد ثروتها على رجلٍ استغل كرمها وحبها له، إلا أنني لم أملك الشجاعة لإخبارها بذلك. كانت (ثريا) تكبرني، ومنفصلة ولديها طفلين، فبدا لي أنها تعلم تمامًا ما تريد .

وجدت أن افتتان (ثريا) بـ(راشد) قد تجاوز المدى، وأعمى عينيها عما لا يمكن أن يغفله أحد، فإلى جانب الشقة التي ابتاعتها له، اشترت له سيارة وملابس وكل ما كان يطلبه منها. لم أشهد في حياتي مطلقًا علاقة على هذا النحو، فمن المفترض أن يمطر الرجل حبيبته بالهدايا وليس العكس .

"أنا على استعدادٍ أن أقدم أي شيء مقابل الحماية والشعور بالأمان الذي يمنحني إياه (راشد)." وذكرتني (ثريا) أنني سريعًا سأحتاج رجلًا مها بلغ تعليمي أوكان عملي. لم أوافقها .

وبعد مرور عدة أشهر من سفر (راوية)، ضغط (راشد) على (ثريا) لبيع الفيلا التي نقطن بها مع أمها. كان لـ(ثريا) أختين غير أشقاء من أبيها، وقد أقنعها (راشد) أن شقيقتيها من الأب يتآمران لسرقة الجزء الأخير من ميراثها. واقتنعت (ثريا) أن (راشد) يريد الصالح لها .

حاولت ابنه خالتي إقناع أمها بفكرتها، مدعية أن الأموال التي سيحصلون عليها من بيع الفيلا؛ ستكون أكثر فائدة لهم من المنزل الفسيح .

صاحت خالتي (حميدة): "أتريدين بيع منزلنا؟"

قالت (ثريا): "اسمعي يا أمي، إننا لسنا في حاجة إلى كل تلك المساحة، ومن الأفضل لنا الانتقال في شقة ".

كانت تلك تمامًا هي الكلمات التي كان يرددها (راشد) على مسامع (ثريا) في لقاءاتهما الغرامية الأخيرة. وهنا قد بدأت حقًّا في الشك في دوافعه. كانت وعود (راشد) بالحب الأبدي والزواج، علاوة على حب (ثريا) اللامتناهي له السبب المباشر في عدم قدرتها على الحكم عليه بشكلٍ صحيح. لم تشك في نواياه مطلقًا، ولم تجادله فيما يقول. ولم تكن في المقابل تستمع إلى أي نقدٍ أو نصيحة أقدمها لها أو تقدمها لها أمها .

لم تملك خالتي القوة الكافية لمعارضة كلا من (ثريا، وراشد)، وبدلًا من اعتراضها على البيع؛ رضخت لرغبة ابنتها مسلوبة الإرادة أمام (راشد) في بيع الفيلا .

أصابت الإعدادات للرحيل من الفيلا والانتقال لمكانٍ جديد، خالتي (حميدة) بمزيدٍ من الوهن. فكلما اقترب موعد مغادرة الفيلا؛ تملك الشعور بالندم منها على فقدان المكان الذي جمعها بتناغمٍ مع زوجها الراحل. وتمثلت استجابتها لهذا الحزن والندم بإصابتها بمزيدٍ من الوهن والمرض .

وفي يومٍ من الأيام؛ بينما كنت مستغرقة في قراءة كتاب بغرفتي، ويعمل الخدم على جمع بعض السجاجيد لأخذها إلى الشقة الجديدة، سمعت صراخ أحدهم طالبًا المساعدة .

هرعت إلى الغرفة المجاورة؛ حيث كان الصخب والجلبة؛ لأجد خالتي (حميدة) مستلقية على الأرض واتسعت عيناها في فزعٍ، ويجتمع الخدم من حولها. مال فم خالتي معوجًا على أحد جوانب وجهها. ولم تكن قادرة على التحدث، وتمكنا بمساعدة الخدم من نقلها إلى غرفة نومها .

حسبنا أن كل ما عانته خالتي (حميدة) كان مجرد سقطة أو إغماءة، ومن الواضح أنها لم تعان من كسور على إثرها، ولكن بعد مرور أسبوعين دون تحسن حالتها؛ استدعينا طبيبها الذي أبلغنا بعد فحصها أنها تعاني من جلطة. وعلى الرغم من وصفه لعقارات لها، إلا أن آثار الجلطة لم تشفى تمامًا. تحسنت صحتها جزئيًا مع الوقت، ولكنها أصبحت تمشي بعرج، ولم تعد قادرة على الكلام كما كانت قط.

كان المبنى الجديد الذي انتقلنا إليه مواجهًا للبحر. واتسمت شقتنا الجديدة بالفخامة والأبهة في جوانب عدة، بإطلالة على البحر المتوسط. كان يتكون من ردهة وصالون، وغرفة طعام وثلاث غرف نوم، ومطبخ وحمامين. وكان علينا تسكين ستة أشخاص في ذلك الفراغ المتاح، خالتي (حميدة)، و(ثريا) بطفليها، والخادمة وأنا.

واجهت أسرة (ثريا) صعوبة بالغة في التكيف على السكن في شقة، أما أنا فلا. فطالما أنعم بحريتي يمكنني حتى أن أعيش في كوخ خشبي. ولكن سريعًا ما شعرت أن الوقت قد حان إلى أن أنتقل من هذا المنزل.

فقد تقلصت الأموال التي كانت بحوزة (ثريا) كثيرًا بسبب إسرافها في الهدايا التي تقدمها لـ(راشد)، وسريعًا ستنفد سبل إنفاقها على نفسها. ناهيك عن أمها وطفليها.

كثيرًا ما كانت (ثريا) تخبرني أننا سنبقى معًا في السراء والضراء؛ إلا إنني لم أشعر بالارتياح بسبب العبء الإضافي الذي أفرضه عليها. نشأت أنا و(ثريا) في رغد، ولم تخطر فكرة العمل في بالنا، وكان كلانا في حاجة إلى من ينفق علينا.

"ظل رجل ولا ظل حيطة." آمنت النساء في مصر بهذا المثل الشعبي، إلا أنني لم أفهم معناه إلا حين عشت مع (ثريا). فعلى الرغم من وجود ظل للجدران حولنا وسقف لبيتنا، إلا أن الشعور بالأمان كان ما ينقصنا. لقد نشأنا على

الاعتقاد بأن الرجال وحدهم هم مصدر الأمان، وأننا في المقابل سنعيش من أجل خدمتهم. كان يعني -أيضًا- أن نعيش متحملين إساءتهم لنا؛ آملين ألا يهجرونا في يومٍ أويتزوجوا من امرأةٍ أخرى .

فلطالما هدد أبي أمنا؛ أنه سيبحث عن زوجةٍ أخرى إذا ما استمرت في مناقشته وجداله حول أسلوب تربيته لنا. بل وأنني قد سمعت أبي يقول لـ(ماما) ذات يوم؛ أن الله قد منحه حق الزواج من أربع سيدات.

"أعلم أن ذلك محرم يا أمي، ولكن ماذا إذا ما شرح (غسان) لأبي أنه سيتزوج مني عقب انفصالي عن فاروق؟ بهذه الطريقة لن يشعر هوولا أنت ولا كامل عائلتنا بالخزي أمام المجتمع".

"إذا فعلت ذلك، ستحكمين على نفسك بالموت، فمجرد التفكير في ذلك يعد جريمة؛ نظرًا لأنك متزوجة عزيزتي، علاوة على أن والدك لم يتعاف بعد من الطريقة المخزية التي انفصلت بها شقيقتك عن زوجها".

اكتراث والداي لسمعتهما أكثرمن سعادتي ومشاعري!

"أنا ميتة بالفعل يا أمي، فكم أفضل الموت على استمرار زواجي من فاروق".

ترددت أمي قليلًا، وأخفضت عينيها مفكرة، قبل أن تقول: "سأثيرالموضوع مع أبيك، سأخبره أن هناك رجل آخر مستعد للزواج منك حال انفصالك، سأحاول حبيبتي، ولكن لا تنتظري حدوث معجزة ".

دعم أمي لي أراح نفسي قليلًا، على الرغم من شكي في نجاح مسعاها.

وفي اليوم التالي، في حوالي العشرة من صباح اليوم دق جرس الهاتف في منزل خالتي (حميدة)، وكنت أنا المجيب له.

"صباح الخيريا ليلى." استشعرت الحزن في صوت أمي.

"رفض أبي طلبي، أليس كذلك؟"

"لأن ما تطلبينه مستحيل، عليك أن تعي ذلك".

بدا القلق على صوت أمي وهي تردف حديثها: "اسمعي يا حبيبتي، لا تزيدي الموقف تعقيدًا، لن يسامحك أبوك ولا أخوتك على ما فعلت مطلقًا، عليك أن تذعني لقدرك".

"ساعديني أن أختارقدري يا أمي".

"ليحفظك الله يا بنيتي، كم أود لو كان (غسان) يستحق التضحية التي يقوم بها كلانا".

استيقظت اليوم التالي بعد أن خضت ليلة من النوم المتقطع؛ شاعرة كما لو كنت أواجه العالم بأسره بمفردي. أخذت أقلب الأمور في رأسي وقررت أن أغير(تكتيك) معركتي، سوف أقابل حماي (هيثم) وأتحدث معه، فربما يمكنه إقناع ابنه بتطليقي.

استقليت سيارة أجرة ذلك الصباح إلى شقة (هيثم)، بينما كان (فاروق) في عمله. وتعمدت ألا أتصل ب(هيثم) قبل ذهابي، تحسبًا أن يخبر أبي ويدعوه للقدوم. أخذت السلم حتى لا أخاطر بلقاء أي من أفراد أسرته في المصعد.

ترددت أمام باب الشقة لبضع دقائق، متسائلة عما يمكن أن يحدث، وما إذا كانت تلك الخطوة صائبة بالفعل وآمنة العواقب، فماذا لو حبسني (هيثم) ومنعني من الذهاب ثانية، واتصل بأبي وفاروق؟

انتظرت حتى كفت الأرض أسفل قدمي عن الدوار، ثم قرعت جرس الباب. تساقطت قطرات العرق التي تصبب بها جبيني من فرط التوتر. وتسارعت ضربات قلبي حين سمعت خطوات تقترب. وتجمد الدم في عروقي لدى رؤيتي لحماي (هيثم) بهيئته الضخمة وجلبابه الأبيض، وحين رآني حرك يده على بطنه وفرك عينيه. ووقفت أنا أمامه أرتعد.

تردد صوت (هيثم) عبر درجات السلم، وهو يقول: "حمدًا لله أنك عدت إلى صوابك، تعالي يا بنيتي، والآن أسامحك على ما فعلت؛ لأنك أتيت إلى هنا بنفسك".

قلت قبل أن يتمادى أكثر من ذلك: "آسفة، ولكني لست هنا من أجل البقاء ".

أمسك (هيثم) بيدي وأغلق الباب، مشيت معه بلا مقاومة، جلس على الأريكة وأجبرني على الجلوس إلى جواره. ارتميت عليها وحررت يدي من قبضته. أغلق (هيثم) عينيه، وبدأ في التنفس بصوتٍ عالٍ .

دلفت (حماتي) إلى الغرفة مبتسمة. نهضت لتحيتها، وانضمت إلينا على الأريكة .

بدا على حماي الإحباط، وهو يقول: "لم يكن ذلك ما توقعت." وخبت ابتسامة (حماتي) عن وجهها.

قلت، وأنا أنظر إلى الأرض: "لقد جئت إلى هنا كملجأ أخير، أنا لا أحمل في نفسي شيئًا ضد (فاروق)، إني على يقين من أن ولدكما ولد طيب وأنه يستحق الأفضل، ولكني لن أستطيع إسعاده ".

انتظرت بضعة دقائق على أمل سماعي لأي كلماتٍ مشجعة، ولكني لم أتلق أي رد.

أردفت، ولازلت غير قادرة على النظر لـ(حمواي): " لقد أتيت إلى هنا؛ آملة أن تساعداني في الحصول على طلاق، حتى أتمكن من المضي في حياتي".

فتح حماي عينيه أخيرًا، وقال في برود: "أفهم موقفك، وتعجبني صراحتك كثيرًا، ولكني لا يسعني القول بأن ما فعلتيه بابننا مقبول." توقف للحظات قبل أن يستمر. "وكم خيبت خالتك التي كنت أكن لها التقدير والاحترام آمالي. لقد ساعدني زوجها الراحل في محاكمتي في الوقت الذي لم يؤمن أحد قط ببراءتي،

ولن أدخل في مواجهات معها. ولهذا فإني لن أتدخل في تلك المشكلة بأي شكلٍ من الأشكال. الوحيدان اللذان يمكنهما مساعدتك فيها (فاروق) ووالدك".

قالت حماتي: "ابنتي الغالية، ما الذي اقترفه ابني؟ ما الذي لا يروقك فيه؟ (فاروق) شخص طيب، ومهذب ومسؤول. سوف يمنحك ابني حياةً رائعة مليئة بالحب والاحترام".

"إن الأمر لا يتعلق بـ(فاروق)، إني واثقة من أن ابنكما يتمتع بكل ما ذكرته عنه." أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقول: "إنني لا أحب فاروق".

أصمتتهما فظاظة عبارتي. وانصرفت دون أن أنتظر سماحهما لي بالذهاب، ودون أن أسلم عليهما .

وبمجرد خروجي من المنزل؛ توجهت نحو البحر حيث أشعر بالراحة والأمان. وبدا المكان مهجورًا على عكس أيام الصيف والإجازات التي يكتظ خلالها الشاطئ بالزائرين. وتلاطمت الأمواج العاتية أسفل قدمي في غضبٍ يشبه موجات الغضب المتلاطمة بداخلي. لا أدري كم مكثت هناك، وكم عدد المرات التي قلبت فيها حياتي، والأمور في رأسي حينها باحثة عن حل. تركت المكان شاعرة بأصفاد تكبلني. وتحول غضبي إلى ثورةٍ عارمة، وأنا أراقب انطلاق الأمواج وتحليق الطيور بحريةٍ فوق رأسي. كرهت أبي وكرهت السلطة التي منحها له الدين علي، ورغم عدم قدرتي على كراهية أمي إلا أنني كرهت سلبيتها .

استقليت في نهاية الأمر سيارة أجرة عائدة إلى المنزل. كانت كل من (ثريا) وخالتي في انتظاري في قلق، ولكني لم أقف عندهما، ودلفت مباشرة إلى غرفتي وأغلقت الباب. ودفعني شعوري بالعجز إلى البكاء ثانية. وبالرغم من رغبتي في إعفاء (ثريا) وخالتي من مسؤوليتي المالية؛ إلا أنني عجزت عن ذلك أيضًا، فلم يكن لدي مكان آخر للذهاب إليه .

أتت (ثريا) إليّ بعد فترةٍ وجيزة، وأخذتني بين ذراعيها. "إن مشاكلك هي مشاكلي يا ليلى. يمكنك الاعتماد عليّ، لن أسمح لدموع اليأس من التملك منك ".

شعرت بمزيدٍ من قلة الحيلة، وددت أن أخبر (ثريا) عن رغبتي في الرحيل، وعدم ارتياحي لمشاركتي إياها القليل المتبقي من نقودها، ولكني صمت عن ذلك واكتفيت بشكرها على مشاعرها الطيبة تجاهي.

لا يزال أبي و(فاروق) متحكمان في حياتي، إن هذين الرجلين يملكاني حرفيًّا وفقًا للشرع والقانون. وبدون موافقتهما لن أتمكن من المضي في حياتي على النحو الذي أريد. وإذا أردت أن أنعم بحريتي عليّ الوصول لأي منهما.

قررت الذهاب إلى (فاروق). وفي صباح اليوم التالي؛ استعديت لرؤية (فاروق)، ولكن في طريقي سمعت خالتي تتحدث إلى أبي .: ليك أن تحترم رغبة ابنتك يا كمال، وأن تمنحها حق اختيار زوجها. لقد حرم (الرسول) هذا النوع من الزيجات". كان صوت خالتي مرتفعًا وواضحًا على نحو أدهشني وهي تحادثه. فمنذ إصابة خالتي بالجلطة؛ مضت معظم الوقت في صمت. جلست إلى جوار خالتي (حميدة) وألصقت أذني بالسماعة.

قال أبي: "سيظل فاروق زوجها، ولن يتمكن أحد من تغيير ذلك حتى أنت".

ثم أغلق الخط. شعرت بالخوف، وتملكت مني خيبة الأمل. لم تنطق خالتي بشيء. فقد علمت من التعبير المرتسم على وجهي أنني سمعت ما قاله أبي .

فقلت بصوتٍ متهدج. "رجاءً لا تعيديني إلى هناك".

فتمتمت: "إن والدك رجلًا عنيدًا، لقد ظننت أن راحة ابنته هي الأهم عنده، ولكن الأمر لم يكن كذلك. لا تقلقي يا ليلى، لن أجبرك على القيام بشيء لا تريدينه ".

كم كانت كلمات خالتي مريحة، لكنها لم تخرجني من الفخ الذي أعلق به .

(30)

على الرغم من كل ما تعرضت له من نكسات؛ إلا أنني لم أفقد الأمل في الخروج من مصر والزواج من (غسان) يومًا ما، خاصة وأنه كان قد قام بكثير من الرحلات من لبنان إلى الإسكندرية خلال تلك الفترة، ورؤية (غسان) كانت تلهمني الصبر والتجلد؛ فكانت كل لحظات المعاناة تزول بمجرد أن أرى وجهه.

قبلت خالتي (حميدة، وثريا) غسان؛ باعتباره الرجل الذي أود أن أتزوجه في يومٍ من الأيام؛ فكانوا يستقبلونه بحرارة عندما يجيء إلى الشقة لاصطحابي.

لم أكن أعرف أبدًا متى سيأتي (غسان)، وكان يبرر ذلك بعدم رغبته في إنعاش آمالي ثم إحباطي إذا لم يتمكن من المجيء لسببٍ من الأسباب، فقد كان يريد ألا أغير فكرتي عنه كرجلٍ يفي بوعوده. رجل مختلف عن كل الرجال في عائلتي.

وقد قال لي ذات مرة عندما أصررت على ضرورة إخباري بمجيئه قبلها بوقت كافٍ: "أود أن أرى فرحة المفاجأة في عينيك الجميلتين."

وقد اعتادت (أحلام) الخادمة أن تعلن عن وصول (غسان) بالطرق على باب غرفة نومي ثلاث مرات، تليها طرقة واحدة قوية، وبالتالي عندما كنت أسمع تلك الطرقات الخاصة على باب غرفتي، كنت أعرف أن (غسان) قد وصل.

كنت أسارع بفتح الباب، سائلة إياها: "هل وصل غسان؟ هل هو هنا حقًّا؟" ودائمًا ما كانت ترد بابتسامة وغمزة بعينها، قائلة: "نعم." تمامًا كما فعلت هذه المرة.

فأغلقت الباب، وفتحت الدولاب، وجلست على كرسي التسريحة، ومررت أصابعي بين خصلات شعري، ثم عدت مرة أخرى إلى الدولاب، وأخذت أفتش في

ملابسي واخترت كنزة حمراء يحبها (غسان) وألقيتها على السرير، ثم أخرجت بلوزتي القطنية البيضاء وبنطال (كابري) أسود اللون؛ وعدت للجلوس أمام المرآة، ونزعت الدبابيس من شعري لينزل منسابًا على كتفي، فسرحته مع عمل مفرق من الجانب الأيمن، بنفس الطريقة التي يحبها (غسان)، ثم لبست تنورة صوفية سوداء والكنزة، وهرعت إلى الحمام لأغسل وجهي، وعدت إلى مرآتي للتأكد من عدم وجود أي أثر لـ(الماسكارا) على رموشي؛ لأن (غسان) كان قد قال لي ذات مرة: إنه يحبني من دون مساحيق تجميل. بدا لي أن الأمر قد طال دهرًا، في حين أنه لم يتجاوز بضع دقائق فقط. وفيما كنت أخرج من غرفتي سمعته يتحدث مع خالتي (حميدة).

دق قلبي فور سماعي صوته قبل أن تلتقي عيوننا. وقف (غسان) عندما دخلت الصالون، وذابت يدي في حرارة ودفء يديه. لم نقل الكثير من الكلام، ولم نجرؤ على عناق بعضنا البعض في وجود خالتي (حميدة)، ولكن روحينا ذابتا في حضن كبير.

فقالت خالتي (حميدة) والابتسامة تعلو وجهها: "أنتما معذورين".

وعندما كنا وحدنا في المصعد؛ شدني (غسان) إليه، ولثم جبيني بقبلةٍ استمرت حتى توقف المصعد.

ركبنا سيارته وتوجهنا إلى شاطئ مرسى مطروح الشهير برماله البيضاء ومياهه الفيروزية. كانت مرسى مطروح على بعد أربع ساعات بالسيارة غرب الإسكندرية، لم نتكلم خلالها كثيرًا، ولكنه كان يعتصر يدي بلطف؛ مرسلاً رعشة في أوصالي. غلبتنا النشوة والحنين، فظل الصمت مخيمًا علينا طوال الطريق.

ارتديت (بكيني) أحمر كان (غسان) قد أحضره لي من بيروت، ورغم خوفي من السباحة، فقد أقنعني بالنزول معه في الماء، غير أنني شعرت معه بالأمان.

عانقني (غسان) وقبلني في الماء، ولكن عندما وصل مرحلة الإثارة، دفعني بلطفٍ بعيدًا.

في نهاية المطاف؛ خرجنا من الماء ومشينا على طول الرمال البيضاء ويدينا مشتبكتين، حتى توقفنا عند محل بقالة صغير. اشترى (غسان) بعض الجبن والخبز الفرنسي وكوكا كولا، وأخذنا نأكل ونحن جلوس على بساط كان قد أحضره معه، ثم قال لي متأثرًا:

"لا أطيق الانتظار لآخذك معي إلى لبنان. أريدك أن تقابلي أبي وأمي".

كنت على يقين أن (غسان) يعني كل كلمة قالها؛ فقد أوضحت لي أمي ذات مرة أنه عندما يحافظ رجل على عذرية الفتاة فهو ينوي الزواج منها، وذلك دليل على صدق نواياه.

كنت متزوجة وهاربة. فهل ستتسبب ظروفي في أن أنزل من نظر غسان؟ وهذا ما دعاني إلى المبادرة بسؤاله: "هل أنت متأكد أن والديك سيقبلاني؟"

"أبي وأمي يحبانك بالفعل، وهما يعرفان كم أنا متيم بك، فضلًا عن أننا في لبنان نحب المصريين، ونحب لهجتهم وطريقتهم في الكلام، وأمي على وجه الخصوص تحب البشرة الزيتونية للمرأة المصرية. المصريون يشتهرون في لبنان بلهجتهم التي تختلف عن غيرهم من الناطقين باللغة العربية."

كنت أعرف أن خالتي (حميدة) و(ثريا) تحبان الاستماع إلى كلام (غسان) بسبب لهجته. كان (غسان) يقول على الطماطم (بندورا)، فيما كنا نقول عليها في الإسكندرية (طماطم)، أما في القاهرة فكان الناس يقولون عليها (قوطه)، ولكننا جميعًا نفهم لهجة بعضنا البعض.

"أعدك أن أنتظرك، مهما طالت فترة حصولك على الطلاق." هكذا أكد لي (غسان).

قبل غروب الشمس، عدت أنا و(غسان) إلى الإسكندرية، وقد تجدد أملنا في المستقبل. وعندما حان وقت الوداع؛ أفسحت خالتي (حميدة، وثريا) لنا بعض اللحظات من الخصوصية في الصالون؛ فأخذني (غسان) بين ذراعيه ومسح دموعي من على وجهي، قائلًا بتأثر:

"ابتسمي لي مرة أخرى".

تحاملت على نفسي لتند عني ابتسامة، ولكني ظللت لعدة أيام بعد أن تركني؛ أشعر كما لو كنت أعيش في جسدٍ بلا روح.

ذات مرة؛ جاء (غسان) إلى الإسكندرية لمدة أسبوع كامل، وكانت الأيام التي قضيتها معه ممتعة، لكنه لم تكن تطول بما فيه الكفاية.

دائمًا ما كنت أنا و(غسان) نختار شاطئ مرسى مطروح، ليس فقط لأنه بعيد عن أي مكان يمكن أن يقابلنا فيه أبي أو (رضا)، ولكن -أيضًا- بسبب جماله.

كنا نجلس على الشاطئ، نحلم ونتسامر، ونحن نسمع صوت الأمواج تداعب الرمال. بنينا أحلام مستقبلنا معًا هناك، رسمنا في مخيلتنا منزلنا الصغير على الشاطئ نفسه، وتخيلنا أطفالنا وهم يلعبون على الرمال البيضاء ويستحمون في مياه البحر الزرقاء. على الشاطئ، لم نكن نهتم بأي شيء آخر.

أكلنا، تنفسنا الهواء المنعش، وعشنا من أجل الحب، ولم أضطر أبدًا لأن أقول كلمة (لا) لـ(غسان) فهو لم يحاول مطلقًا أن يرغمني على أي شيء سوى العناق والقبلات، ولم أر على وجهه أي علامة على الإحباط من وضعي المعقد. كان كلتانا ينتظر ويعد الأيام حتى يعطيني (فاروق) حريتي.

كنت أعرف أنه يتعين عليّ أن أفعل شيئًا في القريب العاجل.

وبعد حديث خالتي (حميدة) مع أبي؛ ظل الوضع في حياتي على ما هو عليه لمدة عامين؛ فقد حرمت من اللجوء إلى كل السبل القانونية، فلم أستطع

الحصول على طلاق، ولا أن أعيش مثل أي امرأة متزوجة. بقيت أنا و(فاروق) في حالة من الجمود؛ فلا هو منحني الطلاق الذي طلبته، ولا أنا أديت دوري كزوجة له.

وصلت إلى يقين بأن أحد أسباب عدم حبي لـ(فاروق) هو أنه يتبع أوامر أبي؛ فقد بدا لي أنه لا يملك إرادة مستقلة.

ولذلك بقيت مع خالتي (حميدة، وثريا)، أقضي معظم الوقت في غرفتي. وعادة ما كنت أترك الباب مفتوحًا، ومع ذلك كنت لا أزال أشعر بأنني سجينة. وأخيرًا انفصلت (ثريا) و(راشد)، وأخذت (ثريا) تنفق على البيت من خلال بيع مجوهراتها، وغيرها من الأشياء الثمينة قطعة بعد قطعة، وهو ما جعلني أشعر بالذنب على نحوٍ متزايد بسبب اعتمادي عليها، فانسحبت من الأسرة أكثر وأكثر، وكنت أخترع أعذارًا وهمية لتجنب مشاركتهم حتى وجبة الطعام.

وفي كل ليلة؛ حينما تنام خالتي (حميدة) وبقية أفراد الأسرة، كنت أسهر باحثة عن وسيلة للخروج من مأزقي ذلك، ولكن جميع الأبواب بدت مغلقة، حتى أصبح شبح الموت ضيفًا منتظمًا في كل لحظات اليأس، وفكرت كيف أتخلص من حياتي. ولكن خوفي من عقاب الله دائمًا ما كان يمنعني من الإقدام على تلك الخطوة، وهذا الخوف هو ما دفعني للاستمرار، وأحيا بصيصًا من الأمل في نفسي.

كانت (راوية) تتصل بي كل يوم تقريبًا من لبنان، فقط للتأكد من أنني لم أستسلم، حيث كانت تشجعني على مواصلة السعي وراء هدفي المتمثل في الحصول على الدبلوم، فيما كنت أتمنى أن تحصل هي عليه أيضًا؛ فقد كنت لا أزال أرى أن التعليم هو أفضل سلاح في يد (راوية) لنيل استقلالها. ولكن ورغم إلحاحي عليها في ذلك الصدد، فإن جوابها لم يتغير قط. إذ كانت تصر شقيقتي على أنها ليست في حاجة إلى التعليم؛ لأنها ذكية وجميلة.

تزوجت راوية و(مروان)، وقالت: أن كل شيء تحتاجه متوافر لديها.

وأخيرًا دخلت الامتحان، وبعد بضعة أيام أرسلت الخادمة لمعرفة النتيجة التي نشرت على لوحة إعلانات في مبنى المدرسة. وبشرتني (أحلام) بأنني قد نجحت. كنت سعيدة لأن بعض الأشياء في حياتي تسير كما هو مخطط لها رغم كل شيء.

وخلاف تخرجي من مدرسة (البيزانسون)، لم يكن لهذا الحدث أي مراسم رسمية، ولكن هذا لم يمنع (ثريا) من أن تعطيني هدية. فقد باعت آخر سجادة فارسية في الشقة، وأخذتني لمحل كوافير في صالون في (رشدي) كانت تزوره كثيرًا قبل أن تفقد ثروتها.

اغرورقت عيناي بالدموع عندما أعلنت (ثريا) عن هديتها، وحاولت أن أرفض، ولكنها أصرت قائلة: "أريدك أن تتذكريني." فقلت لها:

"سوف أتذكرك دائمًا دون هذا، وكيف يمكن أن أنساك يا ثريا؟"

"أرجوك، اقبلي هديتي، فأنا أريدها شيئًا خاصًّا بيني وبينك".

وهكذا لم أستطع أن أرفض. وفي الصالون؛ أخذوا يصففون شعري ويطلون أظافري بالمانيكير لمدة ثلاث ساعات، وهو ما استمتعت به أيما استمتاع وسمحت لنفسي بأن أنسى كل همومي. قاموا بتصفيف شعري بقصةٍ جديدة تصل إلى الكتفين كما صبغوه بلون (البلو بلاك)، وطلوا أظافري باللون الأحمر الجريء الذي كان أبي يقول عنه إنه طلاء أظافر العاهرات فقط. وعوملت أصابع قدمي معاملة ملكية على يد شاب يدعى (سعيد) والذي لفت انتباهي منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها المحل.

عمل (سعيد) على قدمي ببطء ورقة، وقبل أن يقوم بطلاء أظافري رفع قدميّ إلى شفتيه وقبلهما، واحد بعد آخر، في حين كان ينظر في وجهي. كان من المفروض أن أرفض هذا السلوك الوقح لو كنت تلك المرأة (المهذبة) التي لطالما

أراد أبي أن أكونها، ولكن كان من الواضح أن (سعيد) على ثقة من أنني لن أعترض، وهو ما حدث بالفعل.

عندما انتهى الماكياج؛ نظرت إلى نفسي في المرآة وابتسمت، وأنا أهز رأسي بتسريحتها الجديدة ومعجبة بطلاء أظافريدي، وأصدرت صفير إعجابٍ كذلك بأصابع قدمي. كانت (ثريا) في انتظاري، وعبرت لها عن تقديري من خلال منحها عناقًا كبيرًا.

لم يكن المحل بعيدًا عن مسكن أبي، فخشيت أن يراني هو أو أخي، ونحن نغادر المحل. وبرغم تلك المناسبة السعيدة؛ إلا أنني و(ثريا) أسرعنا باستقلال تاكسي، والعودة مباشرة إلى المنزل.

عندما وصلنا؛ أخذنا المصعد إلى شقتنا ونحن لا نزال نضحك مستمتعين بنزهتنا، وفيما كنا نخرج من المصعد بعد وصوله إلى الطابق الذي تقع به الشقة؛ لاح أمامي شبح إنسانٍ مقدم نحونا؛ فقلت لاهثة:

"رضا!"

رفعت (ثريا) يديها؛ لتمنعه من الهجوم عليّ، وقبل أن أتمكن من التحرك، كان (رضا) قد جثم عليّ، وقد احتقن وجهه بالغضب، وكال لي لكمة قوية، فلم أدر إلا وأنا أتطوح إلى الوراء. شعرت بألمٍ شديد في وجهي، وبعدها بلحظة أحسست بزغللة في عيني ورحت في عالمٍ مظلم.

عندما استعدت وعيي؛ لم تكن لدي أي فكرة عن المكان الذي كنت فيه، واستغرق الأمر بضع لحظات حتى أستعيد قدرتي على الرؤية بوضوح. تحسست بلساني زاوية سنة مكسورة، فقلت هامسة:

"ثريا؟" ثم رأيت الوجوه المألوفة خالتي و(أحلام)، وأدركت ببطء أنني في سريري، آمنة أو هذا ما شعرت به في تلك اللحظة. ثم تذكرت ما حدث، وأدركت

أنني لست في أمان طالما كنت تحت رحمة أخي الأكبر. شعرت بالحرج البالغ، فسحبت الغطاء على وجهي، قائلة:

"أنا آسفة لوضعكم في هذا الوضع" فردت (ثريا):

"لا تأسفي أبدًا وأنت في هذا البيت؛ فأنت أختي، وسوف أحميكِ".

مددت يدي، وانحنت (ثريا) نحوي حتى أتمكن من عناقها، ثم قلت لها مغمغمة: "كيف استطعتِ التخلص منه؟" همست .

"اتصلنا بالشرطة، لكن (رضا) قال لهم إنك ناشز وزوجك يبحث عنك. وقفت الشرطة مع (رضا) وأرادوا أن نسلمك لأخيك، ولكن خالتي (حميدة) قامت برشوة الضابط بما تبقى معها من مالٍ متبقٍ من بيع السجاد، فأخذت الشرطة (رضا) وغادرت ".

سرت القشعريرة في جسمي؛ فلو أن (رضا) كان ينوي قتلي، لتمكن من فعل ذلك، لكنه لم يحضر سكينًا أو أي سلاح آخر، وقد هاجمني بيديه وكال لي لكمة واحدة فقط.

كان (رضا) يريد أن يؤذيني ويخيفني، ولكنه لم يرد قتلي. وحتى مع ذلك، كنت لا أزال أعتقد أن أخي قد يتمادى في غضبه في نهاية المطاف. ولو حصل، فلن يدان بتهمة القتل؛ ورغم تعهد خالتي (حميدة، وثريا) بحمايتي، إلا أنني كنت أعرف حدود قدرتها، وتيقنت من أن (رضا) سيكلل مسعاه بالنجاح إن عاجلًا أو آجلًا.

لقد حان الوقت للتحرك، والتحرك بأسرع ما يمكن. كان يتعين عليّ: أن أنهي هذه الزيجة بأي وسيلةٍ ممكنة.

إن تعاليمنا الإسلامية تحرم الكهانة، ولكن كل أسرة مصرية تقريبًا تلجأ إلى تلك الوسيلة، كـ(أم زبيدة) في منزل أبي التي تقرأ الطالع (تستشرف المستقبل) من فنجان القهوة أو الكوتشينة.

وفي بيت خالتي (حميدة)، كانت (أحلام) تستمتع بقراءة طالعنا. وفي لحظات الحزن واليأس كنت أدعوها لممارسة مهارتها باستشراف مستقبلي؛ فتعطيني كوبًا من القهوة التركية، وبعد شربه؛ أقلب الكأس رأسًا على عقب للسماح بانسكاب ما تبقى من القهوة في الصحن، ليصنع شكلًا معقدًا لـ(أحلام). كانت كلتانا تستمتع بالوقت الذي نقضيه معًا في هذا الصدد. وها أنا الآن أنقاد مرة أخرى مدفوعة بيأسي للحصول على تنبؤات (أحلام).

دخلت (أحلام) غرفتي مرتدية ثوبًا قطنيًّا بسيطًا، وهي تتبختر وتتمايل مثل راقصة، ثم جلست على الأرض ووضعت (صينية) نحاسية مستديرة أمامها، وأشعلت السبرتاية وفوقها (كنكة) وبجوارها صحن وفنجان من الخزف الأبيض.

كنت في تلك الأثناء مستلقية على سريري أحدق في السقف، ولكني جلست عندما بدأت (أحلام) في الكلام؛ حيث قالت وابتسامة كبيرة تعلو وجهها:

"من أخذ عقلك، فليهنأ به." ثم أردفت: "هل تريدين معرفة ما إذا كان الشاب الذي تظهر صورته في فنجانك يفكر فيكِ أيضًا؟" ورفعت أحد حاجبيها بطريقة استفزازية مضحكة؛ فقلت لها فورًا:

"أجل أريد. أعطني الفنجان".

لم أكن أحب القهوة، ولكن من أجل معرفة مستقبلي؛ لم أمانع في أن أشربها. قراءات (أحلام) لم تتغير أبدًا. في إحداها، شخص يحبني وسوف يتزوج مني. وفي أخرى، رأت (أحلام) طريقًا مفتوحًا أمامي. ودائمًا ما كانت تعطيني الأمل بنتائج قراءتها، رغم أنني كنت أعيش في بؤس، ولم أمشِ أبدًا في الطريق المفتوح الذي تنبأت لي بالسيرفيه؛ فقلت لها هذه المرة:

"قولي لي شيئًا جديدًا".

تفحصت (أحلام) فنجاني، ثم هتفت: "الحرف (غ) أراه بوضوح." وأشارت بإصبعها الخنصر داخل الفنجان.

"ولكني لا أراه." لم أكن أرى أبدًا ما تراه (أحلام) في فنجاني، ولكنها قالت مصرة:

"إنه هنا، تحت إصبعي. أستطيع حتى أن أرى بحرًا كبيرًا، سوف تعبرينه، وهناك تنتظرك السعادة." فاضطررت أن أكذب، قائلة:

"نعم، أراه".

كانت (أحلام) تقول لي ما أحتاج إلى سماعه لكي تريحني؛ وعلى الرغم من شكوكي، فقد شعرت بالأمل يتجدد في نفسي بعد قراءة فنجاني.

انتظرت بضعة أيام حتى اختفت من وجهي التورمات والكدمات التي تسبب فيها (رضا)، ثم استجمعت شجاعتي وتوجهت مباشرة إلى أبي. كان عليّ أن ألمس وتر التعاطف الذي أبداه منذ سنواتٍ عدة حينما أجريت أنا و(راوية) عملية استئصال اللوزتين.

في المرة التالية لما جاءت (كريمة) ومعها هدايا لخالتي، أخبرتها بخطتي وسألتها؛ متى أستطيع الاختلاء بأبي وحدنا؟ فأشارت عليّ بأن أذهب إليه يوم الجمعة؛ لأن (رضا، وأحمد) ذاهبان في رحلة مع بعض الأصدقاء.

لذلك ذهبت عقب عودة أبي من المسجد بعد صلاة الجمعة مباشرة. فإذا توجهت إليه عقب صلاته مباشرة وهو لا يزال في أجواء الخشوع لربه، فقد أنتهز فرصة لنيل مشاعر العطف والرحمة والتي أعتقد أنها موجودة في داخله في مكان ما.

عندما وصلت إلى منزلنا في (رشدي)، استغرق مني الأمر بضع دقائق لاستجماع الشجاعة والجرأة للذهاب إلى الداخل واستقلال المصعد إلى الطابق الرابع. وما أن وصلت هناك؛ لم أستطع رفع يدي للضغط على جرس

obeikandl.com

الباب وفكرت في التخلي عن هذه الفكرة، ولكن لم يكن لدي أي وسيلة أخرى. وأخيرًا؛ طرقت على الباب مرتين وأخذت خطوتين إلى الوراء.

فتحت (كريمة) الباب واستقبلتني بابتسامة كبيرة، ثم نظرت وراءها قبل أن تشدني من يدي، ثم أغلقت الباب بهدوء، واصطحبتني إلى المطبخ، وهمست وهي تضع إصبع السبابة على شفتيها: "ششششش" وطلبت مني الاختباء وراء الباب المغلق حتى تعلم أمي بحضوري.

طلبت من (كريمة) إبلاغ (هالة، وهادي، وسمير) أيضًا. وبعد بضع دقائق؛ جاء أخوتي إلى المطبخ فتعانقنا، وأخذت (سمير) بين ذراعي، وشكرته على مساعدتي، فقال لي هامسًا:

"أنا آسف على ما واجهته من متاعب."، فقلت له متأثرة:

"أنا آسفة لما سببته لكم من متاعب مع (رضا) وأبينا".

وأخبروني أن أبي منعهم من التحدث معي. تعانقنا مرة أخرى؛ ثم انفلتوا من المطبخ قبل أن يراهم معي.

تفاجأت أمي لدى رؤيتي هناك، وأخذتني في حضنها وضمتني إليها بقوة. في حين رحت أبكي في صمت. وبعد لحظة سألتني عن سبب مجيئي؛ فقلت لها هامسة:

"أريد مساعدة أبي في الحصول على الطلاق".

هزت أمي رأسها، ثم سحبتني بين ذراعيها بقوة. للحظة: نسيت شعوري بالقلق ورحت أستمتع بالراحة في حضنها. لم نقل الكثير، ولكن كلًّا منا شعر بما يريده الآخر. كنت قد تعلمت من أمي لغة الجسد المعبرة عن الحب، وكيفية التعبير عن المشاعر الداخلية بلمسةٍ أو إشارة.

أعربت أمي عن دعمها لي بقبلةٍ طويلة على جبيني، ثم قالت: "حسنًا، سأتحدث مع أبيك مرة أخرى. يمكنك البقاء هنا".

بينما بقيت منتظرة في المطبخ؛ عادت (كريمة) وبذلت قصارى جهدها لتسليتي، وأخذت تصب اللعنات على (فاروق) لما سببه لي من عذاب، فقالت مغتاظة: "ربنا ينتقم منه ويعاقبه أشد عقاب".

وفي تلك الأثناء؛ تناهى إليّ صوت أبي وهو يصيح من غرفته بغضب، قائلاً: "قولي لها أن تخرج من هنا قبل أن أسحبها على ظهرها؛ لتعود من حيث جاءت! لم يعد في هذا البيت مكان لـ(راوية) ولا (ليلى). لقد خرج بناتكِ من طوعي وعصوني. لقد جلبوا العار لهذه العائلة. قولي لها أن تبقى بعيدًا طالما أنا على قيد الحياة. إنها لم تعد ابنتي".

سمعت صوت أمي، ولكن لم أستطع أن أميز كلماتها. كانت تخوض معركة خاسرة. وعندما عادت إلى المطبخ، كانت تنظر لأسفل والدموع تكاد تفر من عينيها. لم أكن أريد أن أضايقها أكثر من ذلك؛ لذا ابتسمت وأخذتها بين ذراعي، وشكرتها على المحاولة.

عند باب المطبخ؛ سلمتها رسالة لأبي، قائلة لها: "اسأليه؛ لماذا أرسلني إلى المدرسة إذا كان يريد أن يربيني مثل كلب من كلابه".

مدت أمي ذراعيها، وانهرت على صدرها، ثم أطلقت تنهيدة طويلة ومسحت دموعي بظهر يدي.

وفي طريقي إلى باب الشقة، لمحت أبي واقفًا في الصالة، بلا حراك. كانت عيناه باردتين ومليئين بعلامات التحذير. تحديت نظراته إليّ بنظرةٍ محملة بالغضب والكراهية، رغم أنني كنت لا أزال أخشى غضبه، ثم استدرت وأسرعت بالابتعاد، قبل أن يتمكن من تدمير قوة إرادتي وثقتي في نفسي.

نزلت على الدرج وأنا أمسك بـ(الدرابزين) بإحكامٍ لكيلا أنهار. عندما وصلت إلى السلمة الأخيرة؛ ارتحت للحظة. ثم قفلت راجعة إلى منزل خالتي تحت جنح الظلام الذي كان يحجب ظلمة السماء المعتمة كنفسي الآن.

تحلقت خالتي (حميدة)، والأطفال، و(أحلام) من حولي، وهم حريصون على سماع ما حدث، ولكني توجهت مباشرة إلى غرفتي، ودفنت رأسي في الوسادة، وتوجهت إلى الله بالدعاء؛ رغم أنه لم يرني محبته حتى الآن. أخذت أتوسل مساعدته حتى رحت في النوم، على أمل أن يكون الغد أفضل.

obeikandl.com

(31)

في ظهيرة اليوم التالي؛ سمعت طرقاتٍ عنيفة على باب الشقة يتردد صداها عبر جدران غرفتي، فاستيقظت مفزوعة. قفزت من السرير وهرولت لأفتح باب الغرفة، ثم خرجت بهدوء.

فتحت (ثريا) النافذة الزجاجية الطويلة والضيقة لباب الشقة بحذر؛ وجاء صوت أجش لرجلٍ من وراء النافذة، قائلاً: "براءة كامل. براءة كامل هنا؟ هل هي تعيش هنا؟"

أشارت لي (ثريا) بالرجوع إلى الوراء، ولكنني وقفت وراءها وأسندت ذقني على كتف (ثريا) لأتمكن من رؤية الرجل عبر الزجاج.

كان متوسط القامة، ذا بشرة داكنة اللون، بدا رجل أصغر سنًّا من والدي؛ وقد شكلت رطوبة الصيف خطوطًا من العرق على تجاعيده، والتي راح يمسحها بمنديل أبيض، ولكنه لم يستطع إيقاف تصبب العرق من المنديل الملفوف حول جبينه. كان يمسك في يديه مجلدًا خشنًا ومجعدًا أشبه بلون وقذارة منديله، كما كانت أطرافه ممزقة.

انتظرنا فيما كان الرجل يمرر أصابعه الغليظة والقذرة على لسانه ويقلب الصفحات، ثم التقط بقايا قلم رصاص من وراء أذنه، ثم رفع رأسه ببطء وحدق فينا بعينين نصف مغمضتين، ذهابًا وراح يرجع البصر بيني وبين (ثريا).

وتحدث الرجل بنبرة آمرة لا تصدر إلا عن محقق، قائلاً: "أيكم براءة؟" تطاير رزاز لعابه مثل الرصاص من بين أسنانه المكسورة، ليمطر وجه (ثريا).

فما كان من (ثريا) إلا أن أغلقت زجاج النافذة بحنق، فطرق الرجل على الباب مرة أخرى، ولكن بصوتٍ عالٍ للغاية هذه المرة، حتى أن الضجيج جعل

خالتي (حميدة) تقطع صلاة الظهر، فجاءت إلى الصالة واقتربت منا، و(أحلام) وراءها؛ ثم سألتنا:

"لماذا لا تردان على من يطرق الباب؟" فقالت لها (ثريا):

"من هو هذا الرجل؟" فقالت خالتي (حميدة) مطمئنة إياها:

"لا تقلقي." وأردفت: "سوف نوكل محاميًا إذا لزم الأمر. دعونا أولًا نعرف ماذا يريد" وعندئذٍ فتحت النافذة الزجاجية مرة أخرى.

فصاح الرجل من بين شفاهه المختبئة وراء شارب كث: "أي منهم براءة؟" فسألته خالتي بنبرةٍ تنم عن السلطة والشجاعة:

"من أنت؟ وماذا تريد من براء؟"

ضرب الرجل الملف براحة يده، وقال مغتاظًا: "أريدها شخصيًّا للتوقيع هنا واستلام حكم المحكمة. ليس لدي وقت لأضيعه معكم." ونزع ورقة ورفعها من وراء سياج النافذة لتراها خالتي، وقال موضحًا: "هذا حكم من المحكمةبالرجوع إلى زوجها في بيت الطاعة".

نظرت إلى (ثريا) وقلت مستفسرة: "ما هو بيت الطاعة؟"

"إنه بيت الخضوع، الذي يسمونه بيت الطاعة!"

"هم؟ من هم؟"

قالت (ثريا): "الحكومة".

فتحت خالتي (حميدة) الباب، واندفعت (ثريا) إلى الأمام وأغلقته بعنف، وهمست قائلة: "أمي، قولي له إن الشخص الذي يبحث عنه لا يعيش هنا".

"لا أستطيع أن أكذب. ولابد أن (فاروق) قد أخبره سابقًا".

في تلك اللحظة؛ راح الرجل يرن جرس الباب دون توقف. نظرة لي خالتي (حميدة) نظرة تنم عن قلة الحيلة وفتحت الباب، لكنني منعته بيدي، قائلة برجاء:

"ألا يمكن رشوته، يا خالة؟" فردت بقولها:

"ما عليك سوى التوقيع عليه يا عزيزتي." ثم أردفت: "سأتحدث مع فاروق وأبيه." فتحت خالتي (حميدة) الباب، ورأينا الرجل كله للمرة الأولى، والذي قال واعظًا:

"اسمعي نصيحتها، يا بنتى. إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق." سحب الرجل قلمًا من جيبه، ودس طرفه بين شفتيه ليبلله، ثم قلب بضع صفحاتٍ في مجلده، وتوقف عند ورقة صفراء؛ ثم خبط الرجل عليها بالقلم، وأشار إلى آخرها، قائلاً:

"وقعي باسمك كاملاً هنا"!

"هل يجب أن أستخدم قلمك؟" قلتها، وقد تجعدت تقاسيم وجهي اشمئزازًا.

"أجل".

تقدمت (أحلام)، التي كانت تقف وراءنا إلى الأمام واختطفت القلم من الرجل، ثم مسحته على ملابسها وأعطته لي، قائلة: "ها هو القلم، إنه نظيف الآن".

"كتبت اسمي بطريقة أشبه بالخربشة وأنا متوجسة خيفة. ثم وقفت أمام المجلد لبضع ثوان، محدقة في الوثيقة، حتى أنني لم أعد قادرة على السيطرة على دموعي. ارتعشت يدي وأنا أعيد المجلد إلى الساعي، والذي أخرج منديلًا من جيب سرواله الأسود، وبعناية ربت على الورقة حتى جفت. وبلل القلم مرة أخرى بريقه وكتب شيئًا في الأسفل، ثم نزع نسخة صفراء وسلمها لي، قائلاً بنبرة تحذيرية:

"أمامك ثلاثة أيام. وأكرر، ثلاثة أيام فقط لتنفيذ هذا الحكم." ثم رسم على وجهه ابتسامة متكلفة وحذرني، قائلاً: "إذا لم تقومي بذلك، فستلقي الشرطة القبض وتأخذك مغلولة في الأصفاد إلى زوجك".

لم أحر جوابًا، فقد ألجمتني الصدمة.

أغلقت خالتي الباب ببطء واصطحبتني إلى الشرفة، واختارت بقعة ظليلة للجلوس، وانضممت إليها؛ ثم قالت لي معزية: "يا حبيبتي، هذا هو بيت الطاعة، إنه القانون الذي لا نستطيع محاربته بكل أسف. وأنتِ تعلمين أن كل القوانين الاجتماعية في مصر مستقاة من الشريعة، والتي تقوم على إرادة الله. وبيت الطاعة هو نص في قانون الإسلام الذي يعطي الزوج الحق في طلب الطاعة من زوجته".

"ولماذا يعطي الله الرجال هذا الحق؟"

تجاهلت خالتي (حميدة) لهجة الازدراء في صوتي، وتابعت: "إذا تركتِ منزل زوجك دون إذنه؛ يحق له أن يجبرك على العودة".

"ماذا سيحدث لو تركت البلاد؟"

"لا يمكنك السفر بدون إذن مكتوب منه، ويمكنه أن يرفع عليكِ دعوى نشوز وعصيان، ويطلب عودتك بحكم من المحكمة. بمجرد العودة؛ يمكنك البقاء إما في منزله أو في سكن آخر. وبيت الطاعة هو البيت الذي يوفر لك الضروريات الأساسية. ولا يجوز لك الطلاق إلا إذا قرر هو طلاقك".

اغرورقت عيناي بالدموع، وقلت بحنق: "لماذا يكره الله النساء؟"

"الله ليس له علاقة بهذه القوانين. اسمحي لي أن أحكي لكِ قصة جميلة، تزوج ثابت بن قيس من امرأة اسمها جميلة". قالتها وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات ناعمة، "كان ثابت بن قيس زعيمًا في زمن النبي. وكان قد اعتنق الإسلام على يد النبي نفسه، ومن ثم كان من أقرب أصحاب وحلفاء محمد

(ص). طلبت جميلة رؤية النبي وشكت له من أنها لا تستطيع العيش مع زوجها، لم تتهمه بعدم الإيمان، ولا بعيب في الفضائل الأخلاقية أو التقصير في الواجبات الزوجية. كل ما في الأمر أنها قالت إنها تكرهه لكونه قبيحًا، وأعربت عن خوفها من الوقوع في الفتنة إذا استمرت يومًا واحدًا مع زوجها. حاول النبي إسداء النصح وتوجيه اللوم لها، ولكنها أصرت. في النهاية، دعا زوجها الذي يحبها كثيرًا، وأقنعه باستعادة المهر المدفوع في الزواج، ومنحها الخلع. والخلع هو نوع من الطلاق تتنازل فيه الزوجة عن حقوقها المادية في الزواج في مقابل إطلاق سراحها".

جعلتني قصتها أشعر بالإحباط أكثر، فقلت متنهدة: "وما فائدة ذلك في حالتي؟ هل هذا يعني أن لي الحق في طلب الطلاق؟"

"كلا، لقد فات الأوان الآن، بعد أن حصل بالفعل على حكم من المحكمة برجوعك لبيت الطاعة، فضلًا عن أنك ليس لديك أي سبب شرعي للحصول على الطلاق، وفارق السن ليس سببًا للطلاق".

رحت أستمع في صمت، محاولة استيعاب كل المعلومات القانونية الجائرة والمعقدة التي كانت ترميها في وجهي.

"إن المرأة التي تهجر زوجها وتهرب ليس لها حقوق بحكم القانون، لأنها تعتبر ناشز، وهي مجبرة قانونًا على دخول بيت الطاعة كعقاب لعصيان زوجها".

غصت في مقعدي، وقد انضمت إلينا (ثريا) التي قالت: "ليلى، هل تعرفين أنه حتى لو أصدر القاضي حكمًا بطلاقك، فيجب عليك الانتظار ثلاثة أشهر حتى يجوز لك الزواج من غسان؟"

ها هي مسألة قانونية أخرى غير سارة، ما دعاني إلى قول: "نعم، في حال كانت المرأة حاملًا، كما أوضحت لي (راوية)، ولكنني لا أزال عذراء".

obeikandl.com

"بصرف النظر يا حبيبتي، فالقانون لا يسمح بالاستثناءات، والغرض من أشهر العدة الثلاثة ليس فقط لتحديد من هو والد الطفل في حالة الحمل، ولكن -أيضًا- لإعطاء الزوجين ما يكفي من الوقت للتصالح".

مشيت أجر قدمي إلى غرفتي وقد أسقط في يدي.

مرت ثلاثة أيام، ولم أمتثل لحكم المحكمة، ولكن لم يأت أحد لإعادتي إلى زوجي. مر أسبوع، ولم يحدث شيء أيضًا. أخذ (فاروق) وقته، ربما احترامًا لخالتي (حميدة)؛ لأنها إحدى أقربائه. وفي الوقت نفسه؛ عاد (غسان) إلى الإسكندرية، وحرص على إيجاد حل لنا. وقد ازدادت العصبية والتوتر في منزلنا، وتساءلنا لماذا لم ينفذ فاروق تهديده؟ وكنا نخشى أن يفعل في أي لحظة. استعدت بعضًا من الأمل عقب وصول (غسان)؛ فقد قال لي إنه سيلتقي بوالدي ويحاول الحصول على موافقته.

قبل يوم واحد من إقدامه على تلك المحاولة؛ جلسنا في الصالون مع خالتي (حميدة) و(ثريا)، ودار الحديث حول ما قد يفعله أو يقوله. كانت تتوافر في (غسان) الصفات التي يحترمها أبي؛ من شهامة، ودفء، وذكاء، كما كان يتحدث بثقة وصدق، دون تحايل أو تلاعب.

لكني كنت أشك في أن بلاغته وثقته بنفسه ستكون كافية لتغيير رأي أبي، وهو ما أكدته خالتي (حميدة) بقولها:

"أباك رجل صعب، وعنيد".

أردت أن أضمن نجاح (غسان) في مهمته، لذلك أنا اعتصرت ذهني بعصبية لتعريفه بكل الاحتياطات والمحاذير التي كنت أفكر فيها، فقلت: "لا تنظر في عينيه، لأن أبي يعتبر ذلك تحديًا واستفزازًا. عندما تدخل الغرفة؛ قف وانتظر منه أن يحييك أولًا. لا تتكلم ما لم يطلب منك الكلام. سوف يسمح لك

بالكلام، ولكن بعد أن يسوق كل الحجج الممكنة ليثبت لك خطأ رأيك. وأخيرًا، لا تستسلم؛ فهو يريدك أن تستسلم".

في اليوم التالي؛ في تمام الساعة السادسة مساءً، اتصل بي (غسان)، قائلاً: "أنا ذاهب الآن. ادع لي".

"سأفعل".

"أحبك يا ليلى".

"وأنا أحبك أيضًا".

كانت نبرة صوته مفعمة بالثقة، مما هدأ اضطراباتي النفسية، رغم أنني لا أزال أخشى الأسوأ؛ فقد كان على (غسان) أن يبذل المزيد من الجهد لإقناع أبي بجدارته؛ كما كان يتعين عليه بطريقةٍ أو أخرى أن يقنع (بابا) بإقناع (فاروق) بإنهاء هذه الزيجة.

لمدة ثلاث ساعات كاملة، أخذت أدعو أن لا تتبدد آمالي مرة أخرى. في نهاية المطاف؛ خرجت من الشقة وانتظرت في الرواق. وعندما انفتح باب المصعد أخيرًا وظهر (غسان)، ورأيت تعابير وجهه؛ تبخرت كل آمالي. أخذني من يدي وقادني إلى الصالون؛ حيث انضمت إلينا (ثريا) وخالتي (حميدة)، وقال ملتاعًا:

"في البداية لم يسمح لي بالكلام، وطلب مني أن أخرج، ولكني كنت مصممًا على إنجاز مهمتي، فبقيت رغم أنني أيقنت في ذلك الحين أنه لن يتعاون معي." وطأطأ رأسه، ثم أردف: "أعجب أبوك بشجاعتي. ومع ذلك، رفض طلبي وقال إن شرفه قد تلوث ولحق به عار لا يمحوه الزمن." ثم همس (غسان)، متسائلًا: "لا أدري ما الذي يجب فعله".

"هل استسلمت؟" أطرق (غسان) للحظة، ثم التفت إلى خالتي (حميدة)، وسألها: "متى ستصل راوية؟" فردت قائلة:

"ستصل (راوية) بعد ظهر غد قادمة من بيروت." ستكون تلك أول زيارة لها إلى الإسكندرية، ولا نطيق الصبر على وصولها.

"جيد، قد يكون لديها حل".

لم يكن لدى (غسان) ما يقوله غير ذلك، وبعد قليل؛ استأذن للرحيل، فاصطحبته حتى الباب مشبكين أيدينا بحرارة، ومشينا في صمتٍ تام. أطلق تنهيدة عميقة من فرط الإحباط وسحبني لأقترب منه. كانت الحرارة تنبعث من جسمه المرتجف، فيما رحت أنا -أيضًا- أرتجف بين ذراعيه اللذين يلفاني في عناقٍ طويل وصامت. لثمت شفتاي العرق المتجمع بين شعر صدره الأسود الحريري. رفع وجهي نحو وجهه لتتقابل شفاهنا في قبلةٍ حارة. استسلم فمي لعضات أسنانه اللطيفة وطعم لسانه الحلو، فقلت هامسة:

"لا تتركني وحدي".

أجابني (غسان) بوابلٍ من القبلات في جميع أنحاء وجهي ورقبتي، ثم أسندت رأسي على صدره وذراعي ملفوفان حول خصره. حاول تخليص نفسه، ولكن جسدينا بقيا ملتصقين. لم أستطع أن أتركه، حتى قال (غسان):

"يجب أن أذهب." ثم سحبني لأقترب منه أكثر، ورفع وجهي إلى مستوى شفتيه ولعق دموعي بلسانه. "سأرحل، ولكنك ستظلين هنا دائمًا." ووضع يدي على قلبه الخافق، ثم وضع يده على قلبي، قائلاً: "عديني أن أبقى هنا للأبد".

"للأبد." هكذا أجبته، ولكني ما زلت لا أقوى على تركه يتفلت من بين يدي؛ وكلما ابتعد أسحبه إليّ من جديد. كنت أريد أن يتوقف الزمن الآن؛ فقد وثقت في الواقع الحالي، ولكن الغموض الذي يحيط بمستقبلنا يصيبني بالخوف والفزع.

وأخيرًا؛ حررت (غسان) من قبضتي، ولكن جزءًا مني بقي معه وهو عائد إلى لبنان، فيما سيظل الباقي مني وحيدًا.

(32)

عندما ذهبت أنا و(ثريا) إلى المطار لاستقبال (راوية)، لم أستطع التعرف عليها وهي تدلف إلى صالة الوصول. كانت تضع على عينيها نظارات شمسية مربعة العدسات وترتدي قبعة صفراء كبيرة تتناسب مع لون حقيبتها وحذائها ذي الكعب العالي. عندما اقتربت، كانت أردافها تتراقص ذات اليمين وذات اليسار؛ بدت أنيقة ومختلفة، وقد جعلتها مساحيق التجميل تبدو أكبر من سنها الحقيقي البالغ عشرين عامًا. نادت عليّ كما لو كانت تشدو بلحن موسيقي: "مرحبًا، ليلى!"

كدت أصرخ فعلًا عندما رأيت هذا التحول، ولكني اكتفيت بابتسامة إعجاب، قائلة: "راوية، أنت جميلة".

"أعرف، أعرف! وسوف تكونين أنت -أيضًا- فاتنة في أقرب وقت ".

بينما كنا ننتظر في منطقة الأمتعة، فتحت (راوية) حقيبتها، وأخرجت علبة سجائر (كينت)، وأشعلت سيجارة بولاعتها الذهبية. وقدمت لي واحدة.

شعرت بالحرج، فأخذت أتلفت حولي وبلطفٍ دفعت يد أختي بعيدًا، قائلة: "أنت تعرفين أنني لا أحب التدخين يا راوية".

"جيد. هذا يسعدني يا ليلى؛ فأنا أسعل كثيرًا، ولكني أحب التدخين".

لم تفارق الابتسامة وجهي وأنا أشاهدها تلتقط حقيبتيها الخضراوتين. تبعتني (راوية) إلى حيث تنتظرنا (ثريا) في التاكسي.

لم تكف (راوية) عن الكلام طوال فترة العودة إلى المنزل، وكان من بين ما قالته: "لا تقلقي؛ سأجد وسيلة لإنهاء زواجك. أنا فقط أريد أن أحذركم؛ أن الأمر لن يكون سهلًا، فقد يأتي (فاروق) مع الشرطة لممارسة حقوقه في أي

لحظة. وإذا فشلت جهودي، فلن يكون أمامي خيار سوى أن أشتري لك جواز سفر مزور." فبادرتها (ثريا) قبل أن أتمكن من الكلام :

"راوية، هذا غير معقول! لن أسمح لك بتوريط (ليلى) في مشاكل قانونية أخرى".

"راوية، أنت تمزحين".

"بل أنا جادة يا ليلى!" وقبل أن تكمل؛ توقف التاكسي أمام البناية.

حدق السائق في (راوية)، ثم تحول إليّ قائلًا: "لا تسمعي كلامها." فردت عليه (ثريا) مؤنبة:

"هذا ليس من شأنك." وما أن خرجنا من السيارة؛ ألقت ورقة من فئة عشرة جنيهات على المقعد الأمامي وصفعت الباب صفعًا.

عندما تركتنا خالتي و(ثريا) في ذلك المساء، انضمت إلي راوية في السرير، تمامًا مثلما كنا نفعل ونحن فتيات صغيرات. أخذنا نثرثر طوال الليل.

"ليلى، أنا جادة بشأن جواز السفر. سوف يشتري لك المال واحدًا. لقد تعلمت ذلك من مروان ".

"هل هذا هو عمله؟"

"كلا، بالطبع لا. ولكن لدينا المال، وبالمال يمكنك شراء الضمير والكرامة والأخلاق والنزاهة وأي شيء يخطر على بالك؛ فالرجال هنا في مصر يمكن أن يفعلوا أي شيء من أجل المال. إنهم منافقون؛ فهم يقرأون القرآن ويصلون خمس مرات في اليوم، ولكن ضميرهم ميت. إنهم لا يتبعون تعاليم الإسلام".

كان صوت راوية حادًّا، ووجهها عابسًا. وقد حاولت ولكنني فشلت في أن أبهجها بما يكفي لإخراجها من حالتها المزاجية غير السارة؛ فبدت غاضبة ومحبطة فعلًا؛ حتى أنني قلت لها:

"دعينا لا نتحدث عن هذا الموضوع الآن، فأنت حرة الآن يا راوية".

"كلا يا ليلى، لابد لي من الحديث عن هذه المشكلة. لماذا نخفيها؟ لماذا يتعين علينا أن نقبل اللوم؟ لماذا يتعين علينا أن نكون جزءًا من التستر على الجرم؟ كيف ستنتهي هذه الجريمة إذا لم نتحدث عنها؟ لا، هذا يحدث لكثير من الفتيات، ومن أقرب الرجال إليهم".

راحت تتحدث بتلك المرارة التي كنت أعتقد أنها قد نسيتها لما تعرضت للضرب الوحشي على يد (أحمد). في الواقع؛ جعلتني (راوية) أعدها بنسيان ما حدث. كنت أريدها أن تكف عن تلك الخطبة اللاذعة لها، والعودة مرة أخرى لشعورها بالسعادة، فقلت لها:

"راوية، من فضلك، دعينا نركز على مستقبلنا. احكي لي أكثر عن اللبنانيين. هل هم مختلفون؟"

توقفت (راوية) للحظة، كما لو كانت تحاول التخلص من غضبها قبل أن تتحدث، ثم رسمت على وجهها ابتسامة متكلفة قبل أن تجيب قائلة: "أوه، إنهم مختلفون للغاية، وهم لا يخلطون الدين بكل شيء، مثلما يفعل المصريون، ويعاملون المرأة باحترام." فقلت متنهدة:

"أوه، يا راوية، أنا سعيد لأنني وقعت في حب واحدٍ منهم".

تجاهلت (راوية) تعليقي عمدًا، وغيرت مجرى الكلام قائلة: "ليلى، اسمحي لي أن أشرح لك وضعك القانوني. لقد أصبحت أسيرة في هذا البلد، وأنت بحاجة إلى توقيع إما أبيك أو زوجك للحصول على جواز سفر. إنه القانون، ولكن للمرأة فقط. إذًا، ما هي الخيارات المتاحة أمامك؟ إما أن تقبلي جواز سفر مزور، أو تبقي هنا وتعيشين مع فاروق ".

"لا أستطيع أن أقدم على تلك الخطوة يا (راوية)؛ فلدي ما يكفي من المتاعب التي أعانيها بالفعل. ألا يمكن أن تجدي لي حلًّا أكثر أمنًا؟"

obeikandl.com

"كلا، لا أستطيع، وقد فكرت في ذلك، وكذلك (مروان). هل لديك أنت حلاًّ؟"

سكتُ للحظة، ثم خطر شيء على بالي لم أفكر فيه من قبل، فربما كان بمقدورنا استغلال احترام (هيثم) لخالتنا أحسن استغلال؛ فقلت لها متهللة:

"يمكننا أن نطلب من والد (فاروق) المجيء إلى هنا؛ فهو يحترم خالتي (حميدة) بسبب ما فعله زوجها له، وقد سبق له أن قال إنه لا يرفض لها طلبًا." بمجرد أن تلفظت بهذه الكلمات؛ أدركت أنني أتعلق مرة أخرى بحلول لا فائدة ترجى منها. فبالتأكيد، سيقف (هيثم) إلى جانب ابنه.

لكن، ولدهشتي. وافقتني (راوية) قائلة بانشراح: "فكرة جيدة. دعينا نحصل على موافقة خالتي (حميدة) قبل أن نتصل به".

وفي اليوم التالي؛ ناقشنا الفكرة مع خالتنا ووافقت عليها، ولكن خوفًا من سلوك (راوية) العدواني والذي من شأنه أن يعقد المهمة، اقترحت مكالمة (هيثم) بنفسها. واتفقنا على ذلك.

اتصلت خالتي (حميدة) بحماي ودعته إلى شرب فنجان شاي، وفي الساعة الرابعة عصرًا، وصل وجلس في الصالون.

بقيت أنا و(راوية) في غرفة نومي. جلست (راوية) أمام المرآة، متأملة وجهها في إعجاب كما جرت العادة، ثم فتحت حقيبتها، وأخرجت أحمر شفاه، وجددت مكياجها الجميل بالفعل. وبدافع عدم رضاها عن شعرها، أغرقته بـ(اسبراي) الشعر الخاص بي، وغمزت لنفسها إعجابًا".

"ليلى أنت لا تعرفين كم يفتقدك حبيبك".

"اسكتي من فضلك؛ فأنا لم أتطلق بعد، فلا ترفعي آمالي إلى عنان السماء، ثم تتركيني أسقط مرة أخرى في بئر خيبة الأمل التي ذقت منها ما يكفي".

"سنتجاوز كل العقبات معًا. لن أسافر بدونك ".

بدت واثقة للغاية، حتى أنني صدقت بكل قلبي أنها ستجد حلًّا لي قبل مغادرتها.

"سآخذك إلى مصفف الشعر خاصتي، جو؛ ولكن يجب أن لا تضحكي عندما ترينه، فهو مثلي الجنس ويهز مؤخرته عندما يمشي ".

"ياله من أمر مثير! إذ لم يسبق لي أن التقيت رجلًا مثليًّا من قبل".

"حسنًا، لن تلتق أحدهم هنا؛ لأن المثليين من الرجال في مصر لا يبوحون بأسرار ميولهم الجنسية؛ لأن الإسلام يحرم العلاقات الجنسية المثلية".

رغم محاولات (راوية) تشتيت ذهني بعيدًا عن مشاكلي؛ إلا أنني وجدت نفسي آخذ أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا كحيوان محبوس في قفص وأتنهد محبطة. فقد تآكلت آمالي وتضعضعت ثقتي في نفسي بعد شهور الانتظار الطوال تلك.

كم كنت أتوق لحضن أمي المريح، وتشجيعها لي، وإعطائي القوة على الاستمرار.

فجأة قالت (راوية) وصوتها يشي باليقين: "أنا هنا معك، ولو استلزم الأمر سأعود إلى مصر وأبقى بجوارك حتى أتأكد من أنك قد نلت حريتك." نهضت من مقعدها أمام المرآة وعانقتني مردفة: "سأتحدث مع (مروان) في شراء شقة لي في القاهرة نعيش فيها أنا وأنت. لقد أشركته معنا كما تعلمين، وأوضحت له أنني لن أكون سعيدة إلا إذا أخذتك معي إلى لبنان".

لم يكن لدي أي خيار آخر سوى أن أصدق (راوية)، ورسمت على وجهي ابتسامة مصطنعة.

حينئذٍ، فتحت (ثريا) الباب وتدخلت في حديثنا، سائلة بسخرية: "إذًا يا راوية، ما الذي تخططين لليلى؟"

حتى قبل أن تسافر (راوية) إلى لبنان، لم تكن العلاقة بينها وبين (ثريا) على وفاق. كانت (ثريا) تعاملني بشكلٍ مختلف عن (راوية). لقد عبرت عن آرائي بحرية، وقابلتها (ثريا) باحترام، وشجعتني على التحلي بالثقة في نفسي واتخاذ القرارات بشأن المسائل التي تهم مستقبلي، كما كانت تسدي لي النصح دون أن تجبرني على اتباعها، وساعدتني على اكتساب بعض الثقة بالنفس.

في المقابل؛ كانت (راوية) أكثر ميلًا لفرض رأيها وجعلتني أشعر بأنني غير ناضجة، كما لو كنت سأعجز عن إدارة أمور حياتي لولا وقوفها إلى جانبي. لطالما توجت (راوية) ملكة على عرش قلبي، ولكني تغيرت منذ أن سافرت.

والآن، وبعدما بدا أن (ثريا) تتحداها حول من منهما الأحق بكفالتي، وضعت (راوية) يدها حول كتفي بلفتة تعبر عن الامتلاك، حسبما ظننت حينها، قائلة بحسم: "أقدرلك مساعدتك يا ثريا، وسنكون مدينين لك ولخالتنا إلى الأبد، ولكن ليلى أختي وهي مسؤوليتي".

تذكرت شخصية أمي السلبية، وكيف كنت أنتقد سماحها لأبي بالسيطرة عليها؟ لكم كنت أخشى أن أرى نفسي يومًا أعيش عيشتها؛ لذا لن يقرر أحد، لا أختي ولا ابنة خالتي، ما ينبغي وما لا ينبغي أن أقوم به. كنت غاضبة من نفسي لعدم التحدث بصراحة عن السماح لكل من (ثريا) و(راوية) بالاعتقاد بأنني بحاجة إلى حمايتهما؛ ما دفعني إلى زجرهما بقولي:

"اذا كنتما تهتمان لأمري حقًّا، فاسمحا لي أن أتحمل مسؤولية حياتي".

صدمتا للحظة لدى سماعهما تلك العبارة، ولكنهما واصلتا حربهما الشعواء؛ فتركتهما منزعجة تتشاحنتان وتوجهت مباشرة إلى الصالون، حيث خالتي و(هيثم) جالسان هناك. ضغطت على مقبض الباب ودفعته بقوه فانفتح على مصراعيه. كان حماي يرتدي حلة زرقاء داكنة وقميصًا رماديًّا فاتحًا، وقد بذل جهده ليشعر بالراحة على الكرسي (الفوتيه) في لباسه

الرسمي. استخدم منديلًا أبيضًا لتجفيف العرق المتصبب من رقبته ووجهه، فيما كانت خالتي (حميدة) تجلس على الأريكة قبالته. يبدو أن دخولي قد فاجأهما. ولكنهما ابتسما لي.

حدقت في عيون (هيثم) وصرخت بكل ما أوتيت من قوة، قائلة: "أريد الطلاق! أنا لا أحب ابنك وأفضل الموت ولا أعيش معه".

أدت عبارتي تلك إلى إذابة التعابير الشمعية المرسومة على تقاسيم وجهيهما، فيما راح قلبي يدق بترقب.

"ابنتي، تعالي وانضمي إلينا." قالتها خالتي (حميدة) في صوتٍ هادئ.

تجمدت مذهولة وغير قادرة على فهم.

ابتسمت لي خالتي ابتسامة دافئة وهي تومئ برأسها. ولدهشتي؛ رأيت نظرة القناعة، نظرة أقرب إلى الهدوء؛ بادية ملامحها على وجه (هيثم).

قللت ملامحهما الهادئة من حدة قلقي، وتوقف قلبي الدق بعنف. ومع ذلك بقيت واقفة عند الباب، مستعدة لسماع شيء إيجابي يعكس حالتهما المزاجية اللطيفة الظاهرة عليهما، فقطعت خالتي (حميدة) الصمت، قائلة:

"لدي أخبار حلوة لك يا ليلى." ثم أردفت: " تعالي هنا، واجلسي بجانبي".

رغم أنني كنت حذرة؛ إلا أن مشاعر الدفء التي كانت تكسو صوت خالتي هدأت خاطري فجلست بجوارها، بيد أنني كبحت أجراس الأمل التي أرادت أن تدق مغردة بداخلي؛ بينما فتحت الباب لدموعي والمزيد من التوسلات لخالتي وحماي لإطلاق سراحي.

اقترب مني حماي وأخرج منديلًا جديدًا من جيبه وبلطف مسح دموعي، ثم قال بصوتٍ منخفض، كما لو كان يجبر الكلمات على الخروج من فمه: "حسنًا، آمل أن يجعلك الطلاق سعيدة".

ذهلت غاية الذهول حتى أنني نظرت إليه محدقة، ثم واجهت خالتي منتظرة منها تأكيد الخبر، وقبل أن تنطق خالتي حميدة بكلمة واحدة، أصابني الإغماء على الأريكة.

استعدت وعيي، فوجدت (أحلام) تضع كرة قطنية منقوعة بالكحول أمام أنفي، فأبعدت يدها وقد وصلني صوت ضجة تنم عن البهجة في الصالون. تحلق حولي كلٌ من (ثريا) و(أحلام) والأطفال، وحتى جارنا الأرمل، الأستاذ (فايز). بدا الجميع سعداء. جلس (هيثم) نفسه خارج دائرة المهنئين، ولا تزال نظرة الصفاء مرسومة على وجهه .

أخذوا يسلمون عليّ واحدًا تلو الآخر، ويهنئونني، وهم يصيحون: "ألف مبروك!"

أطلقت الخادمة عدة زغاريد مدوية. بدت لي تلك الزغاريد أشبه ما يكون بالحفل الذي أقامته عائلتي ابتهاجًا بخطبتي على (فاروق)، ولكنني هذه المرة كنت أشاطرهم السعادة. على الأقل حتى رأيت (راوية).

دقت أجراس القلق بداخلي لما رأيت نظرة الاستياء بادية على وجهها. وقفت صامتة تهز رأسها، وأشاع سلوكها جوًّا من التوتر غطى على أجواء الابتهاج التي كانت تملأ الغرفة.

فتحت ذراعي؛ داعية إياها إلى احتضاني، على أمل نزع فتيل الغيظ المرسوم على وجهها. أمسكتني من يدي وجرتني جرًّا إلى الحمام.

أغلقت (راوية) الباب وألقت بي قبالة الجدار، وبسبابتها لمست أرنبة أنفي، قائلة بحنق: "لا داعي للاحتفال الآن، فأنت لم تمسكي ورقة الطلاق في يديك بعد".

أخافني تدخلها على هذا النحو، وكرهت سطوها على هذه اللحظة السعيدة، ولكني أردت أن نظل على علاقة جيدة قبل سفرها إلى لبنان، فضلًا

عن أنني كنت بحاجة إلى مساعدتها إياي على الخروج من مصر. دفعتها بعيدًا؛ راغبة في العودة إلى تذوق طعم السعادة اللذيذ، ولكن لابد وأنني صدقت كلام (راوية) لأن قدمي لم تستجب لرغبتي تلك.

تابعت (راوية) مردفة: "ببساطة، حماك ليس زوجك، و(هيثم) لا يملك اتخاذ قرار الطلاق. نحن بحاجة لتأكيد (فاروق) لهذا الخبر السار. لذا أرجو، أن تأجلي الاحتفال حتى تمسكي ورقة الطلاق بين يديك".

عدت إلى الصالون مكسورة الخاطر، فيما وقف حماي واتجه نحو الباب.

لحقت به وطلبت منه البقاء، قائلة: "أود أن أتحدث معك." قلتها بصوتٍ دافئ ومهذب.

تبعني (هيثم) إلى غرفة الطعام لتوفير بعض الخصوصية، ثم أغلقت الستار المخملية التي تفصل غرفة الطعام عن الصالون، ووقفنا على بعد بضعة أقدام داخلها. أراح (هيثم) يده على أحد كراسي غرفة الطعام منتظرًا مني البدء بالكلام، فسألته:

"هل فاروق يعرف بموضوع ..."

قاطعني حماي، قائلاً: "كلا".

"هل أفهم أنك لم تتشاور مع فاروق؟"

"هذا صحيح".

تدافعت تحذيرات (راوية) في رأسي مثل صواعق تهدد بحرق آمالي وأحلامي. ومع ذلك، فقد حافظ حماي الذي كنت أخشاه سابقًا، على تعبيره عن الهدوء وسلوكه الأبوي الذي غير لهجته شديدة الحدة في العادة إلى لهجةٍ لطيفة وحنونة.

"سأعرِّف ابني كم تكرهينه. اعتبري طلاقك أمرًا محسومًا. وسوف ألتقي والدك هذه الليلة، وأبذل قصارى جهدي من أجل وضع حد لهذه المهزلة".

لم أصدق حماي ورفضت أن أعرض نفسي للعذاب مرة أخرى؛ لذلك قررت أن أغامر بسمعتي للهرب من قيود ثقافتنا وتسريع عملية طلاقي؛ لذا فيما كان على وشك المغادرة، أوقفته مرة أخرى وبادرته بقولي: "أنا أحب رجلًا آخر"!

تجهم وجه (هيثم) وزم شفتيه، كما لو كان يقاوم لكي يكبح جماح غضبه. أخذ يحملق في وجهي باشمئزاز، وعيناه تضيقان. ثم التفت بعيدًا فجأة وتركني واقفة في غرفة الطعام.

ذهبت مباشرة إلى (راوية) وكلي شعور بالفخر لسيطرتي على زمام الأمور، غير أن (راوية) سألتني مؤنبة:

"هل جننتِ؟" ثم أردفت وعلى وجهها نظرة عميقة تشي بالقلق: "أين تعلمت أن الصدق هو الحل للمشاكل؟ كم مرة يتعين عليّ أن أقول لكِ أن الرجال لا يحترمون الحقيقة والصدق؟ أين تحسبين نفسك تعيشين؟ أنت في مصر، أرض محاباة الرجال." توقفت (راوية) لتأخذ نفسًا قبل أن تضيف: "لقد حكمت على استمرار مستقبلك إلى الأبد مع فاروق".

قرأت سيماء الاستنكار والإحباط في عينيها، وبدا لي أن أختي قد تخلت عني فعلًا، ولكني لم أكن مستعدة للتخلي عن نفسي.

في اليوم التالي؛ حزمت (راوية) حقائبها وعادت إلى لبنان. "لقد وضعتِ الأمر بين يديك، فتعاملي معه بنفسك".

مر أحد عشر يومًا، ولم ينفذ (فاروق) حكم المحكمة. وكان والد (فاروق) قد قال إنه سيتحدث مع أبي، ولكن شجاعتي خذلتني الآن وصرت أتوقع الأسوأ. وروعني احتمال ألا يكون لدي أي خيار بعد كل هذا الوقت سوى العيش مع زوج لم يكن لي يد في اختياره. كما خشيت -أيضًا- ألا يقبل (فاروق)

obeikandl.com

قرار أبيه إلا إذا وافق أبي، وندمت على مصارحتي إياه بأنني أحب رجلًا آخر، خوفًا من أن يغير (هيثم) رأيه.

مرة أخرى؛ كان يجب أن أحاول مع أبي، رغم أنه قد رفض محاولاتي من قبل. قررت الاتصال بأمي في الصباح، في الوقت الذي يؤدي فيه أبي صلاة الفجر عادة، حتى أتمكن من التوسل لها بمفاتحة أبي مرة أخرى وإبلاغه أن والد (فاروق) قد وافق على قبول الطلاق. لكم كرهت نفسي لاضطراري إلى التوسل للغير من أجل الحصول على حقوقي. فكما قالت لنا الآنسة (نبيلة) في المدرسة: "ولد البشر والحيوانات أحرارًا، ولا يمكن لأحد أن يسلبهم حريتهم ما لم يسمحوا هم بذلك".

بدت أمي على الهاتف منتعشة وسعيدة، فكان أول ما قالته لي:

"لولي، ابنتي حبيبتي" قالتها بصوتٍ ضاحك. عندما كانت تناديني بتلك الكنية، والتي كانت تستخدمها هي فقط، أعرف على الفور أن لديها أخبارًا سارة.

احتبست أنفاسي، ولم أستطع الرد.

"هل أنتِ معي؟"

"بلى يا أمي، أنا أسمعك".

"لقد فاجأنا حماك بزيارةٍ الليلة الماضية. وبقي أبوك مستيقظًا طوال الليل دون أن يتناول عشاءه".

"قولي لي ما حدث يا أمي؟ "

"حسنًا، لقد تعهد أبوك بعدم التدخل إذا قررتِ أنت وفاروق الطلاق ".

ها هم يلقون بمصيري بين يدي (فاروق) مرة أخرى، ولكن يبدو أن اللعبة قد اقتربت من نهايتها. خفت حدة قلقي، وتدفقت دماء جديدة في عروقي بفعل

هذا التطور الواعد. فوضعت سماعة الهاتف دون أن أودع أمي وركضت إلى غرفة (ثريا) صائحة:

"ثريا، استيقظي! لقد أخبرتني أمي للتو أن أبي لن يمانع إذا أراد (فاروق) أن يطلقني!"

قفزت (ثريا) من السرير وأخذتني بين ذراعيها، وقالت صارخة: "الحمد لله!"

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، عاودت الاتصال بأمي لكي أعتذر لها عن إنهاء المكالمة بهذا الشكل غير اللائق، فحكت لي عن الاتفاق الذي أبرمه أبي مع والد (فاروق)، والذي تعهد فيه بإعادة الهدايا: المهر، والشبكة.

"لقد تركت المجوهرات على التسريحة داخل صناديقها يا أمي".

"أعرف، يا حبيبتي. لقد وجدتهم." بدا صوتها مكسورًا قليلًا، لكنها استمرت مردفة: "ليلى، لقد أنفق أبوك الكثير من المال على أثاث شقتك وجهاز عرسك. فلا تتركيه؛ لأنك ستحتاجيه لاحقًا عندما تتزوجين مرة أخرى".

وأوضحت لي أمي لي أن (فاروق) لا يحق له قانونًا أو شرعًا، الاحتفاظ بأثاثي ولا جهاز عرسي. وأكدت لها أنني أحترم طلب أبي، رغم أنني لم أكن أرغب في الاحتفاظ بأي شيء من اختيار أبي. بدت سعيدة، ولأول مرة قادرة على الاحتفال معي. استمتعت بهذا التقدم الذي أحرزته في سعيي نحو الحرية.

(33)

"آلو، راوية، أنا معك".

"نعم، ليلى، ماذا الآن؟ أية مصيبة جديدة ورطت نفسك فيها؟" انصب علي إحباط أختي وعدم صبرها عبر أسلاك الهاتف، وأصابتني برودة صوتها بالفتور. "أنت تعلمي أنني لا أستطيع أن أساعدك بعد الآن. من الصعب بالنسبة لي أن أصلح ما فعلته، خصوصًا وأنا أعيش على بعد منك. بل إنني أود أن أقول لك إنه ربما كان عليك أن تقبلي مصيرك".

تحدثت بسرعةٍ وبقسوة، وأخذتني على حين غرة، حتى أنني لم أقوى على أن أبوح لها بما يقف على طرف لساني من أخبارٍ جيدة.

استأنفت كلامها، قائلة: "الطريقة الوحيدة بالنسبة لك هي أن تعودي وتعيشي معه، وتريه الجحيم على الأرض، وتكفى عن ممارسة الجنس معه لتجنب الحمل. عندها فقط؛ أرى أنه سيوافق على الطلاق".

تقافز قلبي فرحًا، وابتسمت ابتسامة النصر لتحقيقي أصعب مهمة في حياتي من دون مساعدة (راوية). فدفعت كتفي للخلف وهززت رأسي بكل فخرٍ وثقة بالنفس، حتى أنها سألتني:

"هل لازلت على الخط؟" فقلت ضاحكة:

"نعم، راوية، أنا معك".

"أنا لا أقصد أن أصيبك بالإحباط يا ليلى".

"راوية، لقد وافق أبانا وهيثم على المضي قدمًا في الطلاق إذا طلب فاروق ذلك." فتنفست (راوية) بصوتٍ مسموعٍ في الهاتف، ثم أضفت:

"هل سمعت ما قلت؟" وقد فاجأتها نبرة صوتي الهادئة. فردت علي، قائلة:

"نعم، يا ليلى، لقد سمعتك." وكان لا يزال صوتها باردًا برود الثلج.

"هل هناك ثمة خطب؟" فقالت بسرعة:

"لا، أنا سعيدة من أجلك، ولكني سأكون أكثر سعادة عندما تحصلين على أوراق الطلاق في يدك. هل اتصلت بفاروق حتى الآن؟"

"كلا، هذه هي الخطوة التالية. أردت فقط أن تكوني أول من يعلم".

"لا تحتفلي الآن! عاودي الاتصال بي عندما يستعد فاروق لتطليقك." وأغلقت الهاتف قبل أن تسنح لي فرصة بأن أسألها عن (غسان). فلطالما أعطتني تقارير موجزة حول المكالمات الهاتفية التي كانا يتبادلانها بين الحين والآخر.

(غسان) أيضًا، لم يتصل بي منذ أن غادر آخر مرة، ولا أطيق الانتظار حتى أعرفه على الأخبار السارة. وقد رفضت أن أصدق أنه قد تخلى عني، وواصلت الاتصال به على الرغم من عدم رده على اتصالاتي. ربما كان مشغولًا.

بعد انتظار مكالمة (فاروق) لأربعٍ وعشرين ساعة، قررت أن آخذ زمام المبادرة واتصلت به في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي. غير أنه لم يكن في المنزل؛ لذلك تركت له رسالة. كيف أقنعه بأن يعتقني من هذا العذاب!

أخذت أتمرن على الأسلوب الذي سأواجهه به وما سأقوله له، واعدة نفسي ألا أستجديه، بل أطالبه بالطلاق مطالبة. في ذلك الحين اعتقدت اعتقادًا جازمًا أنني إن لم أناضل من أجل نيل حقوقي، فلا أستحق أن أعيش حياةً أفضل من (النصيب) الذي فرضه أبي عليّ. كنت مصممة على تغيير حياتي: الحياة التي قبلت بها أمي، وكل النساء في العائلة. فالنصيب لا دخل له بحالتي؛ لأنه كان بوسعي تغييره.

وأخيرًا؛ دق (فاروق) على الباب في العصر، ففتحت له (أحلام) واصطحبته إلى الصالون. قبل أن أنضم له، راجعت بسرعة الاستراتيجيات والحجج التي كنت قد وضعتها.

قلت له: "شكرًا لك على حضورك." وتجاهلت يده الممدودة وأنا أجلس في مواجهته على الكرسي مجنح الظهر. كانت يداي ترتعشان؛ لذلك قررت وضعهما تحت فخذيّ حتى لا أبدي قلقي. ودخلت في الموضوع مباشرة، فقلت: "هل تحدثت مع أبيك؟"

"بخصوص الطلاق؟"

"نعم، فعلًا. هل أنت على استعداد لتطليقي هذه الليلة؟"

نظر لي نظرة غاضبة بعينيه السوداوين، فما كان مني إلا أن أحنيت رأسي، على أمل أن أمتص غضبه. عم الغرفة الصمت، ولم أعد أسمع إلا الألم في كل نفسٍ يتنفسه. وأخيرًا؛ تنهد تنهيدة كلها عذاب، ثم وقف وجلس على أريكةٍ بجواري، قائلًا:

"ما الخطأ الذي ارتكبته؟" بدت نبرة صوته دافئة ودودة، ولكنني تصديت لأسلوبه اليائس هذا ونظرت له نظرة نافذة، قائلة له:

"أنت تريد الزواج بفتاةٍ أصغر منك بعشرين سنة." فغمغم قائلًا:

"نعم." وأضاف: "لكن أنا مستعد لتطليقك. فمتى تحبين أن نبدأ الإجراءات؟" جاء رده سريعًا، كما لو كان يريد تجاهل واقعًا لا حاجة له لمن يذكره به.

قلت وأنا كلي حماس: "الآن!"

"حسنًا. أنا موافق، ولكن بشرطٍ واحد." فوقفت ونظرت بعيني في عينيه، قائلة بتحدٍّ:

"اشترط ما تشاء".

"أريد الأثاث، جهاز العروس، والمجوهرات التي أعطيتك إياها".

فسألته: "هل هذا كل شيء؟" مؤكدة كل مقطع من سؤالي، ورافعة حاجبي من وقع المفاجأة.

"بلى. سأعود غدًا مع المأذون واثنين من الشهود."وقف وشرع في المغادرة فعلًا؛ فعاجلته قائلة:

"لو جئت بالشهود والمأذون، فهل ستتمم الطلاق اليوم؟" لم أكن أريد أن أسمح له بفرصةٍ أن يغير رأيه في هذه الأثناء.

فقال: "بلى، إذا كان هذا ما تريدين." هز (فاروق) رأسه وأشاح بوجهه في اشمئزاز. كان يحدق في وجهي بعينين حجريتين. كان لدي انطباع أنه كان ينتظر جوابًا من شأنه أن يرضي غروره. ولكنني بدلًا من ذلك، طرت من الغرفة لأعلن الخبر السار.

"خالتي، لقد وافق على الطلاق، الآن!" ذهبت أبحث عن (ثريا) حتى وجدتها في غرفة النوم منغمسة في صلاتها.

تابعت سجودها، لكني لاحظت ابتسامتها من وراء حجابها الأبيض الذي يغطي رأسها. جلست على الأريكة وانتظرتها حتى أنهت صلاتها، وبمجرد أن سلمت؛ ألقيت بنفسي عليها وعانقتها على سجادة الصلاة. فقالت لي:

" مبروك!" قالتها بصوتها الموسيقي، باعثة الدفء والطمأنينة إلى قلبي بتأكيد حقيقة الأمر.

"أنا في حاجة إلى شاهدين. أين يمكن أن أجدهم؟"

نزعت (ثريا) حجابها وطوت سجادة الصلاة ببطء، ثم توقفت للحظة قائلة: "لا يهم من هم الشهود، طالما أنهم رجال".

تابعتها وهي تخرج إلى الشرفة؛ حيث تجلس خالتي (حميدة) في كرسيها الخيزران المفضل، وكوب من القهوة التركية مستقر على طاولة صغيرة بجانبها، دون مساس.

"خالتي، هلا جئتِ معي إلى الصالون من فضلك؟"

لكنها لخيبة أملي رفضت أن تأتي معي. كانت خالتي تدعم خياري، ولكن المسلمين بشكلٍ عام لا يرغبون في أن يشهدوا الطلاق؛ ثم استطردت:

"لقد أرسلت (أحلام) للمجيء بـ(سيد البواب وخميس الطباخ). وقالت إنها ستكون هنا بالقرب مني، مضيفة: "ستأتي (أحلام) بشقيق زوجها المأذون؛ لإتمام إجراءات الطلاق." وأمسكت بكوب قهوتها.

وفيما ننتظر المأذون والشهود؛ عاودني العبوس مرة أخرى. فماذا لو غير فاروق رأيه؟ كلا، لا أستطيع حتى تخيل ذلك؛ لذا هرعت إلى الصالون ونظرت من خلال فتحة الباب، ووجدت أن الكرسي الذي كان يجلس عليه فارغًا، فأصبت بالذعر حتى ألقيت نظرةً خاطفة باتجاه الزاوية البعيدة للغرفة، فوجدته جالسًا على أحد الكرسيين (الفوتيه) اللذين يواجهان الشرفة واضعًا قدمه اليسرى على ركبته اليمنى، ويهزها هزات سريعة، وعيناه تبدوان كما لو كانتا تحدقان في االفراغ وراء جدران الصالون.

لم يعر (فاروق) وجودي انتباهًا، ولا حتى برفة عين. جلست بهدوء على حافة الكرسي الموجود بجانب الباب، واضعة يدي على ركبتي، وأنا على أهبة الاستعداد للوقوف في طريقه إذا أفاق من شروده وقرر المغادرة. كان يجلس هناك ويهز رأسه والاستياء باديًا على محياه.

ورغم ألمي الواضح، فلم أستطع كبح خيالي الذي طار بي من المنزل على أجنحة الفرح في الطريق إلى لبنان. بدا لي أن كل شيء في الغرفة يشاركني سعادتي؛ سيقان الزهور المطبوعة على الأريكة تمايلت بلطف مع إيقاع دقات قلبي، والكريستال المتدلي من الثريا منسجم مع النسيم. أخذت أتخيل عالمًا مثيرًا للطلاق والحرية، عالم بدا لي قريبًا للغاية حتى أنه يمكنني أن أعيش فيه الآن.

تنحنح (فاروق) فهبطت من فوري إلى أرض الواقع. وقف وأخذ يعبث بخاتم الزواج قائلًا:

"لماذا تحرصين على الطلاق بهذا الشكل؟" روعني صوته. فأخذت نفسًا عميقًا. ترى هل تراجع عن قراره؟ ورغم أنني أردت أن أقول له إنني لا أستطيع الانتظار حتى تتمزق كل خيوط علاقتي معه، وأنه كان يمثل لي كل الرجال الذين فرضوا سيطرتهم عليّ، إلا أنني كنت مضطرة للحفاظ على هدوئه وتعاونه معي. ففضلت عدم الرد.

ولكنه استطرد قائلًا: "أنتِ لا تفهمين، لو أنني أردت أن أملكك إلى الأبد، فلن يمنعني أحد حتى لو كنت ترفضين العيش معي، فبعقد الزواج يقف القانون في صفي. ويمكنني أن أمنعك من الزواج من أي رجلٍ آخر مادمت على قيد الحياة. يمكنني أن أسجنك في مكان من اختياري".

سرت رعشة في جسدي مع توالي خروج الكلمات من بين شفتيه، وخطرت على بالي فكرة الركوع على ركبتي والتوسل له. في تلك اللحظة؛ كنت على أتم استعدادٍ لإزلال نفسي في سبيل الحصول على حريتي.

وأثار أعصابي حينما قفز أمامي مشبكًا يديه خلف ظهره. ثم توقف وواجهني مستأنفًا: "ولكن سأكون لطيفًا معك يا ليلى، وأتركك بذكرى جيدة من شأنها أن تذكرك بي إلى الأبد. فأنا أحبك فعلًا يا ليلى، ولن يغير الطلاق من حقيقة مشاعري ناحيتك".

بدا صوته رقيقًا، وأصابتني كلماته بالارتباك. ماذا يريد؟

أومأت برأسي مؤمنة على اعترافه ذاك حتى لا أجعله يفقد أعصابه، وأخذت أطل من الباب لعلي ألمح المأذون والشهود؛ فقال لي مبتسمًا ابتسامة صفراء:

"أنت قلقة، أليس كذلك؟" ولكنني لم أجب، فأردف:

obeikandl.com

"أرى أنك لا تلبسين خاتم الزواج".

"لقد خلعته منذ فترة طويلة. هل ترغب في استعادته الآن؟" وهممت بمغادرة الغرفة، فأوقفني قائلًا:

"كلا، ابقي مكانك." بدا لي صوته أشبه بصوت أبي، فما كان مني إلا أن جلست مرة أخرى.

"هل قررت أي طلاق تريدين؟"

"لا يهمني طالما أنه طلاق سليم." حاولت أن أبدو متماسكة، رغم أنني لم أفهم سؤاله.

فنظر لي باشمئزاز مضيفًا: "دعيني أشرح لكِ الخيارات المختلفة؛ فبهذه الطريقة لن تضيعي أي وقت قبل أن تستمتعي بلقبك الجديد كمطلقة".

رغم أنني أعرف أن لقب (مطلقة) يحمل وصمة عار اجتماعية، إلا أن الكلمة لم تخفني. وأردف:

"لديك خياران: الطلاق الأكبر، والطلاق الأصغر." ثم جلس في منتصف الأريكة وفرد ذراعيه على طول الإطار المذهب، وكأنه نسر يحوم حول فريسته.

شعرت بجهلي بإجراءات الطلاق؛ فقد كنت أعتقد أن المرأة تصبح طالقًا عندما يلقي عليها زوجها يمين الطلاق شفاهة مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات. وقد سمعت الناس يتحدثون عن الأوراق التي سأحتاجها لإثبات طلاقي، ولكني لم أفهم ما يعنيه بوجود نوعين للطلاق.

بدا لي أنه يتلذذ بفرض سيطرته على الموقف، ولما شرع في توضيح أوجه الاختلاف؛ أصغيت إليه مكرهة.

"حسنًا، يا زوجتي العزيزة، لقد أعطاني القانون العديد من الخيارات للطلاق." قالها باستمتاع استخدام للحصول على الطلاق.

فقلت له، وأنا أغوص في مقعدي: "قل لي أي نوع تريد." كل ما أردته أن أحصل على الطلاق، وأكون حرة.

"البينونة؛ هو الطلاق الذي لا رجعة فيه، وهو ما يحدث عندما أقول لك أنت طالق ثلاث مرات. هذا هو الطلاق النهائي والأكثر خطورة. ولكن الله أتاح فرصة للمصالحة".

كنت مشوشة، ولكن فضولي دفعني -أيضًا- لمعرفة المزيد عن قواعد وشرائع ديني، فبادرته: "وما هي تلك الفرصة؟"

"يمكننا استئجار رجل لعقد الزواج باعتباره (محلل)، بحيث يتزوجك وينعقد الزواج بينكما، ثم يطلقك".

اتسعت عيناي غير مصدقة. "نحن؟ نستأجر رجلًا ليتزوجني؟ لماذا؟"

"هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أتزوجك بها مرة أخرى من الناحية القانونية".

شعرت بعدم حاجتي لسماع كلمة أخرى حول هذا النوع من الطلاق، بما أنني لم أخطط أبدًا للعودة إليه، ولن أطلب منه الزواج مرة أخرى.

بيد أنه استطرد قائلًا: "ولكن إذا أحببت زوجك الجديد، وقررت أن تبقي زوجة له، فلك الحق في ذلك".

فقلت وصوتي يقطر سخرية: "لي حق؟"

"نعم، يمكنك اختيار البقاء معه إذا كنت ترغبين في ذلك".

أصابتني أحكام الشريعة بالحيرة والدهشة. وقد بدا لي من الغريب أنه بعد زواج المرأة من شخصٍ آخر، فيمكن أن تختار ما إذا كانت تريد العودة إلى زوجها الأول أم لا.

قلت بهدوء: "أكمل من فضلك".

"بالتأكيد لن أختار الطلاق البائن بينونة كبرى؛ لأنني أرجعك إلى عصمتي إذا نام معك رجل آخر، حتى ولو كان زوجك. وأنوي استخدام الطلاق البائن بينونة صغرى؛ لأنني أعلم أنك ستدرك خطأك عما قريب، وستطلبين مني أن أعيدك إلى عصمتي، وحينها سأنظر في هذا الطلب".

كان يتحدث بنبرة متعالية، ولكن تمسكت بحبال الصبر وحافظت على رباطة جأشي، فكررت:

"سأوافق على أي خيار تفضله".

"وبالنسبة للطلاق البائن بينونة صغرى، فإنني ألقي اليمين إما مرة واحدة أو مرتين، وإذا كنا نرغب في الزواج مرة أخرى، فسيكون مثل الزواج الجديد، بشاهدين ذكرين، ومهر جديد. هذا هو خياري المفضل." من الواضح أنه أرغم نفسه على الابتسام مضيفًا: "آمل أن تسمح لك هذه اللفتة بأن تري الجانب الرحيم مني".

فابتسمت له وشكرته على شهامته، ثم أشحت بوجهي بعيدًا وأنا أفكر في هذه المعاملة غير العادلة. لقد كرهت هذا المجتمع وهذه الثقافة، والشريعة. لقد غضبت من الله مرة أخرى؛ وأخذت ألومه على ما فرضته الشريعة على حياتي.

وفيما أنا في دوامة أفكاري تلك، قال لي (فاروق): "بما أنك في عجلةٍ من أمرك، فسألقي عليك يمين الطلاق شفويًا دون الحاجة لانتظار الشهود أو المأذون".

فهززت رأسي بتوترٍ وقلق، وذلك لأنني بحاجة لوثيقة الطلاق لكي أحصل على جواز السفر، والطلاق الشفهي سيكون عديم الفائدة في هذه الحالة. ومع ذلك، فقد حافظت على هدوئي لكيلا أقول أي شيء قد يثير غضبه ويتسبب في تغييره لرأيه.

فسألني: "هل تدركين أنك لم تعطيني سببًا للطلاق؟"

كنت أعرف أنه لن يكون لدي سبب وجيه، وفقًا لأحكام الشريعة، وأنه يتعين عليّ إعطاء المأذون مبررًا لذلك. لكن، وباستثناء فارق السن بيننا، لم يكن لدي ذلك المبرر، وهو مبرر غير كافٍ على أية حال؛ لأنه يجوز للرجل الزواج من فتاة في سن التاسعة. ورغم أنني وددت لو قلت لـ(فاروق) إنه لم يتبع تعاليم نبينا، الذي نهى عن الزواج القسري، إلا أنني بقيت صامتة.

"يمكنك ببساطة أن تقولي له إنك لا تحبينني، وسوف أطلقك فورًا".

لم أكن أعرف ما إذا كان جادًّا أم يسخر مني.

ثم همس: "أنا لن أسمح لك بمزيدٍ من المعاناة. فأنا ألوم نفسي".

بعد طول انتظار؛ جاءت (أحلام) إلى صالون وأعلنت عن وصول الشهود والمأذون. وقبل أن أهرع إلى الخارج لاستقبالهم؛ نظرت إلى (فاروق) نظرة سريعة ورأيت الألم في عينيه مرة أخرى، وشعرت فجأة بالأسف من أجله.

ساعدت (أحلام) على جلب كرسيين من كراسي غرفة الطعام ووضعناهما قبالة بعضهما البعض وبينهما منضدة القهوة. عندما دخل المأذون، مددت يدي للسلام عليه، لكنه تجاهلني واتجه لمصافحة (فاروق)، وربت على كتفه.

فهمت أن بعض رجال الدين يعتبرون لمس أي جزءٍ من جسم المرأة، حتى يدها (نجاسة)، وإذا فعلوا فيجب عليهم إعادة الوضوء قبل أداء صلواتهم.

كان الشيخ (أكرم) رجلًا في أواخر الخمسينات، يرتدي قفطانًا بني ويعتمر عمامة بيضاء ويمسك بمنديلٍ أبيض في إحدى يديه. خاطب (فاروق) برقةٍ، وقال له بنبرةٍ ناعمة خفيضة: "هل أنت الذي تسعى للطلاق؟"

"كلا".

"أين هي المرأة؟"

فأشار (فاروق) إليّ. فأخذ المأذون يتفحصني من منبت رأسي إلى أخمص قدمي، وشفته العليا تتلوى باشمئزاز، في حين أن ابتسم لـ(فاروق) ابتسامة تشي بالتعاطف. أردت أن أضحك لكن حافظت على مظهري الجاد في أثناء جلوس المأذون على الأريكة. فيما جلست أنا على الكرسي البعيد.

فتح المأذون، الذي كان يضع قلمًا خلف إحدى أذنيه، ملفًا أخضر بعناية. ووضعه على طاولة القهوة، وهمس: "بسم الله الرحمن الرحيم." ثم مسح وجهه بكلتا يديه. وشرع يطوي أكمام قفطانه الطويلة والواسعة بصبرٍ وأناة، قبل أن يلتقط القلم من وراء أذنه.

كنت أتلوى في مقعدي، وجلست على يدي لإبقائهما ساكنين. تجمد وجهي لكيلا تند عني ابتسامة تفضح فرحتي. فعما قريب سأنال حريتي.. سأنالها قريبًا!

حافظ (فاروق) على رباطة جأشه في الدقائق القليلة الماضية التي تربط بيننا، وانتظر حتى طلب منه المأذون الانضمام إلينا من أجل إتمام إجراءات الطلاق؛ فجاء على مضض وجلس على الكرسي المقابل لي مثبتًا عينيه على وجهي. فخفضت رأسي واستمعت بفارغ الصبر إلى خطاب المأذون للصلح الذي يسبق الطلاق.

"إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق." ثم رفع صوته فجأة، وهو يقول: "هل تعلمان ذلك؟"

أومأنا برأسينا معًا.

ثم توجه بالكلام إلى (فاروق): "ما هو سبب رغبتك في تطليقها؟" مفترضًا مرة أخرى أنه هو من يريد الطلاق.

التقت عيناي للمرة الثانية بعيني (فاروق) الذي رد قائلا: "ربما كان عليك أن تسألها هي".

نزلت بعيني أنظر إلى البساط تحت قدمي، وتمتمت قائلة: "نحن لا نحب بعضنا".

"وهل جربتم كل الوسائل الممكنة لاستعادة المودة التي كانت بينكما يومًا مرة أخرى؟" بدا صوت المأذون باردًا برود موظفٍ في مكتبٍ حكومي.

لم نرد عليه، واكتفيت بأن سحبت أصابعي من تحتي ولوحت بها دلالة على انتهاء الأمر.

فسألني المأذون بنظرةٍ كلها لوم: "منذ متى وأنتما متزوجان؟"

فقلت: "عامين".

"وهل انعقد الزواج بينكما؟"

"كلا، أبدًا!" قلتها دون أن أنتظره حتى ينهي سؤاله.

فنظر إلى (فاروق) نظرة تنم عن الشفقة، ثم سأله ما إذا كان يرغب في الطلاق؟

فأجابه بهدوء: "نعم".

كنت أتوقع نفس السؤال، ولكن المأذون تجاهلني. كنت أريد أن أمارس حقي وأقول له إنني -أيضًا- أريد الطلاق، ولكني جلست بلا حراك منتظرة الحكم.

تداول (فاروق) والمأذون حول نوع الطلاق، فأخبره (فاروق) أنه يفضل الطلاق البائن بينونة صغرى الذي شرحه لي. لم أكن أريد إغضاب المأذون؛ لذلك ظللت محتفظة بأفكاري لنفسي.

وعند انتهاء تداولهما؛ كلمني المأذون أخيرًا، قائلًا: "لدي سؤال لك، وأريد أن أتحدث إليك على انفراد." والتفت إلى (فاروق) للحصول على موافقته. فوقف (فاروق) وغادر الغرفة.

سألته على استحياء: "هلا سمحت لي بدعوة خالتي للمجيء والبقاء معي؟" ناسية أنها لا تريد المشاركة.

فاقترب مني وانحنى تجاهي برأسه هامسًا في أذني: "كلا." لفحتني رائحة نفسه الكريهة قبل كلماته، وأردف: "يا ابنتي، لدي سؤال حساس أريد أن أسأله لكِ، وأريد منك إجابة صادقة".

قلت، وأنا أمسح الرزاز المتطاير من فمه على خدي: "أعرف".

أمسك دفتره وأخذ يقلب صفحاته بعصبية، فيما كنت أنتظر حتى يعثر على السؤال، لكنه لم يفعل. كانت يداه ترتجفان.

فسألته متعجلة التعرف عليه: "إذًا، ما هو السؤال؟ "

فتجاهلني وأبقى عينيه ملتصقة بصفحات الدفتر، مع تحريكهما ببطءٍ وروية.

فسألته: "هل هو عن الـ X ؟"

حدق في وجهي، متحيرًا. فكرت فيما كانت خالتي قد قالته لي عن الأسئلة المتوقعة منه، وأدركت أنه لا يفهم ما المقصود برمز "X" الذي كنت أستعمله أنا و(راوية) كناية عن فترة الطمث لدينا. دفعتني هذه الفكرة للضحك، ولكنني كتمت ضحكتي في وجه ذلك الرجل الجاد.

لكنه كتب ببطء شيئًا على ورقته ثم سألني بصوتٍ خافت: "متى كان آخر... " ثم تنحنح وتوقف.

"هل تعني العادة الشهرية؟" وهكذا ألقيت في وجهه بالعبارة العامية التي تعني "فترة الطمث"، بنفس الطريقة التي تستخدمها (أحلام) للتعبير عن المصطلح، متعمدة صدمته.

"نعم، نعم." وأمسك منديله؛ ليجفف به العرق من على جبينه.

"لقد قلت لك من قبل إن الزواج لم ينعقد بيننا".

فأخذ نفسًا عميقًا وهزرأسه، وأجاب بصوتٍ منخفض: "إنها الإجراءات".

"فما أهمية السؤال، إذًا، مادام لم يدخل بي؟" ارتفع صوتي من فرط الهياج، وأردفت: "أنا حائض الآن." كنت أكذب، فقط لكي أفاجئه وأضع حدًّا لتحقيقه الفضولي ذاك، ثم أضفت: "هل لديك أي أسئلة أخرى؟"

"الأستاذ فاروق رجل لطيف، على استعداد لأن يعيشك حياة جيدة، وأنا لا أرى في مظهره بأسًا. ترى ما هو السبب الذي يدفعك لرفضه؟"

لم أرد عليه.

أخذ يتمتم، وهو يعبث بدفتره: "أنت غير ناضجة".

رددت عليه من فوري: "أنت على حق، لا يزال أمامي بضع سنوات حتى أصل إلى مرحلة نضج فاروق".

بقيت رأسه مدفونة في أوراقه وتجاهل سخريتي؛ فقلت له مغتاظة:

"فقط أكتب أنه لم يدخل بي، وهذا يكفي." فسألني رافعًا صوته:

"يكفى ماذا؟" فأجبته:

"يكفى للزواج مرة أخرى دون انتظار ثلاثة أشهر".

"إن الأشهر الثلاثة هي فترة إلزامية".

ثم دعا (فاروق) للانضمام إلينا مرة أخرى، والذي عاود الجلوس على المقعد المقابل. ثم نادى المأذون علي الشاهدين (خميس، وسيد)، اللذين كانا ينتظران في الردهة خارج الشقة. سارا بهدوء حتى وصلا الصالون، ووقفا وراء (فاروق) كحارسين شخصيين.

طلب المأذون أن يذكر كلٌ منهما اسمه ومهنته؛ فقال خميس:

"خميس أبو الغيط.. طباخ"، وربت على كتف (فاروق).

"سيد أحمد النبوي، بواب العمارة".

بحثت عن نظرة تعاطف في عيون كل الموجودين في الغرفة، ولكنني لم أجد إلا الاستياء. ونظرت من ورائي بحثًا عن (ثريا، خالتي حميدة)، أو حتى (أحلام). كانت الأنوار مطفأة، والعتمة آخذة في الانتشار، وغشي المكان صمت القبور. فوضعت يدي في حجري وركزت عليهما، حتى خرجت تلك الكلمات المذهلة من فم المأذون كمقطوعة موسيقية ترسل موجاتٍ كهربائية تدغدغ جسمي.

"من فضلك، أستاذ فاروق ألق عليها اليمين." وأشار المأذون إليّ.

سبحت الغرفة في صمتٍ مطبق، حتى سعل المأذون، فرفعت رأسي. والتقت عيناي لثانية بعيون (فاروق) المحدقة في الفراغ، وأخيرًا قال:

"أنت طالق!" متوقفًا بين الكلمتين.

في تلك اللحظة؛ كان قلبي أشبه ببركانٍ من السعادة يريد أن ينفجر، وأردت أن أطير في كل أرجاء الغرفة، ولكنني كبجت جماح فرحتي، وبدأت أعيد في رأسي ترتيب الحياة. كنت قد خططت بها على مدى العامين الماضيين؛ ورقة الطلاق أولًا، ثم جواز السفر، وأخيرًا (غسان). شعرت كما لو كنت قريبة من ملامسة النجوم.

وتحدث (فاروق) بهدوء، بين أسنانه المطبقة بأحكام: "أتمنى لك السعادة من كل قلبي؛ قلبي الذي أحبك، وسيظل يحبك دائمًا. لقد تعمدت أن أطلقك طلقة واحدة؛ لأترك لك الباب مفتوحًا في حال غيرت رأيك. أما بالنسبة لجهاز العروس الخاص بك والأثاث، فهي لك".

ظلت نظرتي مثبتة لأسفل على السجاد الفارسي تحت قدمي، أعد الزهور الصغيرة، وأتتبع بعيني الخط الهندسي الذي يحيط بها. كنت في عالمٍ مختلف، ولم أكن أرغب في الاستماع له وهو يتحدث عن جهاز العروس والأثاث. فلم أكن أنتوي أخذهم. كل ما أردته هو وثيقة طلاقي.

شاهدت (فاروق) بفارغ الصبر، والفرحة تعتريني وهو يوقع الوثيقة في صمت. وعندما طلب مني المأذون التوقيع، كتبت "براء كامل." بخط سريع وعيني تسبحان في دموع السعادة، وقلت بنبرةٍ واثقة:

"يمكنك أن تأخذ كل شيء، فليس لها فائدة معي." ولكنه همس، قائلًا:

"إنها ملكك، وستبقى ملكك إلى الأبد".

هززت كتفي غير مكترثة، لكني لم أستطع إخفاء ابتسامة تعكس الغبطة التي تعتمل في قلبي.

ودونما تأثر بكلماته الأخيرة؛ طرت من الغرفة، ووجدت (ثريا) في انتظاري في غرفة خالتي فاتحة ذراعيها، فهمست في أذني ونحن متعانقتين: "مبروك".

بيد أن خالتي (حميدة) لم تستطع التعبير عن عدم ارتياحها بشكلٍ أفضل مما عبرت به من خلال نظرة القلق التي رمتني بها.

فسألتها: "هل هذا صحيح، يا خالتي؟ هل أنا مطلقة رسميًّا الآن؟" فقالت بنبرةٍ تكسوها المرارة:

"نعم، يا حبيبتي، أنت الآن امرأة مطلقة. أدعو لك ألا تندمي. حفظك الله ورعاك. تذكري يا ابنتي دائمًا أن العالم من حولك أصبح من الآن فصاعدًا بحرًا تهيم به أسماك القرش الجائعة والمستعدة لالتهام سمكة صغيرة مثلك." فقلت مبتسمة:

"لن أنسى يا خالتي، لا تقلقي، فأنا أعرف كيف أحافظ على نفسي".

شعرت بالنشاط والثقة وبأنني لا أخشى شيئًا ولا أخشى أحدًا؛ فها أنا ذا قد غيرت نصيبي وأستعد للعيش حرة من هيمنة أبي، وأخي، وفاروق. سيكون من الصعب عليّ الإبحار بأمان في عالمٍ لم أكن أعرف عنه إلا أقل القليل، ولكنني أعتقد وبغض النظر عن مدى صعوبة حياتي المقبلة. فلن تكون أسوأ من التقييد بزواجٍ مع رجلٍ لم أختره وفي سن والدي تقريبًا.

عندما اتصل (رضا) في وقتٍ متأخر من مساء ذلك اليوم، وتعهد بتطهير اسم العائلة من سلوكي المشين واستعادة شرفها بدمي، لم أبالي. كنت منتشية بخمر السعادة، وأريد أن أغني وأرقص. وعندما استلقيت في سريري تلك الليلة؛ فتحت ذراعي لاحتضان عالمي الجديد. رفرفت من حولي الكثير من الأحلام والآمال متلألئة في الظلام، مصحوبة بتباشير مستقبلٍ جديد لا يصدق. كنت امرأة حرة، وتلك حقيقة لن يستطيع أحد تغييرها، كائنًا من كان: لا فاروق، ولا أبي، ولا أخي .

obeikandl.com

الجزء الخامس: بدايات جديدة

obeikandl.com

obeikandl.com

(34)

كنت أحسب أنني سأحصل على حريتي المنشودة فور حصولي على الطلاق، ولكن يبدو أنني كنت واهمة؛ فقد حالت قوانيننا الاجتماعية دون تصرفي كامرأة حرة، وحذرتني خالتي (حميدة) من أن أبي قد يحاول إقناع (فاروق) بإعادتي إلي عصمته بحكم محكمة، قبل انتهاء العدة البالغة ثلاثة أشهر. كل هذا جعلني أشعر بعدم الأمان. كنت بحاجةٍ إلى شخصٍ يمنحني جرعة أفكار إيجابية، ولكن (راوية، وغسان) كانا بعيدين، ولا أريد أن أثقل على (ثريا) وخالتي (حميدة) أكثر من ذلك. ورغم أنني كنت أعرف أن هذا الطلاق يعني أنه بمقدوري الالتحاق بـ(راوية) في لبنان عما قريب، إلا أن فكرة ترك أمي هنا ألقت بغمامةٍ على فرحة الفوز بطلاقي؛ فرحيل (راوية) من قبل قد كسر قلبها، ولا أريد أن أسبب لها المزيد من الألم. وهكذا وجدت نفسي ممزقة بين مستقبلٍ كنت أناضل من أجله ومعاناتها. وددت أن أقلد (راوية)، التي وضعت مصلحتها الشخصية دائمًا فوق كل الاعتبارات الأخرى. أصيب قلبي بالإرهاق جراء كل هذه الأفكار المتضاربة، وكان نومي هو ترياقي للإحباط.

بعد يومٍ من إنهاء إجراءات الطلاق؛ اتصلت بـ(غسان) ولكن لم أحصل منه على رد هذه المرة أيضًا. حاولت أن أبدو هادئة عندما اتصلت بأمي بعدها، ولكن اعتراني خليط من البهجة والخوف.

"صباح الخير يا حبيبتي." عذبني صوتها القلق، قبل أن تردف: "اتصل بنا فاروق ليلة أمس".

"أمي، أعدك بأنني سوف أعود من أجلك." قلتها متجاهلة تعليقاتها؛ لأن (فاروق) قد خرج من حياتي للأبد، وكنت أرغب في التحدث عن مستقبلي.

"يجب أن أذهب إلى لبنان بمجرد أن أحصل على جواز سفري. (غسان) هو مستقبلي يا أمي. من فضلك لا تصعبي الأمر عليّ".

ولكن كلما تحدثت أكثر؛ مزق نحيبها قلبي أكثر وأكثر.

"يشهد عليّ ربي يا أمي، في اللحظة التي أستقر فيها بعيدًا عن هذا البلد، سأخرجك معي أيضًا. يمكنك المجيء والعيش معي. ستأتين، أليس كذلك؟"

"الله أعلم، يا جبيبتي. إذا أحيانا ربنا، يمكن." أدخل جوابها السكينة على قلبي حتى أضافت: "فاروق بدا حزينًا جدًّا عندما اتصل".

"هل تعرفين؛ لماذا لم أستطع البقاء في عصمته؟"

"نعم يا حبيبتي. كل ما هنالك أنني قلقة من أن تكوني قد ظلمته فيعقابك الله." سمعتها تتنهد تنهيدة كبيرة.

"إذًا، ادع لي يا أمي".

"لولي يا حبة قلبي، عديني أنك ستعودين. احلفي على المصحف." في تلك اللحظة؛ كانت أمي تكافح لالتقاط أنفاسها.

"أعدك أنني بمجرد أن أستقر في لبنان، فسأرسل لك ويمكنك أن تعيشي معنا، كما قلت".

أخذت تبكي منتحبة؛ فقبلت سماعة الهاتف وأغلقته ببطء، قبل أن تتمكن من سماعي وأنا أنهار وأبكي أيضًا. خلال كل تلك المدة التي سعيت فيها لطلب الطلاق، لم يسبق لي أن فكرت في هذه اللحظة. وقد تمزقت أحشائي إربًا، وأنا أفكر في إمكانية عدم رؤية أمي مرة أخرى، ولا أستطيع أن أتصور خروجها من حياتي للأبد. ماذا فعلت؟ هكذا فكرت وقد أدركت فجأة فداحة الثمن الذي دفعته مقابل الحصول على حريتي؛ أمي، أختي هالة، شقيقاي هادي وسمير. كان ألم الفراق لا يحتمل، ولم أكن متأكدة مما إذا كان بمقدوري التعامل مع المعاناة وحدي، أو حتى مع (راوية). لقد انقطعت

علاقاتي بالناس الوحيدين الذين عرفتهم في كل حياتي، الناس الذين كبرت معهم وعشت معهم ذكريات طفولتي. فكرت في العالم الذي سأقدم على مواجهته، غير متأكدة من أنه سيكون مختلفًا. قبل أن أتحطم نهائيًا، اتصلت بـ(راوية). فهي القادرة على انتشالي من هذا المستنقع وإراحتي.

"آلو راوية، أنا ليلى." حييتها، متظاهرة بالنشوة والإثارة، مردفة: "أنا تطلقت"!

"مبروك يا ليلى." نزلت برودة صوتها على قلبي كصخرة.

"هل اتصل بك غسان في الآونة الأخيرة؟" لم أستطع كبح اهتمامي الأول.

"الآن بعد أن أصبحت حرة أخيرًا، فقد حان الوقت لتعلمي بعض الدروس قبل التورط في زواجٍ ثانٍ. سأراك قريبًا في الإسكندرية." وأقفلت الخط.

تجمدت في مكاني. لماذا لم تجب (راوية) على سؤالي؟ وماذا تقصد بقولها؛ "تعلمي بعض الدروس"؟ هل تخلى (غسان) عن حبي؟ وهل تتجنب هذا الموضوع لكيلا تؤذي مشاعري؟ على الرغم من أنني كنت أخشى الأسوأ، إلا أنني أتخلى عن آمالي وتفاؤلي.

وسط المشاكل المالية لـ(ثريا) وارتفاع تكلفة المكالمات الدولية، فلا يمكنها تحمل كلفة الاتصال بـ(غسان) كما أشاء.

مرت ستة أسابيع بطولها بعد محادثتي الهاتفية مع (راوية)، حتى فوجئت بها فى الاسكندرية. كانت متسلطة ومفعمة بالطاقة كالعادة. لم أكن أتوقع مجيئها بهذه السرعة، ولكنني رحبت بها بنفس الحماس الذي أظهره لها دائمًا. بعد سلامها على خالتنا و(ثريا)، ذهبنا إلى غرفتي وحضنتني في عناقٍ طويلٍ في حين أخذنا الحديث. لقد ملأت قلبي بالأمل في المستقبل، محدثة إياي عن روعة الحرية والعيش في لبنان. كان حماسها ذاك قد سكن مخاوفي وشكوكي، وساعدني في تلمس مستقبل حلمي.

ولكنني لم أستطع أن أطرح عليها السؤال الذي يشغل بالي.

"هل تحدثت إلى غسان؟"

نهضت، ووقفت قبالة الشرفة، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم أضافت: "هذا هو الشيء الوحيد الذي أفتقده؛ هواء الإسكندرية!"

كنت أعرف أن (راوية) لا تشجع ارتباطي بـ(غسان)، ولكنني شعرت بعدم الارتياح نوعًا ما إزاء طريقتها في تجنب أسئلتي. جف حلقي عندما كررت عليها السؤال، وواصلت هي تجاهلي. لكنني رفضت افتراض الأسوأ، وأقنعت نفسي أنها كانت مثارة ومشغولة بالتخطيط لرحلتي إلى لبنان. لذلك سأنتظر حتى أن أطرح عليها السؤال مجددًا.

دارت حول نفسها، ثم فتحت الدولاب وأخرجت كنزتي الفضية المفضلة، وألقت بها في وجهي بشكلٍ هزلي، قائلة: "لم تعودي في حاجة يا ليلى، لإحضار أي شيء من هنا. سأشتري لك ملابسًا جديدة في لبنان".

وقفت وأنا أحدق في عينيها، لكنها نظرت بعيدًا. التقطت (راوية) حقيبتها من الأرض، وفتحتها على السرير. وأخرجت منها، وأخذت تلقيها يمينًا ويسارًا وعلى كتفيها، وبعضها على الأرض، ثم أعطتني فستانًا قصير الأكمام باللونين الأحمر والأزرق، بالإضافة إلى ملابس داخلية بنفس اللون.

"أنت تحبين اللون الأحمر، أليس كذلك؟ أرأيت، لم أنس. هذه هي الموضة الآن في لبنان؛ التنانير القصيرة".

كانت لا تزال تتجنب نظرتي وتتجاهل صمتي، حتى تحولت إلى كومتها الفوضوية، وأمسكت حذاء أحمر بكعبٍ منخفض، قائلة:

"خذيه، فهو يتناسب مع الفستان. قومي بقياسه".

لكنني لم أتحرك من مكاني.

وأخيرًا، عاودت النظر في عيوني، شارحة: "ليلى، كيف يمكنني أن أجعلك تفهمين أن الحياة ليست كلها رومانسية؟ أنت تعتقدين أنك تحبين (غسان)، ولكن عندما تلتقين رجالًا آخرين؛ ستكتشفين أن ما تشعرين به الآن ليست مشاعر حقيقية. أريد منك أن تخوضي تجربةً جديدة، وتستمتعي بحريتك قبل أن تسجني نفسك في سجن الزواج مرة أخرى. اسمعيني يا ليلى، أنت لا تزالين صغيرة، فضلًا عن قلة خبرتك. هل تريدين أن تتعرضي لتجربة الطلاق مرة أخرى؟"

"لكنني أحب غسان! وأي شيء تقولينه لن يغير مشاعري تجاهه".

"حسنًا، إذا كنتِ لن تستمعي إلى نصيحتي، فيستحسن أن تبقي في الإسكندرية".

بدت غاضبة، وهو ما أصابني بالذعر، إذ لم أكن أتصور مستقبلي من دون دعمها لي، وهو ما دعاني إلى أن أقول لها وأنا على وشك البكاء مرة أخرى: "حسنًا، لن أتزوجه على الفور، ولكن لا تطلبي مني ألا أراه".

"حسنًا. حسنًا. فقط جربي فستانك".

خلال الوقت المتبقي من الزيارة؛ تجنبنا الحديث عن (غسان)، وتركز على خروجي من الإسكندرية.

في ذلك الحين؛ لم يتوقف أخي عن مطاردتي وتهديدي، ولليال كثيرة ظل يرابط أمام البناية لساعات. ولكي أتجنب مواجهة أخرى كتلك التي كسر فيها أسناني، قررت أنا و(راوية) أن نذهب إلى القاهرة، في نوعٍ من النزوح الأولي قبل الرحلة الكبيرة إلى لبنان بمجرد أن أحصل على جواز سفري.

أخيرًا، كنت أنا و(راوية) على نفس الموجة مرة أخرى، مستعدتين لمواجهة تحديات عالمٍ لم أكن أعرف عنه شيئًا. بوجود شقيقتي بجانبي، كنت أثق أن المستقبل سيكون أفضل بكثير.

عندما حان الوقت لتوديع (ثريا) وعائلتها؛ وجدتني أكافح للعثور على الكلمات. بكينا وتعانقنا.

بعدما حررتني (ثريا) من بين أحضانها؛ أعطتني حقيبة اليد الجلدية المقلمة التي كانت (راوية) قد اشترتها لرحلتنا، قائلة: "اذهبي بسلام يا ليلى، وتذكري أنني سأكون بجانبك دائمًا. إذا ما احتجتِ لي في أي وقت".

"أحبك يا ثريا!" قلتها، وأنا ألوح لها تلويحة الوداع.

أخذت (راوية) حقيبتها، وتبعتها ممسكة بحقيبة اليد خاصتي. تركت كل ملابسي ورائي؛ لأنها في رأي (راوية) ستكون متحفظة جدًّا وليست على الموضة. انتظرنا في بهو البناية؛ ممسكين بأيدي بعضنا البعض حتى أوقف لنا البواب تاكسي. وقبل دخولي التاكسي؛ نظرت لأعلى ورأيت (ثريا) واقفة في الشرفة. كان قلبي يدق بشدة، وشعرت كما لو أن قلبي ممزق نصفين، نصف يريد البقاء، والنصف الآخريسحبني بعيدًا. لوحت لها مودعة، ثم جلست في المقعد الخلفي إلى جانب (راوية).

أخذت يدي بين يديها، قائلة: "بمجرد أن نصل إلى القاهرة، لن يكن هناك ما تخافين منه".

أومأت لها وسألتها؛ ما إذا كان بإمكاننا التوقف عند شاطئ (سان ستيفانو)؛ فما كان منها إلا أن أمرت السائق بأن يأخذنا هناك، وأردفت موجهة كلامها لي: "ولكن بسرعة حتى لا يفوتنا القطار." فأومأت برأسي موافقة.

عندما وصلنا؛ خلعت حذائي ومشيت خطواتٍ قليلة على الشاطئ. لم تكن الرمال قد امتصت بعد حرارة شمس العصر، وشعرت بالراحة وأنا أمشي عليها. ولما وصلت إلى المياه؛ قبلت قدماي البحروكأنها تودعه.

لم أكن أعرف؛ كم طال هذا الوداع حتى نظرت إلى الوراء، ورأيت (راوية) مستندة على التاكسي عاقدة ذراعيها على صدرها، تلك الوقفة التي أعرفها تمام المعرفة، وتنم عن نفاد صبرها. لوحت لها، لكنها لم تعرني انتباهًا. غير مكترثة بإحباطها، بضع خطوات في الماء الأزرق العميق من البحر الأبيض المتوسط. ثم انحنيت، ومررت يدي بلطفٍ على السطح، وشاهدت متأملة الموجات وهي تتكسر على قدمي. اختزنت كل الذكريات التي يستطيع قلبي اختزانها للسنوات المقبلة من رحيلي بعيدًا عن أرض الوطن وعدت إلى التاكسي.

أسرع السائق إلى محطة القطار، فيما ألصقت جبهتي بالنافذة، وشرعت أخزن في ذاكرتي كل ما تستطيع عيني تسجيله. أدركت أنها قد تكون المرة الأخيرة التي أرى فيها الإسكندرية وأمي. بكيت في صمت. فلم يسبق لي أن تصورت أن اقتلاع نفسي من جذوري سيكون بهذه الصعوبة. ولكن عزائي الوحيد هو أنني سأغادر الإسكندرية وأنا امرأة حرة. عندما وصلت إلى التاكسي؛ وضعت رأسي على كتف (راوية)، التي همست لي:

"أنا بجانبك يا ليلى، ولن أتخلى عنك أبدًا." كنت متأكدة أن (راوية) تعني ما تقول، وأنها ستفي بوعدها، ولكن كلماتها لم تخفف خوفي من المستقبل. كان كل شيء لا يزال غامضًا.

كانت (راوية) تتحدث باللغة الفرنسية، ولكن ذلك لم يردع السائق من الالتفات برأسه والتحديق فينا. فشانه شأن معظم السائقين في مصر، فهو يفترض أن التاكسي وركابه ملكًا له.

سألنا: "لماذا تبكي الآنسة يا ترى؟ "

فزجرته (راوية)، قائلة: "لقد استئجرناك لتوصلنا لا لتدردش معنا." ثم التفتت إليّ منزعجة: "لماذا تبكين الآن؟ هل كنتِ تريدين الاستمرار في العيش

تحت سيطرتهم إلى الأبد؟ فكري في كل ما يمكننا القيام به الآن. نحن أحرار يا ليلى. في هذا البلد، المرأة لا حول لها ولا قوة. الرجال لا يحترمونها. بالنسبة لهم لسنا أكثر من جسد يستخدمونه للمتعة، سواء لممارسة الجنس أو لإشباع غرورهم وإنجاب الأطفال".

سألتها، وأنا لا أكاد أقوى على السيطرة على نحيبي: "ألا تفهمين أننا لن نرى أمنا مرة أخرى؟"

أخرجت منديلًا من حقيبتها ومسحت دموعي. وفجأة صرخت في السائق باللغة العربية: "انتبه للطريق!" ثم همست لي: "هل سبق لي أن حدثتك عن النفقة المستحقة للمطلقة لسنة واحدة؟ إنهم يسمونها (نفقة المتعة). وتدفع على دفعاتٍ شهرية مقابل الوقت الممتع الذي أعطته المرأة لزوجها." وضحكت (راوية) في محاولة منها لإخراجي من الحالة المزاجية المكتئبة التي كنت فيها،

فسألتها: "أية متعة يا راوية؟"

"أعرف أنه لم يدخل بك، ولكن هذا لا علاقة له بالفكرة التي أريد توصيلها لكِ. أردت فقط أن تفهمي مكانتنا في هذا المجتمع. فنحن لم ولن نعامل أبدًا باحترام. لذا كفي عن البكاء واكبري"!

مسحت دموعي وأرغمت نفسي على الابتسام.

لانت (راوية) قليلًا، ولفت ذراعيها حول كتفي، مغمغمة: "أعرف أنك تفتقدين ماما، وأنا أفتقدها أيضًا. لكنني أعدك، بمجرد أن نستقر ونصبح مستقلتين ماليًا، فسأساعدها على الخروج حتى تتمكن من أن تأتي وتعيش معنا".

كان السائق يستمتع بالدراما من خلال مرآة السيارة الأمامية، ولم يستطع أن يحتفظ بفضوله لنفسه. حاول أن يعطيني منديله، في محاولة منه لدس

أنفه بيننا مرة أخرى. ولكن (راوية) أعرضت عنه، وهمست لي بالفرنسية مرة أخرى:

"أرجوك تمسكي. فهو يعتقد أننا هاربتين." فابتسمت لها، قائلة:

"ولكننا هاربتين فعلًا".

"كلا، أنت مطلقة هاربة. وأنا ببساطة شريكتك".

وضحكنا. ذكرني مزاحها هذا بكل الأوقات الحلوة التي قضيناها معًا، وشعرت بالهدوء عندما وصلنا إلى محطة القطار.

ابتسم لنا السائق ابتسامة متكلفة، قائلًا: "هل تحتاجان إلى أي مساعدة في الوصول إلى القطار؟ يسعدني أن أترك التاكسي؛ لأكون في خدمتكم يا فتياتي الصغيرات".

ولكن (راوية) صدته بدفع الأجر له، ثم سحبت ذراعي وجرتني جرًّا لأسير بالقرب منها، وهي تقول: "ليلى، امشي إلى الرصيف مباشرة وتظاهري بالثقة في نفسك. لا تنظري إلى الوراء، ولا إلى اليسار أو اليمين. لا تعيري أي تعليقات قد تصدر من الرجال انتباهًا. وإذا ابتسموا لك، فلا تبتسمي لهم. فهمت؟"

"لماذا؟"

"لأن الطريقة التي نتصرف بها تجذب انتباه الرجال. سوف يعتقدون أننا فتيات منحلات".

"حسنًا. سأفعل ما تريدين".

"اتبعيني!" قالتها، وانطلقت إلى المحطة. تاركة إياي، والتاكسي، والسائق وراءها.

هرعت خلفها، ولكني لم أستطع اللحاق بها حتى وصلت إلى شباك التذاكر. استدارت وابتسمت لي ابتسامة خبيثة. بدأ طعم المغامرة الحلو يتغلغل في أحشائي .

نبهتني راوية، قائلة: "انتبهي للحقائب".

أومأت إليها ونظرت حولي. كان هناك أناس في كل مكان، بعضهم وقوف ونظراتهم زائغة بلا هدف، وبعضهم يندفعون نحو رصيف المحطة، رغم أن القطار لم يصل بعد. لم يكن بالرصيف إلا قليل من النساء الأنيقات اللاتي يرتدين ملابس جيدة، والكثير من الرجال الذين اكتظ بهم المكان، ومظاهر الإعياء بادية على وجوههم، ولكن عيونهم الجائعة كانت على استعداد لالتهام أي أنثى تمر بالجوار. كانت النساء اللاتي رأيناهما أكبر منا سنًّا، وأكثرهن يرتدين الخمار أو يغطين شعرهن بالحجاب. وبما أنني و(راوية) كنا نرتدي ملابس تساير خطوط الموضة ومن دون أي غطاء رأس، فقد كنا هدفًا لنظرات الاشمئزاز أو الشك أو الشفقة.

قالت لي (راوية): "تجاهليهم وتصرفي بشكلٍ طبيعي، وأبعدي عن وجهك نظرة الشعور بالذنب تلك".

وبينما نتوجه إلى الرصيف؛ أدركت أنه لم يسبق لي أن أرى هذا الكم من البشر من قبل. كنا دائمًا ما نسافر بالسيارة، ولم يسبق لي أن تعرضت لمثل هذا المزيج من مختلف الفئات. كان القلق قد استقر بداخلي نوعًا ما. فبفضل شجاعة (راوية) وتطيميناتها هدأت مخاوفي، ولكن هذا لم يكن كافيًا لتخفيف ألم الفراق الذي لا يزال مشتعلًا في قلبي. فقد اقتلعت نفسي من عائلتي، وفي سبيلي لمستقبلٍ يكتنفه الغموض. علاوة على أن (غسان) لم يتصل بي منذ فترة، و(راوية) تتهرب من الإجابة عن أسئلتي بخصوصه. جف حلقي، واغرورقت عينيّ بالدموع. فالتطلع إلى المستقبل، لم يكن يقل ألمًا عن التفكير في الماضي .

غير أن (راوية) انتشلتني من تلك الحالة المزاجية الكئيبة، لما همست في أذني: "إنه عالم مختلف. عليك أن تعتادي على ذلك". وعندما وصل القطار؛

أخذتني من يدي، مردفة: "لقد حجزت لنا مقعدين في الدرجة الأولى. إنها نظيفة، ودعينا نأمل أن الرجال الذين سيستقلونها يتصفون بالذوق واللياقة." ولكن كانت نبرة صوتها توحي بالشك.

استغرقت رحلة القطار إلى القاهرة ساعتين ونصف. وطوال الطريق، صدعت (راوية) رأسي بالحديث عن الحياة الجميلة في لبنان، ولكن كل حديثها عن مستقبلنا، لم يشتمل على شيء يذكر عن الرجل الذي كنت أشتاق له؛ فالتفت برأسي ناحية النافذة وأغمضت عيني، حتى جاء (الكمساري) وفحص تذاكرنا.

وبعد أن تركنا؛ سألت (راوية) أين سنقيم؟، فقالت لي إننا سنعيش في شقة أحد أصدقاء (مروان) فسألتها:

"وهل سيقيم هو معنا؟"

"اوه، كلا. إنه في باريس. سنقيم في الشقة وحدنا. إنها نظيفة جدًّا وفي حيٍّ راقٍ جدًّا".

ابتسمت؛ لأن فكرة العيش وحدنا أسعدتني، خصوصًا وأننا سنكون على بعد ما يقرب من مائتى كيلو متر من الإسكندرية.

فتحت (راوية) حقيبتها، وأخرجت منها علبة سجائر (كينت)، فقلت لها:

"راوية، من فضلك لا تدخني، فالرجال يحدقون فينا".

فقاطعتني، قائلة: "اذا واصلتِ التصرف مثل اللصوص، فستبدين كلصة، وسيعاملك الناس على هذا النحو".

فقلت لها: "كل ما هنالك أنني لا أريد أن يسيء الركاب الظن فينا." وذكرتها بما قاله لها أبونا عندما كان عمرها تسعة أعوام فقط، وتمضغ العلكة؛ بأنه رأى العاهرات خلال الحرب العالمية الثانية واللاتي كنَّ أكثر حشمة، فأردفت:

"ولا أريد أن يحسبوننا عاهرات. انظري كيف يحدقون في فخذيك؟. من فضلك، غطيهم بمحفظتك ".

وبدلًا من ذلك، وضعت (راوية) ساقًا على ساق، وهو شيء كان أبونا يحظر علينا فعله في وجوده.

همست لـ(راوية): "هل تعتقدين أنك ستدخلين النار؟"

"كلا، يا ليلى، هم من سيدخلونها." وأومأت قليلًا نحو رجلين؛ يجلسان قبالتنا وضحكت.

بقيت عيون الرجلين ثابتة على فخذيها.

ورغم أنني تركت المنزل؛ إلا أنني كنت لا أزال أحتفظ بالأفكار المشوهة عن الأخلاق التي علمني إياها أبي والمجتمع. كانت المحرمات الثقافية لاتزال تجري في دمي، وأنا ألوم (راوية) على نظرات الرجال لها.

obeikandl.com

(35)

كانت الشمس قد اختفت بالفعل وراء الأفق عندما وصلنا إلى القاهرة. لفحت الحرارة الصحراوية الجافة وجهي بانتقام. بدت محطة القطار غارقة في الفوضى، مع عدم وجود قواعد أو لوائح واضحة. في المقابل؛ كانت الإسكندرية مدينة منظمة وحضارية. كان الرجال يقفون تحت علامة (ممنوع التدخين) وسجائرهم مشتعلة. تدافع الناس أمام شباك التذاكر؛ تلوح أيديهم متقاتلين للحصول على التذاكر قبل غيرهم، فيما التصقت قمصانهم بظهورهم جراء تصبب أجسامهم عرقًا، أما هؤلاء الذين يرتدون سترات فقد حملوا ستراتهم على أكتافهم، ووقفت النساء وراء الحشد منتظرات الحصول على تذاكرهن في الأخير، وراح الأطفال الصغار يتوسلون من أجل المال، فأعطت (راوية) اثنين منهم بعض الفكة، وهي تقول ضاحكة:

"إن أعمالي الحسنة ستمحو سيئاتي".

خارج المحطة؛ تعرضنا لوابلٍ من عروض التوصيل بسيارات التاكسي، حتى أشارت (راوية) إلى أنظف سيارة، وبعجرفةٍ أعجبتني؛ طلبت من السائق أن يفتح باب المقعد الخلفي، فامتثل لها بابتسامةٍ كبيرة، بينما جلستُ ملتصقة بها. وأمرته بالتوجه إلى الزمالك.

"أين في الزمالك، يا عروسة؟"

"تحرك، وسأخبرك في الطريق بوجهتي".

بدت مسترخية، وشعرت أنا -أيضًا- بالارتياح. كانت السيارات تمشي في خطوطٍ متعرجة دون أي احترام لإشارات المرور والمشاة الذين أخافوني وسلوني في الآن نفسه. عندما تباطأت حركة المرور؛ هرع الأولاد الصغار إلى التاكسي،

وقدموا لنا قلائد الياسمين الطازجة وصناديق مناديل (الكلينيكس). أمسكت (راوية) قلادتين من صبي وأعطته بعض الفكة، فصاح الولد:

"حفظك الله ورزقك بعريس كريم مثلك." فردت عليه (راوية) بعلو صوتها:

"أنا لا أريد عريسًا." ثم طوقت عنقي بواحدة من قلائد الياسمين، وطوقت عنقها بالآخر.

عندما وصلنا إلى وجهتنا؛ نزل السائق منها وأعطى حقيبتنا للبواب، الذي جاء لاستقبالنا عند الرصيف. ودست (راوية) بكرمها المعهود بقشيشًا كبيرًا في يد البواب، وهمست لي" Il va nous servir bien maintenant " :سوف يخدمنا جيدًا من الآن فصاعدًا".

كان بالشقة غرفة نوم واحدة وحمام واحد. مساحتها أقل بكثير من مساحة شقتنا في الإسكندرية، ولكنها كانت مريحة ومفروشة بالكامل. كان كل أرضياتها خشبية، وبها شرفة تطل على شارعٍ سكني تصطف أشجار الكافور على جانبيه.

فتحت (راوية) جميع النوافذ، قائلة: "ليلى، هنا في القاهرة، يمكنك الجلوس في الشرفة طوال اليوم. (أبانا، أحمد، ومون شابوه) على بعد مسافة كثيرة منا".

تهالكت مستريحة على كرسي في الصالون؛ مستشعرة حريتي، وواضعة ساق على ساق .

أغلقت (راوية) النوافذ بسبب الرياح المحملة بالغبار، والتي كانت تضرب القاهرة بين الحين والآخر، فقلت لها متوسلة:

"كلا، أرجوك اتركيها مفتوحة. لا أريد أي أبواب أو نوافذ مغلقة بعد الآن".

"لقد تأخر الوقت يا ليلى، دعينا ننام." ورفت عيناها من وراء عدسات نظارتها.

obeikandi.com

ألقينا بجسدينا على السرير من فرط الإنهاك متحضنتين بعضنا البعض كقطع الأحاجي، ورحتُ في سباتٍ عميق يغمرني الشعور بالفرح والإثارة. استيقظنا في صباح اليوم التالي، وجسدينا لا يزالان يحتضنان بعضهما بكل أريحية، كما لو كنا يقطعا وعدًا في صمتٍ بألا يتركا بعضهما مرة أخرى.

لم يستطع البواب الانتظار لإظهار تقديره لكرم (راوية)، وطرق على باب شقتنا عند الفجر، قائلًا: "جئت للتحقق مما إذا كنتما في حاجةٍ إلى أي خدمة".

كنا منزعجتين، ولكن سلوكه الرقيق أنقذه من لسان أختي اللاذع، فأعطته بعض المال، وسألته بلهجةٍ متعجرفة: "إذًا، ما اسمك؟"

"خدامك، عبد الباسط".

ثم أردفت بنبرة أرق: "من فضلك. لا تأتي هنا مرة أخرى إلا إذا طلبنا نحن منك ذلك. ولكن بما أنك جئت، فأحضر لنا بعض الطعام. نحن نريد حليب وشاي وسكر وجبن، وكرواسون. لكن تأكد من أن الكرواسون طازج. وأريد جامبون، مرتديلا، سوسيس، واثنين باجيت فرنسي".

جفل رأس عبد الباسط إلى الوراء؛ حينما طلبت منه منتجات لحم الخنزير ، لكنه عاد وسألها مبتسمًا: "هل الهوانم مسيحيات؟"

"لقد أعطيتك قائمة بطلباتنا." ثم رفعت صوتها، مردفة: "أحضرها وحسب، ولا تفتح فمك إلا إذا أعطيتك الإذن! والآن أرني عرض أكتافك. هيا انصرف." وصفعت الباب في إثره صفعًا.

كنت أقف صامتة.

"إن لم تفعلي ذلك، فسينسى مركزه ويتجاوز حدوده".

"لكنك طلبت منه؛ أن يحضر لنا طعامًا حرامًا".

"ليلى، كل ما لم نتمكن من القيام به في المنزل، سنفعله الآن. اعتادي عليه. إلى جانب ذلك، فقد اشترى لنا أبانا (هام) وهو من لحم الخنزير، أنسيت؟"

"وهل سنشرب الكحول، أيضًا؟" شعرت بالتوتر إزاء التغيرات المفاجئة في منظومتنا الأخلاقية والسلوكية المتوارثة، ولكن لم يكن لدي أي خيار آخر سوى الانصياع لـ(راوية).

"لِمَ لا؟ إذا كنت ترغبين في ذلك، فلتشربيه. كل اللبنانيين تقريبًا يشربونه. فلماذا نكون أنا و(مروان) مختلفان؟"

لم تستطع (راوية) الانتظار حتى أركب معها عربة التغيير التي ركبتها هي منذ زمن، ولكني لم أرد لا شرب البيرة ولا غيرها من المشروبات الكحولية، فلا أزال أحترم ما تعلمته.

والآن، وبعد استقرارنا في شقتنا الجديدة؛ أردت أن أسمع المزيد عن (غسان). لقد فشلت كل جهودي لطرح هذا الموضوع أثناء ركوبنا القطار، وبدأت أشعر بالغيظ والغضب فعليًّا من (راوية)، وراودني الشعور بالامتعاض من سلوكها المتعالي، وإصرارها على معاملتي كطفلة. ورغم خوفي من الغموض الذي يكتنف سلوكها؛ إلا أنني كتمت إحساسي بالضيق والانزعاج، على أمل أن ترضي فضولي قريبًا.

وعندما حاولت توجيه دفة الحديث في هذا الاتجاه مرة أخرى؛ تجهمت، قائلة: "ليلى، أريدك أن تخرجي مع رجال مختلفين، وتعطي نفسك فرصة لمعرفة؛ ما إذا كان (غسان) هو الشخص الذي تريدينه حقًّا؟"

لم تكد تتم عبارتها حتى عاد البواب ومعه طلبات (راوية)، فشرعنا نعد وجبة الإفطار من المواد التي جلبها. لم أكن لآكل السوسيس؛ لأن أمي قد قالت لنا إن (السوسيس) مصنوع من أذن وأنف الخنزير، ولكني أكلت الجامبون، حيث اعتقدت أنه ليس مصنوعًا من تلك الأجزاء. شربنا الشاي وأكلنا بعض

obeikandi.com

الباجيت والكرواسون بالجبن في صمتٍ تام. شعرت بضيق (راوية)؛ لذلك قررت أن أتحلى بالصبر؛ فها قد اقتربت على كل حال من مقابلة (غسان) في لبنان.

سألتها: "هل سيلحق بنا مروان هنا في القاهرة؟" فردت مبتسمة: "بالطبع. إنه قادم." وبدت عليها سيماء الارتياح لتغيير الموضوع.

"هل تحبينه يا راوية؟" وبحثت في وجهها لعلني أجد علامة تنم عن الإثارة، ولكنها ردت ضاحكة:

"أحبه؟ إن مروان رجل في عمر أبينا، وعاجز جنسيًّا أيضًا. وقد تزوجني للتباهي فقط؛ كما أنني أجعله يبدو طبيعيًّا أمام مجتمعه وأسرته، ولكنه يعيشني هذه الحياة المريحة".

"إذًا، فأنت لا تمارسين الجنس معه؟"

"إنه يحاول كل ليلة تقريبًا؛ راجيًا أن يرضيني، لكنه لا يستطيع. وقد قلت له إنني لا أهتم بممارسة الجنس، لكنه لم يصدقني. يريدني أن أحمل منه. لا أدري إلى متى أستطيع تحمل هذا؟ لكنني سعيدة حتى الآن. إنه الرجل الوحيد الذي يريدني لنفسي، وليس لممارسة الجنس من بين كل من قابلتهم حتى اللحظة يا ليلى".

وفجأة؛ انهارت كبتلةٍ جافة لزهرةٍ مهملة، وأخذت تبكِ وتنتحب دون توقف، فانقبضت معدتي؛ لأنني ظللت لسنواتٍ وسنوات أغطي نقاط ضعفي بقوة شخصيتها، ورؤيتها تبكي على هذا النحو؛ جعلني أشعر بأني عارية.

"راوية، لا تخيفيني".

"أريد أن أقول لك شيئًا يا ليلى".

"وأنا لست مستعدة لسماع أي شيء، ولا أحب أن أراكِ تبكين".

"كلا، يجب أن تسمعيني." قالتها، وأخذت تبكي مرة أخرى للحظة، ولكنها استجمعت شتات نفسها، مردفة: "عليكِ أن تعرفي لماذا أكره الرجال؟ فقد ظللت لسنواتٍ أكتم عنك ما حدث في ذلك اليوم".

شعرت بكياني كله يهتز. كنت أعرف أي يوم تعني، عندما ضبطها ابن عمنا (أحمد) تستخدم هاتفًا منزلي الصنع للحديث مع الصبي (سامي) الواقف في الشرفة المجاورة.

نظرت لأعلى نحو السقف، وهتفت: "أين كنت يا الله؟ كنت مؤمنة بك، كنت واثقة فيك".

سرت رعشة في جسمي؛ فقد أيقظ اسم (أحمد) الكثير من الذكريات المروعة التي حاولت دفنها في أعماق عقلي، ولكن كلمات (راوية) أحيتها من جديد؛ فأخذتها بين ذراعي ورحت أمسح على شعرها حتى هدأت. ثم جلسنا على الأريكة، في مواجهة بعضنا البعض، وحكت لي ذلك الجزء من القصة الذي لم أكن أعرفه مطلقًا.

"لقد دفنت براءتي الذبيحة في غرفة (أحمد)، ولكن النزيف لم يتوقف منذ ذلك الحين." ثم توقفت وأخذت نفسًا، مضيفة: "هل تذكرين الثوب الأصفر الذي كنت أرتديه في ذلك اليوم؟"

أومأت برأسي موافقة، وتذكرت بقع الدم عليه، والتي ادعت أنها من الـ (x)، أي دم الحيض. ورأيت مرة أخرى كدمات على جسدها نتيجة الضرب الذي كاله لها (أحمد). تذكرت قيامها بتكوير فستانها الأصفر، ولفه في غلاف قطعته من إحدى المجلات، وطلبها مني إخفاء تلك اللفة في الدرج السفلي من دولابنا.

"هل تذكرين: أنني قلت لك إنني لا أريدك أن تري العالم من خلال النظارات السوداء التي لبستها أنا؟"

تذكرت. وتذكرت قولها إنها كانت فتاة منحلة؛ لأنها تحدثت إلى (سامي) من على بعدٍ عبر كوب ورقي.

"ليلى." قالتها بصوتٍ مخنوق بفعل ما سكبته من عبرات. "لقد اغتصبني. أحمد اغتصبني".

غطيت وجهي بيدي، غير متأكدة مما إذا كان بمقدوري استيعاب هذا الاعتراف البشع. ارتعشت يدي بعنف، فأنا أكاد ألا أصدقها. لم أكن أريد أن أصدقها، ولكني كنت أعرف أنها تقول الحقيقة. انهارت مرة أخرى، فاقتربت منها على الفور لآخذها بين ذراعي. بكيت وتركتها تبكي معي، وفجأة شعرت بأنني أنا الأخت الكبرى، الأخت التي تعتني بأختها الأضعف منها. خللت شعرها بأصابعي، وضممتها إليّ بقوة، غير قادرة على السيطرة على بكائي، وانتظرت حتى انتهينا من البكاء.

عندما توقفنا عن البكاء أخيرًا؛ أخذت (راوية) يدي ووضعتها على قلبي، قائلة: "عديني يا ليلى، أنك لن تفتحي هذا الموضوع مرة أخرى أبدًا".

كنت مخنوقة، لكنني استطعت قول: "أعدك يا راوية. لن أتحدث عن هذا الموضوع مرة أخرى أبدًا".

أردت نسيان ما حكته (راوية)؛ فقد اعتصر الألم صدري بقوة، حتى أنني استطعت التنفس بالكاد. في تلك اللحظة، لم أشعر بالأسف لمغادرة مصر. الآن فهمت سبب غضب (راوية) وسخريتها الدائمة من الرجال، ولماذا فقدت عيناها البريق منذ ذلك اليوم. في ذلك الحين كنت أعتقد أن هناك المزيد بهذه القصة ولكني لم أكن أريد أن أعرف الحقيقة؛ لذلك دفنت ذكرى ذلك اليوم في أعماقي، ونسيته كله أصلًا حتى أحيته هي من جديد.

"هل أخبرت أمنا؟" كنت آمل أن تقول لي إنها لم تفعل، ولكنها رمتني بحقيقة مرة تقشعر لها الأبدان مرة أخرى؛ جعلت جسمي يتجمد غير مصدقة.

"بلى، أخبرتها، لكنها دافعت عن أحمد، وطلبت مني أن أتخلى عن اتهامي لتجنيب الأسرة الشائعات الفاضحة".

غطيت أذني؛ رافضة أن أسمع أن أمي عرفت ولم تحمِ أختي. لم أكن أريد أن أكره أمي، أو أن أترك مصر وفي صدري ذكرى غادرة عنها. أخذت أئن ألمًا، وأنا أهتز يمينًا ويسارًا.

"لا تغضبي من أمنا، فأبانا هو الذي يجب أن يتحمل وزر غضبك. فهو السبب في رعب أمنا. لا أستطيع القول إن أمي لم تصدقني حينذاك. فقط تذكري؛ أنها هي التي ساعدتني وساعدتك على الهروب لكى تبقينا بعيدًا عن أي ضررٍ آخر قد يلحق بنا في المنزل".

ارتكنت على تفسير (راوية) ذاك حتى أحافظ على ذكرياتي المحببة نحو أمي.

بعد اعتراف (راوية)، مضينا للأمام سويًّا، وكأن شيئًا لم يحدث. لم يلتئم الجرح أبدًا، ولكنه اختفى من أمام عيوننا منذ ذلك الحين. مضينا قدمًا في حياتنا الجديدة، رافضتين السماح لأي شخصٍ، أو أي شيء بأن يبقينا أسرى الماضي.

(36)

انضم إلينا (مروان) في القاهرة، وقد صدمت لكبر سنه. كانت (راوية) تحاول تهيئتي نفسيًا، ولكن رؤيته لأول مرة أبانت عن حقيقة عمره. فبالنسبة لفتاةٍ في سن المراهقة، فإن أي رجلٍ في أواخر الخمسينات من العمر، وهو نفس عمر أبينا، يبدو رجلًا كبير السن. كانت (راوية) تدافع عنه عندما نكون وحدنا، قائلة: "مروان ليس أبي!"

كان شاربه الأشيب متسقًا مع لون شعره الذي أعطاه مظهرًا مميزًا. كان يرتدي سترة زرقاء فاتحة مقلمة، وقميصًا أبيضًا مفتوح الياقة، من دون رابطة عنق. وقد قبلت به على هذا النحو، فكل ما كان يهمني الأمان الذي يوفره لنا.

أخذنا إلى النوادي الليلية الشهيرة على طول شارع الهرم، وكان الناس يظنوننا بناته. وفي عصر أحد الأيام؛ التقينا جارنا في المصعد، فغمز لـ(مروان) قائلًا: "ابنتان جميلتان ستبقياك مشغولًا." فهمست في أذن (راوية):

"مسكين مروان." فهمست هي بدورها:

"ليس لهذه الدرجة".

كنا عديمي الخبرة، ومتعطشتان لحياة الإثارة التي لم نكن لنعرف عنها شيئًا لو بقينا وراء أبواب منزل أبينا الشائكة .

لعب (مروان) دور المرشد المعلم، وتحدث معنا بلهجةٍ رقيقة، وعاملنا بلطف، ورعانا حق الرعاية، وهو ما فشل فيه أبونا. كما أغدق على (راوية) بهدايا باهظة الثمن من مجوهرات وملابس وأثاث لشقتنا. في المقابل؛ أشبعت (راوية) غروره في المناسبات الاجتماعية بإبداء اهتمامها التام به، ومنحه قبلة بين الحين والآخر على شفتيه.

كان لدى (مروان) عددًا من المعارف والأصدقاء في المدينة، لكنه لم يأت إلى القاهرة لأسبابٍ تجارية؛ بل جاء ليكون مع (راوية).

أصرت (راوية) على البقاء معي، بدلًا من العودة معه إلى بيروت، ولم يعترض. كنا ممتنتين للحياة المريحة التي وفرها لنا. ومع ذلك، كانت (راوية) تسر لي بشكواها، قائلة: "أترين المجتمع الذي نعيش فيه؟ لقد تزوجت هيكل رجل من أجل البقاء وكسب الاحترام. الرجال هنا وفي كل بلدٍ عربي آخرهم من يحكمون. وقد تربى (غسان) في واحدة من تلك البلدان. إنها ثقافة. نحن نعيش في عالم ينظر إلى المرأة على أنها من نسل الحية الشريرة التي أغوت آدم".

استأت من إقحام (راوية) لـ(غسان) في حديثها عن الرجال المصريين والعرب. بالنسبة لي، كان (غسان) مختلفًا بسبب دعمه لي حينما أنهيت المدرسة الثانوية، وإيمانه بحرية المرأة. رفضت مشاركة (راوية) كراهيتها الشديدة لكل الرجال العرب، ولكني احتفظت بأفكاري لنفسي.

رغم أنني وصلت إلى القاهرة مفعمة بالإثارة إزاء هذه المغامرة الجديدة، إلا أنني لم أحب المدينة؛ فهي ضخمة ومزدحمة، وتنتشر بها الروائح الكريهة. خلافا للإسكندرية، التي حباها البحر برائحته المنعشة. في البداية؛ وجدت حركة المرور في القاهرة مسلية، لكنها سرعان ما أصبحت مصدر إزعاج: حيث الأبواق تدوي باستمرار، والسائقون يتسابون ويتشاتمون إلى جانب الاختناقات المرورية اللانهائية على ما يبدو. كانت الحرارة والغبار ثقيلة الظل، وكذالك البشر. كانت القاهرة مدينة كبيرة مسومة بسلوكيات المدن الكبرى، إذ تجد الناس يهرعون هنا وهناك دونما اهتمام بالآخرين، والرجال في الشوارع يرموننا دومًا بالتعليقات البذيئة كلما مررت أنا و(راوية) أمامهم. "إلى أين أنت ذاهب يا جميل؟ ألا تريدون صحبة رجل؟" فيما كانت النساء ترمينا بنظرات الاستنكار والاستهجان.

لم أكن أستمتع بالخروج كثيرًا، ولم أغامر بالنزول في الشوارع وحدي؛ فهي شوارع مزدحمة يصعب التنقل فيها، كما أنها لم تكن مستقيمة ومنتظمة، كما هو الحال في الإسكندرية، بل ملتوية ومعقدة تكثر بها الحواري والأزقة؛ لكن (راوية) كانت تتصدى لأي شيء بعزيمة ثابتة، فلم تكن تمانع في التجوال في المدينة وحدها. أما أنا فلم أكن أخرج إلا معها، أو معها هي و(مروان).

بمرور الوقت؛ ضقت أكثر وأكثر بكل هذا الكم من النفاق في العالم المحيط بي، وخاصة في الطريقة التي اعتاد بها الناس استغلال دينهم لتبرير سوء السلوك وطرق تفكيرهم الجامدة. وكلما فكرت في كل ذلك؛ ازدادت رغبتي في الخروج ومغادرة مصر والمصريين.

ذهبنا إلى مطعم مساء أحد الأيام، وأصرت (راوية) على مجيئي معهم. أخذنا (مروان) إلى مكانٍ يقدم وجبات طعام لذيذة، وقائمة طويلة من أنواع النبيذ. بعد فترة ليست بالطويلة وبينما كنا نجلس؛ انضم إلينا رجل آخر، وهو صديق (مروان) ويدعى (صفوت). صافحني وابتسم في وجهي، فابتسمت له رغم أنني لم أجده جذابًا. لم يكف (صفوت) عن محاولة دفعي للكلام، ولكن لم يكن لدي شيء أقوله. وقد أثنى على أناقتي وجمالي، في حين لم أشعر لا بالأناقة أو الجمال، فركبني الشك، وخصوصًا عندما انتحى بي جانبًا في طريقنا، وسألني؛ عما إذا كان من الممكن أن يراني مرة أخرى؟ أفزعني طلبه الجريء، علاوة على أنني لا أريد أن أرى أحدًا سوى (غسان).

ومن بين تلك المحاولات المفضوحة المرتبة من جانب (راوية). تلك التي حدثت عندما ذهبنا إلى مرقص ليلي، فاقترب مني رجل غريب وسألني؛ إن كنت أسمح له بالانضمام إليه للرقص، وبينما نحن رقص؛ شنف أذني بأحلى الكلمات، وسألني ما إذا كان يمكن أن يخرج معي في وقتٍ ما. حدث هذا عدة

obeikandl.com

مرات في مختلف المراقص والأندية مع رجال مختلفين. دائمًا ما كان جوابي "لا، لا، لا." ولكن كلما قاومتهم أكثر؛ بدوت أكثر إغراءً في عيونهم.

أصبح واضحًا أن (راوية) تحاول عمدًا أن تنسيني (غسان)، الأمر الذي أصابني بالغضب، وقلت لها ذلك، فردت عليّ:

"انظري حولك، انظري كيف أن العديد من الرجال يطاردونك. لماذا غسان؟ اتركي الماضي خلفك. ابدأي حياتك الجديدة من دونه." فقلت لها:

"إنه يحبني، ولكن هل تريدين مني أن أنساه، وأتزوج واحدًا من أولئك الرجال العجائز ذوي اللعاب السائل الذين نلتقيهم هنا باستمرار؟"

"الرجال بعد ممارسة الجنس سواء. الحب ليس في جيناتهم. ولم يخلقهم الله مختلفين في لبنان." ثم ساقت حجة أخرى، قائلة: "ليلى، عليك أن تكون على بينة من العقلية العربية، فلن تقبل أي عائلة، سواء هنا أو في لبنان، زواج ابنهم من فتاة هاربة، ولن تكسب أبدًا أي احترام في هذا المجتمع، بغض النظر عما تحققين. وكلما قبلت ذلك الواقع، أضحى تحقيق أحلامك أكثر سهولة ".

لم تهتم بأن (غسان) قد أكد لي أن والديه أحباني بالفعل، وفي كل مرة تحدثنا عنه، كانت تغضب بشدة. لم أكن أفهم لماذا، ولم أصدق ما حاولت أن تقوله لي عنه. ولما رأت اليأس مرسومًا في كل ملامح وجهي؛ تنهدت بإحباط، قائلة:

"ماذا لو مات؟ ماذا ستفعلين بعد ذلك؟"

تزلزلت الأرض من تحت قدمي، وفقدت توازني وسقطت منهارة على الأريكة، فعاجلتني وهي تعانقني:

"إنه مجرد سؤال. لا تنهاري هكذا".

"من فضلك يا راوية، لا تسألي مثل هذه الأسئلة أبدًا مرة أخرى".

أومأت، ثم هزت رأسها شارحة: "أريدك فقط، أن تصدقي أنه يمكنك أن تحظي بمستقبلٍ جيد وناجح بدون غسان أو أي رجلٍ آخر".

إن (غسان) لم يتخل عني لأي سببٍ من الأسباب. كان مهذبًا ورقيقًا، والأهم أنه كان يحبني. ورغم كل التحذيرات التي وجهتها لي (راوية)، فقد كنت لا أزال أثق في أنه ينتظرني. وحلم الحياة السعيدة مع (غسان) لم يغب يومًا عن قلبي أو عقلي. حافظت على هذا الحلم حيًّا وجميلًا؛ رافضة التخلي عنه بأي شكلٍ كان.

كانت أهم خطوة بات عليّ اتخاذها الآن بعد أن صرنا آمنين في القاهرة، وبعد حصولي على الطلاق؛ هي التقدم بطلبٍ للحصول على جواز السفر. راوية، بطبيعة الحال، كان لديها واحد بالفعل، وتعرف إجراءات الحصول عليه. وقد ساعدتني في ملء الاستمارات، وعندما انتهينا؛ سألتها ما إذا كان يجب عليّ أن آتي معها لتقديمها، فقالت لي:

"كلا، لست مضطرة للمجيء، فأنا أعرف طريقي جيدًا، والمكان هناك مزدحم جدًّا، وأعلم أنك لا تحبين الزحام. يمكنك البقاء هنا وانتظاري".

كان مكتب الجوازات يقع في مجمع حكومي يكتظ بمئات المكاتب، تصطف أمامها أعداد كبيرة من الناس للحصول على جوازاتهم، مع عودة الكثيرين منهم في اليوم التالي؛ لأنهم لم يحصلوا على مبتغاهم في المرة الأولى. وقد حذرتني (راوية) من أن تقديم الأوراق سيستغرق بعض الوقت، ولن يكون أمامنا سوى الانتظار. وعندما عادت إلى البيت؛ قالت لي إنها انتظرت في الطابور لساعات، ولكنها لم تتمكن من الحصول على الجواز قبل انتهاء ساعات العمل.

لقد وثقت بها لإتمام هذه المهمة، وكنت ممتنة لعنائها من أجلي، ومن جانبها لم تتوانى (راوية) عن زيارة مكتب الجوازات للتحقق من صدوره، ولكنها كانت تعود كل يومٍ بنفس الشكوى، إذ كانت تقول لي:

"لقد اضطررت للانتظار في طوابير لساعاتٍ مرة أخرى، لكن الموظف قال لي: "إنه لم يجهز بعد. عودي بعد أسبوعين".

في المرة التالية؛ أخبرها الموظف أن عليها أن تذهب إلى مكتبٍ آخر للحصول على استمارة وملئها، والعودة إلى أول مكتب والانتظار في الطابور مرة أخرى؛ لتقديم الأوراق الجديدة. وهكذا تكررت حكاياتها عن التعقيدات البيروقراطية بطرق متنوعة. كانت هناك وثيقة معينة تحتاج إلى ختم، اضطرت (راوية) للذهاب إلى مبنى آخر لختمها، فقط لتعلم أنه لم يكن الختم الصحيح، فاضطرت إلى العودة والحصول على آخر.

مرة بعد مرة؛ لم تتمكن من الحصول على جواز سفري، إما لغياب الموظف المسؤول في ذلك اليوم، أو لتأخر أوراقي في هذا المكتب أو ذاك. استمر الأمر على هذا المنوال لفترةٍ طويلة من الوقت، حتى لم يعد لدى (راوية) ما تقوله، وتوقفت أنا عن سؤالها. وقد اعتاد المصريون التأخيرات، والتعقيدات البيروقراطية في حياتهم، ولم يكن هناك شيء يمكنهم عمله حيال ذلك سوى الانتظار. على أمل أن تحل المشكلة في المرة القادمة التي تذهب فيها (راوية) وتقف في الطابور. في غضون ذلك؛ حاولت أن تصل بـ(غسان). من اليوم الأول بعد وصولنا إلى القاهرة؛ جلست على الأريكة في زاوية المدخل وأمسكت الهاتف، فردت عليّ عاملة الهاتف، وأعطيتها رقم (غسان) في لبنان، قائلة:

"من فضلك، اتصلي لي بهذا الرقم."، فقالت:

"حسنًا، سأعاود الاتصال بك عندما يرد عليّ".

جلست بجانب الهاتف منتظرة، وبعد نصف ساعة رن جرس الهاتف، وقالت العاملة: "لقد وصلت الى الرقم، ولكن ليس هناك رد." وفي الخلفية، كان هناك صوت رنين متكرر، فأردفت: "كما ترين، هناك رنين ولكن لا أحد يرد".

شكرتها. حاولت مرة أخرى في ذلك المساء، وكانت النتيجة نفسها. حاولت بعد بضعة أيام، ومرة أخرى لم يحالفني النجاح. فعاودت الاتصال بـ(ثريا) في الإسكندرية، وسألتها ما إذا كان غسان قد حاول الاتصال بي هناك، ولكنها قالت إنه لم يتصل؛ فقلت لها:

"من فضلك، إذا اتصل بكم، أخبريه أننا في القاهرة وأعطه رقم هاتفنا هنا." فأكدت لي (ثريا) أنها ستفعل.

حاولت الاتصال مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، ولكن في كل مرة لم أكن أتلقى أي رد، حتى أن عاملة الهاتف لم تكمل الاتصال بي. ازداد إحباطي أكثر وأكثر، ولكني لم أكف عن المحاولة، بل ورفضت مغادرة الشقة عدة مرات عندما أرادت (راوية) أن أذهب إلى مكانٍ ما معها. واضطررت إلى البقاء وانتظار إتمام مكالمتي. وبمرور الوقت، قلت اتصالاتي كثيرًا، حتى صارت بمعدل محاولتين في الشهر تقريبًا. فتوصلت إلى أن هناك عطلًا لابد، وقد حدث لهاتفه وأن عليّ الانتظار، حتى أصل إلى لبنان لمعرفة حقيقة الأمر.

في تلك الأثناء، كانت (راوية) في عجلةٍ من أمرها للسفر إلى لبنان، ولم تشجعني كثيرًا على الاتصال به. بدا لي أنها عازمة على إرغامي على نسيان (غسان). ولكن كلما حاولت أكثر؛ أصبحت عزيمتي أشد صلابة. لقد أحبني (غسان). أنا على يقين من ذلك. وكان هناك سبب وجيه لعدم قدرتنا على التواصل مع بعضنا البعض. هذا اليقين الأعمى مكنني من الاحتفاظ بآمالي وأحلامي حية خلال عامين طويلين ومرهقين جدًّا في القاهرة. خلال ذلك الوقت؛ حاولت التسجيل في إحدى جامعات القاهرة، لكنني فشلت لعدم وجود بطاقة هوية، التي لم تستطع أمي إحضارها لي. ورغم أننا كنا نبعد مائتي كيلو متر من الإسكندرية، إلا أنني كنت لا أزال أشعر بالحاجة إلى الاختباء وتوخي الحذر؛ ولذلك قمنا بالحد من أنشطتنا خارج شقتنا خلال النهار.

(37)

بعد شهرين من عيد ميلادي العشرون، استيقظت على أجراس قداس في كنيسة (سانت جوزيف) الكاثوليكية بشارعنا، وقد تعبق المكان من حولي برائحة سجائر (كليوباترا). كانت (راوية) تجلس القرفصاء عند حافة السرير لابسة فستانها الأحمر القصير، تمسك سيجارة، وتطلق هبة من الدخان عبر أنفها؛ فجلستُ وفركتُ عينيَّ وقلتُ متثائبة:

"ماالخطب؟ لماذا استيقظتِ في هذا الوقت المبكر للغاية؟"

سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها. ولم أتمكن من قراءة أية تعابير في عينيها التي كانت مخبأة وراء وهج نظارتها، ولكن صمتها هذا جعل قلبي يدق بسرعة.

"راوية، أرجوكِ قولي شيئًا".

أخذت أختي نفسًا عميقًا، وأطفأت السيجارة في مطفأة سجائر فضية التي كانت تمسكها في يدها الأخرى، ثم وقفت، وغادرت الغرفة، وعادت بعد لحظة؛ تحمل حقيبة اليد خاصتها. جلست مرة أخرى، وأخرجت كتابًا أخضرًا صغيرًا، ومدت يدها في الفضاء الفاصل بيننا لتعطيني إياه. كان غلافه مزينًا بنسرٍ ذهبي براق.

"جوازسفرك يا ليلى".

عقدت المفاجأة لساني، فأمسكت بجواز سفري، ووضعته بالقرب من قلبي، وقمت من على السرير. وقفت (راوية) بدورها وعانقتني؛ بينما ظللت محتفظة بالجوازفي إحدى يدي، بين قلبينا؛ فسألتني راوية:

"لماذا تبكين؟"

"هذه دموع الفرح. لقد أعطيتني الأجنحة التي ستأخذني إلى غسان".

"أعطه لي. سوف أحتفظ به مع جوازي في حقيبتي." ولكني سحبته من يدها، وجلست على حافة السرير، قائلة:

"كلا يا راوية، سوف يبقى معي الآن. أريد أن أقرأه".

"سنسافر يوم الخميس المقبل".

فتحت الجواز وقرأت الصفحة الأولى. توقفت عيني على تاريخ صدوره، وأخذت أحدق فيه للحظة حفرت في رأسي. لقد صدر جواز سفري قبل عام من اليوم.

"آسفة يا ليلى".

وقفت، وقد تاهت أفكاري؛ شاعرة بالعجز والحيرة. أخذت أنظر أنا و(راوية) إلى بعضنا في صمت، وقد اتسعت عيوننا دون أن ترف، ونحن نحدق في بعضنا بنظرةٍ غير مفهومة. وبينما أطلقت تنهيدة عميقة؛ امتلأت رئتي بخيبة الأمل. خفضت عيني إلى جواز السفر الذي لا يزال في يدي، ورأيت وجه (غسان) الباسم تحوم فوق الصفحة المفتوحة. رفرف قلبي بالسعادة المرتقبة.

كانت عيون (راوية) تتوسل المغفرة. لم يكن لدي أي خيار سوى تجاهل الألم، قبل أن يترك ندبة في علاقتي معها. لابد أن شقيقتي لديها سبب وجيه؛ لإخفاء جواز السفر تلك المدة الطويلة؛ فهي الشخص الوحيد من عائلتي الذي أثق فيه ثقة تامه. بالإضافة إلى أنني لازلت غير قادرة على تجاهل ذلك الشعور الفظيع المتنامي بداخلي، وإحساسي بأن تصرفها ذاك له علاقة بعدم رد (غسان) الغامض على مكالماتي.

وبدلًا من تقديم عذرٍ مقنع، غمغمت بتعاطف: "سامحيني أرجوكِ." فسألتها متخوفة:

"راوية، لماذا فعلتِ ذلك؟"

"لا تسأليني الآن. عندما نصل إلى لبنان، ستعرفين السبب".

تجمدت في مكاني، وخفق قلبي بعنف، لكنني رفضت توقع الأسوأ؛ فقلت: "أريد أن أعرف الآن؛ لماذا لا تريدينني أن أرتبط بغسان." نظرت في عيني وهزت رأسها، ثم أشاحت بعيدًا، وهي تقول: "ليلى، رغم كل ما مر بنا، لا تزالين تعيشين في عالمك الخاص؛ متخيلة أن رجلًا يمكن أن يجلب لك السعادة. الرجال لا يعرفون معنى الحب. وغسان ليس استثناء".

"أنا متأكدة من أنه يحبني." قلتها مشددة على كل كلمةٍ وبصوتٍ عالٍ. كان قد مر أكثر من عامين منذ آخر مرة رأيته أو حتى سمعت صوته. ومرت خمس سنوات منذ أول مرة التقيته على شاطئ (سان ستيفانو)، ومايزال حبي له متقدًا كل هذا الوقت، وأرفض التخلي عنه الآن، أو السماح لأي شخصٍ أن يحاول إقناعي بنسيانه. أخذت أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا محبطة ومنزعجة من نصائحها الأبوية. فإذا بـ(راوية) تنفجر مغتاظة:

"برأيك، ما الذي يريده منك؟ الجنس، ولا شيء غير الجنس! ليس الحب، ولا الرومانسية".

فقلت لها، وقد اختنقت الكلمات في حلقي: "ماذا تقصدين؟ "

انسحبت (راوية) إلى المطبخ، فتبعتها ووقفت عند الباب؛ منتظرة أن تقول شيئًا. كانت تملأ (الغلاية) بالماء، وأخذت تبحث بعصبية عن الكبريت؛ فقلت لها:

"انظري أمامك، إنهم على الموقد".

أشعلت الموقد، وبقيت واقفة مولية ظهرها لي، وهي تقول: "ليلى، إن حساسيتك تلك لا تساعدني على أن أقول لك شيئًا." كان صوتها يرتجف قليلًا، وكأنها تريد إخفاء شيء ما. فانقبضت معدتي. إنها تخفي عني سرًّا خطيرًا بكل تأكيد؛ فسألتها:

"هل كنت ترينه في لبنان؟" فأجابتني، وهي تحدق في الماء بـ(الغلاية):

" بلى." لم أفاجأ بردها، ففي تلك الحين؛ كنت أتوقع أن أسمع منها شيئًا غيرسار.

لابد أن ذلك كان قبل عامين على الأقل؛ لأنها لم ترجع إلى لبنان منذ أن جاءت معي إلى القاهرة. مرت لحظة أو اثنتين كنا خلالها نقرأ أفكار بعضنا البعض. افترضت الأسوأ، وعرفت هي أنني مستعدة الآن للاستماع لها.

أخذتني من يدي وأجلستني على أريكة. جلست قبالتها، ولكن نظراتها كانت تزيغ بعيدًا، ولم يكسر الصمت المطبق في الغرفة إلا صوت أنفاسنا المتهدجة، فهمست لي:

"اسمحي لي أن أروي لك ما حدث. في بعض الأحيان عندما يسوء أمر ما في حياتنا، فإنه يصيبنا بالوهن، ولكن لا ينبغي أن نسمح له بتدميرنا. وتجارب الحياة تساعدك على أن تصبحي أقوى. انظري إليّ أنا مثلًا. لو لم أتعرض للإيذاء، لما كان لدي ما يكفي من الشجاعة للفوز باستقلالي، ولما كنت مقربة منك بما فيه الكفاية لتقديم المشورة لك. قولي لي يا ليلى، هل يمكنك التفكير في شيء أسوأ من التعرض للاغتصاب؟"

اجتاحني إحساس ينذربالشر، بات على وشك أن يتحول إلى صرخة طويلة ومؤلمة، ولكني بقيت صامتة. رفضت السماح لما سمعته من (راوية) أن يطفئ جذوة الأمل التي لا تزال متقدة في قلبي.

وقفت، وتحسست رأسها وصدرها وساقيها، قائلة: "لقد نجوت، نجوت كلي دون أن أفقد عضوًا من جسمي. ما حدث لم يمنعني من العيش بسعادة. هل أنت على استعداد لتدميرما حققته حتى الآن. من أجل رجل؟"

اغرورقت عيناي بالدموع، فأخذت (راوية) وجهي بين يديها بحنان، ثم سحبتني لتحضنني بين ذراعيها، وأخذت نفسًا عميقًا، قائلة:

"لقد تزوج غسان فتاة أخرى".

انطبقت عليَّ جدران الغرفة، وتوقفت عن التنفس. بدت كلمات (راوية)، وكأنها قادمة من عالمٍ مختلف، وتحول وجهها ليصبح فمًا كبيرًا مستديرًا.

باعدت بين شفتاي، وأنا أهم بقول شيء، ولكنني ما لبثت أن أغلقتهما بإحكام، وأخذت نفسًا طويلاً مؤلمًا. لم يكن هناك ما أقوله. أخذت أئن كحيوان جريح.

احتضنتني (راوية) بقوة، وأخذت تربت على ظهري، قائلة: "أنا آسفة يا ليلى، سامحيني أرجوكِ ".

"لا يا راوية." ثم أردفت بعد لحظةٍ أخرى: "أنا آسفة لعدم إصغائي إليك؛ أعدك بأنني لن أقع في الحب مجددًا. لقد خرج غسان من حياتي".

كنت أكذب؛ لأبين لها كم أصبحت قوية وناضجة. فلا يساورها القلق من ناحيتي؛ ولكن الحقيقة أن أحلامي وآمالي قد تساقطت مثلما تتساقط أوراق الخريف الميتة؛ لتتركني في مهب رياح عدم اليقين. إذ كان (غسان) يمثل بر الأمان لرحلتي منذ اربع سنوات من دونه، كنت أشعر بأنني عارية وبلا هدف. كنت أرغب في أن أجري بعيدًا إلى حيث تأخذني قدمي. كنت أريد أن أفر من العالم العربي بأسره. لا يمكنني تقبل ما حدث، ولا يمكنني التظاهر، كما فعلت أختي، بأنه لم يؤثر علي.

لم تنم عيني تلك الليلة، فقد اجتاحتني مشاعر متضاربة لا تعد ولا تحصى صدت أي محاولة للنوم. في الصباح، وقبل أن تلوح الشمس في الأفق؛ استيقظنا سعيدتين وحريصتين على السفر، وخائفتين قليلًا أيضًا، على الأقل بالنسبة لي أنا. لقد صدر جواز سفري دون أي أسئلة. كنت قد بلغت العشرين، وجواز السفر يعطيني الحق في مغادرة البلاد وحدي، دونما حاجة لموافقة الوالدين أو الزوج.

جلسنا على الأريكة في الصالون، جنبًا إلى جنب، نتدبر أفكارنا الخاصة، حتى تسلل ضوء النهار عبر مصاريع النوافذ. ثم سحبت (راوية) علبة سجائر من حقيبتها وببطء شديد، وضعت واحدة بين شفتيها المطليتان بالأحمر الناري.

كسرت حاجز الصمت، قائلة: "لماذا لا نتصل بـ(ماما) ونعرفها بأننا مسافرتين؟"

أخذت (راوية) نفسًا عميقًا من سيجارتها، ثم أطلقت الدخان من أنفها، قائلة: "من الأفضل أن نتصل بها من لبنان. فهم يبحثون عنا. أنسيتِ؟"

لم أكن قد نسيت وعيد أخي بأن يتعقبني حيثما ذهبت، ويمحو بدمي عار العائلة. لكن كان قد مروقت طويل الآن، ولم يسبق أن رأينا أثرًا له في القاهرة. يبدو أن التهديد بمنأى عنا.

دخلت غرفة النوم، وشغلت الراديو وجلست على حافة السرير. بدت غرفة هامدة لاحياة فيها، لاسيما مع طي سجادها، وإغلاق نوافذها، وإسدال ستائرها. أغلقت عيني، وارتميت بظهري على المرتبة. أعلن سمير صبري، مذيع البرنامج، عن الأغنية التالية على برنامجه الأسبوعيSpecial Requests ، قائلًا بالإنجليزية:

"هذه الاغنية مهداة لعلياء، شيرين، أليس، مونيك، ميمي. . ". وقرأ قائمة طويلة من الأسماء، ثم أضاف:"وإليكم جميعًا يا من تغادرون الإسكندرية، أغنية Adieu Mon Pays للمطرب إنريكو ماسياس."

وبدأت الموسيقى تنساب، وغنى ماسياس بصوتٍ دافئ كله شجن.

مع تلك الضغوط الناعمة التي شغلت رأسي، فكرت في أمي، وغسان، والإسكندرية، حتى أجهشت بالبكاء، متذكرة أنني قد لا أرى أمي مرة أخرى.

عادت (راوية) إلى الغرفة، ومررت أصابعها بين خصلات شعري بلطف، قائلة: "إذا كنت ترغبين في الاتصال بأمنا، فافعلي، ولكن لا تقولي لها أننا مسافرتان، وإلا ستحزن".

أخذتني بين ذراعيها، واستمعنا إلى بقية الأغنية وبكينا معًا. وعندما انتهت الأغنية؛ خرجنا إلى الصالة لاستعمال الهاتف. كنا قد تحدثنا مع أمنا مرات عديدة منذ أن وصلنا إلى القاهرة. دائمًا ما كانت مكالماتنا قصيرة. كنا في الأساس نريد أن نسمع صوتها ونطمئنها علينا. لم تكن تسألنا عن حياتنا، ومن جانبنا لم نكن نتطوع بإبداء معلومات. كما لم نكن مضطرين لأن نطلب منها أن لا تخبر أبي أو رضا بمكاننا، فنحن نعلم علم اليقين أنها لن تفعل.

طلبت (راوية) الرقم وأعطتني السماعة.

"آلو، أمي، كيف حالك؟"

على الطرف الآخر، كانت أمي صامتة بشكلٍ مخيف، ولكني أردفت:

"أمي، تذكري وعدي لك. سأعود من أجلك." فبكت، وتهدج صوتها عندما ردت، قائلة:

"إن شاء الله. دعواتي لكما دائمًا بأن يحميكما الله. انتبها لنفسيكما".

يبدو أنها كانت تحس بأننا سنغادر مصر. منعت نفسي من البكاء، ولكن لم أستطع الكلام.

أخذت (راوية) السماعة، قائلة: "أمي، سنكون بخير. سأعتني بها." وتظاهرت بالفرح وبالسيطرة على مقاليد الأمور. وبعد الصمت لبرهة، أخذت تردد في سماعة الهاتف: "ألو ... ألو ... ألو .." ثم غمغمت: "لقد أغلقت أمي الخط، لابد أن أبي قد حضر عندها." هزت كتفيها وأخذتني بين ذراعيها مرة أخرى، قائلة في حنان: "لا تقلقي يا ليلى، سنكون على ما يرام".

في المطار؛ أخذت (راوية) تتلفت وراءنا باستمرار، وطلبت مني أن أمشي بسرعة ولا أنظر إلى الوراء. كنت عصبية ولكن متحمسة. وقد طغى على قلقي هدير محركات الطائرات، ومكبرات الصوت معلنة الرحلات وأسماء الركاب، ومشاهد وأصوات الناس في طريقهم إلى مختلف الأماكن؛ فابتسمت وبدأت للاسترخاء، إلا أن (راوية) أمسكتني من يدي، قائلة:

"لا تفرحي بعد، وواصلي المشي بسرعة."، فسألتها:

"لماذا تنظرين خلفك يا راوية؟" وأسرعت الخطى، ولكن دون أن أفهم ما كانت تحذرني منه.

"أريد أن تأكد أنه ما من أحد يتبعنا." فصحت، ونحن نتحرك بسرعة:

"من ذا الذي يتبعنا؟"

"المون شابو- من غيره؟"

"وأنى لأخينا، أن يعرف أين نحن؟"

"أنا لست متأكدة، ولكني قلقة، ولن أطمئن إلا بعدما نجلس في الطائرة وتغلق أبوابها".

نظرت حولي، وتسارعت ضربات قلبي لتساير وقع خطواتي، حتى وصلنا إلى شباك شركة طيران الشرق الأوسط.

فتحت (راوية) حقيبتها في عجلة، وأخرجت جوازي سفر وتذكرتين، وأعطتهما لشاب يرتدي زيًّا أبيضًا في أزرق وعلى ياقة قميصه دبوس الشركة الذهبي البراق. فجأة، استدارت وطالعت كل الوجوه وراءنا قبل أن تشرع في ملء بيانات ملصقات الأمتعة. فقال لها الشاب مندهشًا:

"هل ثمة خطب يا آنسة - أقصد، يا مدام؟"

وقفت وراء (راوية) أرتجف، ثم أجبنا في نفسٍ واحد: "كلا".

فتح الجوازين، وأخذ بضع ثوان يمعن النظر فيهما، فبادرته (راوية):

obeikandi.com

"ليسا مزورين!"

قرصتها في يدها لتهدئ من روعها.

فانسحبت بعيدًا، وخاطبت الشاب بصوتٍ حازم، قائلة: "هل أنهيت فحص جوازاتنا؟" فأعطاهما لها بنظرة استياء، وأخذ حقائبنا، واضعًا بطاقات حول مقابضها.

"أتمنى لك رحلة جميلة، أيتها المشاكسة." قالها مسددًا نظرة أخيرة إلى (راوية)، ولكنها تجاهلته، ووجهت كلامها لي، قائلة: "اتبعيني يا ليلى، فنحن على وشك دخول المنطقة الآمنة".

فابتسمت وأسرعت الخطى وراءها.

التفتت (راوية) وقالت لي مبتسمة: "هل أنتِ سعيدة الآن؟"

أومأت برأسي موافقة، وأنا أريد أن أنفجر في صرخةٍ طويلة من فرط الفرح. لم أعد خائفة. فقد وثقت في (راوية) وكنت على يقين من أنها تسيطر على مقاليد الأمور، وبأن كل شيء على ما يرام.

"وأنا سعيدة أيضًا يا ليلى. فقد أوشكنا على الوصول إلى شاطئ الحرية الذي يقترب أكثر وأكثر".

وقفنا في طابور، يدًا بيد، منتظرتين بفارغ الصبر صعود ركاب الدرجة الأولى، ثم الأمهات والأطفال، ثم كبار السن.

عند بوابة حافلة المطار، أخذ المضيف يتفقد جوازاتنا لبضع دقائق. إذ كان سفر امرأة وحدها دون مرافق أمرًا غير معتاد. أخذت عيناه تحدق فينا متنقلة بين وجوهنا ووثائق سفرنا. وقفت وراء (راوية)، وجسدي يلمس ظهرها وركبتي ترتعشان، حتى سلم لنا المضيف جوازات السفر.

سارعنا إلى ركوب الحافلة، وجلسنا في المقاعد الخلفية. أمسكت (راوية) بيدي المتصببة عرقًا، وتنهدنا نحن الاثنين تنهيدة عميقة. ولكن سرعان ما

شعرت بقلبي يتألم بين أضلعي. وفي صمت؛ رحت أرثي الناس والأماكن التي سأتركها ورائي. ثم، وفي لحظة شك، أخافتني فكرة حياتنا الجديدة. ولكن نظرة واحدة على (راوية) كانت كفيلة ببث روح الطمأنينة والارتياح في صدري؛ فهي كل ما أحتاج إليه، ومن شأنها أن تساعدني على اجتياز الأمر بنجاح.

وأخيرًا؛ خرجنا من الحافلة وصعدنا الدرج إلى الطائرة. وجدنا مقاعدنا في المؤخرة فتهالكنا عليها. طلبت من (راوية) الجلوس في المقعد المجاور للنافذة. كانت شمس القاهرة مشرقة تطل علينا. وثار لعابي على رائحة الطعام الساخن في مقصورة المطبخ وراءنا.

جاءتنا مضيفة شابة تلبس زيًّا أزرقًا داكنًا ذات شعر قصير مصفف بعناية تحت القلنسوة، وطلبت مني بكل أدب أن أربط حزام الأمان. في حين أن (راوية) كانت بحكم خبرتها قد ربطت حزامها بالفعل. وهو ما طمأنني أن جميع الركاب الآخرين قد اتخذوا أماكنهم بهدوء دون أن يعيرونا أي اهتمامٍ بنا.

تبادلنا أنا و(راوية) ابتسامة النصر، وقد أدارت رأسي وأسندتها على كتفها. أغلقت أبواب الطائرة، ودارت المحركات، وكذلك قلبي. سمعت صوت شقيقتي بجانبي تقرأ سورة الفاتحة. فداخلني شعور بالطمأنينة، واسترخيت، ورحت في النوم.

أعلن صوت المضيفة عن قرب وصولنا مطار بيروت. أحسست بإثارة بالغة، وأنا أطل من خلال نافذة صغيرة. رأيت السحب البيضاء تسبح تحت السماء الزرقاء، وفوق الجبال الشاهقة المكللة بالأوشحة البيضاء؛ فنظرت إلى (راوية) غير مصدقة. فقالت لي:

"إنه الجليد".

"لم أكن أعرف أن هناك جبال بلبنان".

"بلى يا ليلى، بها كل شيء! جبال للتزلج، وبحر للعوم".

وأخذت تقص عليّ عوامل الجذب السياحي التي تنتظرنا في وطننا الجديد. ولكنني ونظرًا لما يغمرني من شعورٍ بالفرح والخوف والحنين إلى الوطن، كنت أفهم ما تقوله بالكاد.

"كل ذلك في انتظارك للاستمتاع به، دون خوفٍ من (رضا، أحمد)، أو أبي."

لمع وجه (راوية) بفعل آشعة الشمس المتدفقة من خلال نافذتنا الصغيرة .

نحن أحرار حقًّا!

ورغم أنني كنت لا أزال حزينة على رحيل (غسان)، ومتألمة لابتعادي عن أمي وباقي أقاربنا الطيبين، إلا أن إحساسي بالحرية طغى على كل مشاعري الأخرى. لقد كنت أبحث عن هذه الحرية طيلة حياتي على ما يبدو. ومع وجود (راوية) بجانبي، تمكنت من العثور عليها.

نظرت إلى أسفل مرة أخرى محدقة في الجبال المغطاة بالجليد تحتنا. إذًا، سيكون هذا هو وطننا الجديد. التفت مرة أخرى إلى شقيقتي. لقد كانت رحلة جبارة، وهي التي كانت تمدني بالنصح والتوجيه خلال ذلك المشوار الطويل. لولاها، لظللت عالقة في زواجٍ بلا حب، أو ما هو أسوأ. وهي من فتحت الأبواب مشرعة أمامي، وساعدتني على التطور لأصبح الشخص الذي أنا عليه الآن - واثقة في نفسي، جديرة بالثقة، محبة، والأهم من ذلك كله، متأكدة من قدرتي على تحقيق أحلامي. اعتصرت يدها، وشكرت الله على الحماية، والمساعدة اللتين وفرتهما أختي دائمًا، دونما تردد؛ ثم همست لها:

"أحبك يا راوية".

خاتمة

مضت أكثر من ثلاثة عقود منذ أن وطأت قدماي أرض لبنان بصحبة شقيقتي، وفي هذه الأثناء وقعت الكثير من الأحداث. عشت في لبنان أكثر من عامين، وبعدها هاجرت إلى كندا. بعد وفاة مروان، عادت (راوية) إلى الإسكندرية، حامل ووحيدة.

انتقلت في نهاية المطاف إلى الولايات المتحدة، واستقررت في ولاية كاليفورنيا، حيث تزوجت وأنجبت طفلين. أما (راوية) فقد فقدت ابنها الوحيد، ولكن لهذا قصة أخرى.

إنها الآن في المستشفى. إمرأة في أوائل الخمسينات من عمرها، وأصغر من أن تموت، لكن السرطان أتلف كبدها. اتصل بها يومياً لأطمئن عليها. لتقول لي وهى فى حالة شبه غيبوبة: "ليلى، أهذه... أنت؟ أنا بخير... الآن"،

يأتيني صوتها واهن ضعيف، وتتوقف بعد كل كلمةٍ لتلتقط أنفاسها، ثم تضيف: "إن صوتك هو ما يبقيني متعلقة بهذه الحياة، رغم أنني لا أطيق الانتظار لأكون مع ابني".

"كلامك يخيفني يا راوية. سأحضر لرؤيتك." فتتوسل لي ألا آتي، وأن أنتظر حتى تخرج من المستشفى.

ورغم أنني أريد اللحاق بأول طائرة قادمة إلى مصر، إلا أنها ترغمني على أن أعدها بالانتظار.

اخبرتنى فى إحدى هذه المكالمات قائلة: "اسمعيني جيدًا. أريد أن أقول لك شيئًا".

حاولت أن أمنع نفسي من البكاء، ولكني لم أستطع، فغمغت بصوتٍ واهن: "لا تبكي، ياليلى. سأكون بخير. لا تزالين كما أنتِ، عاطفية كعادتك دائمًا."

خفت صوتها إلى حد الهمس، وهي تردف: "هل تذكرين غسان؟"

خفق قلبي بقوة. لا يزال لاسم (غسان) تأثيرعاطفي عميق في نفسي. أدركت الآن في هذه اللحظة، أنني ما زلت أحبه؛ ولكني غير مستعدة لتضييع وقت المكالمة مع (راوية) في الحديث عن أي شخص، حتى لوكان ذلك من شأنه أن يحمل لي أخبارعن غسان؛ فقلت لها:

"نعم، بالطبع." رغم أنني كنت مندهشة لسماع هذا الاسم بعد كل تلك السنين، ولا أستطيع أن أتصور لماذا أثارت ذكراه.

"إنه لم يتزوج أي فتاة أخرى، بل فقد حياته في حادث سيارة، مع اثنين من أصدقائه، قبل أن ألحق بكِ في القاهرة".

طغت عليّ الصدمة وخنقت صوتي، فاغرورقت عيناي بالدموع، وسقطت مني سماعة الهاتف على الأرض، فأسرعت بالتقطاها وأنا أكافح لأبدو طبيعية. كنت أشعر بالعذاب لمعاناة (راوية)، ولم أكن أريد أن أزيد معاناتها بخوفها على دماري العاطفي، فحاولت أن أقول شيئًا أؤكد لها به تماسكي، ولكن كنت أشعر بالضعف في ركبتي. فاستندت على الحائط ورائي كيلا أقع.

"سامحيني أرجوكِ"، قالتها، وهي تناضل من أجل التلفظ بكل كلمة، ثم أردفت: "في ذلك الوقت كنتِ صغيرة، وفي طريقك لتبدأي حياةً جديدة. وقد رأيت أن الحقيقة قد تتسبب في دمارك؛ لذلك فضلت أن أقول لك ما ظننت أنه سيكون أقل إيلامًا. كل ما هنالك أنني أردت حمايتك يا ليلى. سامحيني، أرجوكِ".

خفق قلبي وتسارعت دقاته، حتى أنني خشيت أن تسمع لي ضربات القلب المضطربة. بقيت متجمدة في مكاني كحجارة أبي الهول. كنت لا أزال غير قادرة

على الكلام. كانت كلماتها كالخناجر تطعن قلبي. حاولت أن أكتم ألمي، ولكن كان ذلك صعبًا. فقد علمت للتو أن (غسان) قد مات، وها هي (راوية) تعاني من السرطان القاتل الذي ينهش كبدها.

ساحت الأرض تحت قدمي، وفقدت توازني، ولكنني حاولت السيطرة على تنفسي حتى لا أزيد من معاناة (راوية). أصيب رأسي بالصداع، وحاولت كتمان الألم بالضغط على جبيني بقوة. كنت وحدي في المنزل. كان أولادي في المدرسة، وزوجي في العمل. وكنت بحاجةٍ إلى شربة ماء.

تردد صوت (راوية) الضعيف مرة أخرى في السماعة، وجعلني أتسمر في المكان. "أريد أن أسمعها منك الآن، قبل أن أموت. أنا أحتضر يا ليلى. سامحيني".

أصيب صوتي بالاختناق، ولكني تمكنت بطريقةٍ ما من إخراج الكلمات، قائلة: "سامحتك يا راوية".

"لي رجاء آخر عندك يا ليلى، علمي أبناءك احترام النساء."

كان صوتها واهنًا، ولكن لا يزال يحمل تأثير نصائح الشقيقة الكبرى التي اعتدتها.

سمعتها تشهق على الطرف الآخر من الخط، وحاولت أن أجد الكلمات لأقول لها كم أحبها، وكم أجل كل ما فعلته من أجلي، وأن أقول لها سلمي لي على والدتنا الحبيبة، التي توفيت قبل أن تسنح لي الفرصة لرؤيتها مرة أخرى، ولكن فجأة سمعت صوتًا آخر على الخط. كان صوت الممرضة التي قالت لي:

"لقد لفظت أختك آخر أنفاسها، والبسمة ترتسم على شفتيها".

انهرت باكية، وغير قادرة على تحمل حقيقة وفاة توأم روحي (راوية)، وهي لا تزال تعاني من كتمان الحقيقة بشأن (غسان). للحظة، تمنيت لو أنها لم

تخبرني بأمر غسان. فقد مزق الحزن قلبي بعد أن فقدت أمي و(غسان) والآن (راوية). لقد أخذ كل منهم قطعة مني إلى قبره.

أرادت مني (راوية) أن أنسى (غسان)، وحثتني على ألا أحزن عليه بقية حياتي. لم تكن تريدني أن أشعر بأنني مكبلة إلى الأبد بذكرى الحبيب المثالي. ولو أنني اعتقدت أنه قد خانني وتزوج فتاة غيري، لكرهته، ولما فكرت فيه مرة أخرى. هذا ما هداها إليه تفكيرها، وكانت تلك هي طريقتها في حمايتي. لكنها لم تستطع أن تخرج من هذه الحياة دون أن تخبرني بالحقيقة كاملة. حتى وهي على سرير الموت لم تكف عن التفكير فيّ كعادتها دائمًا.

وللرواية بقية!

obeikandl.com

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com